

وقفات تربوية في الحديث النبوي

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصبّغ



الكتاب من الألبان

وَقَفَاتُ تَرْبَوِيَّةٍ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ



وقفات تربوية في الحديث النبوي

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصبغ

المكتب الإسلامي



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد،

فهذا الكتاب يبحث في جوانب من التوجيهات التربوية السامية التي نقف عليها في أحاديث الرسول العظيم ﷺ.

وهذه التوجيهات نماذج عملية فريدة من التربية النبوية لا نظير لها في غير هذه التربية الربانية؛ ذلك أن الخاصة الرئيسية العظمى في تلك التربية أنها تربية مرتبطة بالوحي.



وقد كان سيدي الوالد ﷺ وغفر له وأنزله منازل الصديقين قد أعدَّ هذا الكتاب للطبع، ولم يُفسح له في الأجل ليخرجه في حياته. فأكملت مراجعة الكتاب وتجهيزه للطباعة.

نسأل أن يلهمنا رشدنا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه لطفي بن محمد الصبّاغ

الرياض في ٢٠ ربيع الأول ١٤٤١ هـ

الموافق ١٧ تشرين ثاني ٢٠١٩ م

مقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْحَامُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد،

معلوم أن التربية من العلوم المهمة التي يختص بها رجال يقضون عمرهم في الوقوف على نظرياتها وحقائقها ومدارسها المتعددة.

ولكل أمة تتبنّى فكرة ما تربية تنسجم مع تلك الفكرة، فهناك التربية الرأسمالية وهناك التربية الاشتراكية، وهناك التربية المرتبطة بالبلد كالتربية اليابانية^(١) إلى آخر أنواع التربية، وطبعي أن تكون تربية إسلامية تتميز عن كل أنواع التربية. وتتلّمس تفصيلات هذه التربية من الكتاب الكريم والسنة المطهرة. وسنحاول بعون الله أن نعرض جوانب من تلك التوجيهات السامية التي نقف عليها في أحاديث الرسول العظيم ﷺ.

(١) انظر في مجلة "رسالة الخليج العربي" العدد ٢١ مقالة لمحمد جابر الأنصاري عنوانها "جذور التربية اليابانية وخصائصها المميزة".



وسنرى في هذه التوجيهات نماذج عملية فريدة من التربية النبوية لا نظير لها في غير هذه التربية الربانية؛ ذلك أن الخاصة الرئيسية العظمى في تلك التربية أنها تربية مرتبطة بالوحي كما سنبين ذلك بشيء من التفصيل.

لقد اختار الله سبحانه محمداً ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً أضاء العالم كله بنور التوحيد والعدل والخير.

قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٧]. لقد أرسله ربه ليأمر العباد بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وليحررهم من تلك المظالم التي كانوا يثنون من الخضوع لها، ويرفع بهم عما كانوا فيه من العادات الذميمة، والأخلاق السيئة. صلى الله عليه وسلم. قال الله ﷻ: ﴿وَرَحِمَیْ وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الزمر: ١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ولقد أدى صلوات الله عليه وسلامه الأمانة، وبلغ الرسالة، وبعث في العالم كله روحاً إنسانية رحيمة كريمة، وربى على هذه الروح السامية أمة الإسلام.. فكانت بذلك خير أمة أخرجت للناس، أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت بالله، وجاهدت في سبيله.. والله درّ القائل:

هل تطلبون من المختار معجزةً يكفيه شعب من الأحداث أحياء

لقد كانت حياة رسول الله ﷺ المباركة كلها توجيهات تربوية فيها الخير والساد، والنصح والإرشاد، إما بالقول البليغ اللين، وإما بالفعل المستقيم البين، فلرسول الله - بأبي هو وأمي - هو المربي الكامل.

وكان أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - الأرض الطيبة الخصبة التي نما فيها غرسه المبارك، وأثمر أعظم الثمرات .. أجل لقد كانت تربيته المثالية هي التي أوجدت الجيل المثالي الذي لا يمكن أن يتكرر مرة أخرى .. تأثروا بتلك التربية حتى غدوا خلقا جديدا يختلف عما كانوا عليه .. وغدوا أساتذة للعالم، يعلمون ويُرشدون، ويهدون إلى الحق وبه يعملون، وقاموا بأداء الرسالة التي حملهم إياها رسول الله ﷺ حق القيام، فنشروا دين الله، ودعوا إلى مكارم الأخلاق، فأَنصَفُوا المظلوم، وعَلَّمُوا الجاهل، ووفروا للإنسان كرامته التي كانت مضیعة مهانة.

لقد قام رسول الله ﷺ بتربية هؤلاء الأصحاب وتوجيههم بكل شأن من شؤون حياتهم العامة والخاصة، الفكرية والعملية، وفي كل جزئية من جزئيات حياتهم.

عن سلمان رضي الله عنه قال: قال لنا المشركون: إني أرى أن صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة؟ فقال: أجل .. إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة لغائط أو بول، ونهى عن الروث والعظام.^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه».^(٢)

(١) رواه مسلم (٢٦٣)، وأبو داود (٧)، والترمذي (١٦)، وابن ماجه (٣١٦).

(٢) رواه أبو داود (٨).



وما زال رسول الله ﷺ يعلمهم حتى أصبحت رغبة التعلم عندهم صفة لازمة لهم.



الترغيب في التعلم

وكيف لا يكونون كذلك وهم يسمعون الآيات التي تدعو إلى العلم وتحض عليه من نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وكيف لا يكونون كذلك وهم يسمعون رسول الله ﷺ يقول: «من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة وخير دينكم الورع»^(٢).

إنّ التعليم قرين التربية وقد حضّ كتاب الله وسنة رسوله على العلم، والعلم نور يهدي إلى الرشd والحق، وقد أوردت بعضاً من النصوص التي تدل على فضل العلم وتحض عليه، وأود أن أورد بعض الأحاديث في هذا الموضوع. فمن ذلك أن رسول الله ﷺ قال: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» وتدخل المسلمة في مفهوم الحديث .. فلننظر في هذا السبق التربوي العظيم في الحض على العلم حيث جعل صلوات الله وسلامه عليه طلب العلم فريضة: ومعلوم ماذا تعني كلمة فريضة.

والحق أن العلم يقود إلى الاستقامة على الخير والسلوك الحسن الذي يعود على الفرد والأمة كلها بالتقدم والصلاح.

(١) رواه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧١٩)، وابن ماجه (٢١٧) عن معاوية رضي الله عنه. ورواه الطبراني في الكبير ولفظه: سمعت رسول الله يقول: «يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقه في الدين، وإنما يخش الله من عباده العلماء».

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والبخاري بإسناد حسن.



ولنتأمل هذا الحديث^(١) الجميل الرائع ودلالاته التربوية:

عن عبد الرحمن بن أبزى قال: خطب رسول الله ذات يوم، فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ثم قال: «ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم ولا يُعلّمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرّونهم ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون.

والله ليعلّمنّ قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرّونهم وينهونهم. وليتعلّمنّ قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعجلنّهم العقوبة».

ثم نزل، فقال قوم: مَنْ ترونه عنى هؤلاء؟

قالوا: الأشعرين [أي: عنى الأشعرين]. هم قوم فقهاء، لهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب.

فبلغ ذلك الأشعرين، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا:

- يا رسول الله ! ذكرت قوماً بخير وذكرنا بشرّاً، فما بالنا؟

- فقال: «ليُعلّمنّ قوم جيرانهم وليُعظُنّهم وليأمرّهم لينهونهم. وليتعلّمنّ قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون أو لأعجلنّهم العقوبة في الدنيا».

- فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟

فأعاد قوله عليهم، فاعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً

- فقالوا: أمهلنا سنة. فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم.

ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى

لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا

يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

(١) أخرجه الطبراني في "الكبير" وذكره المنذري في "الترغيب والترهيب" من كتاب العلم

لقد أثنى على الذين يتعلمون والذين يعلمون، وهدد من يتهاون في هذا الأمر بالعقوبة العاجلة في الدنيا، ولما طلبوا إمهالهم سنة أمهلهم.

○ إن هذه التوجيهات التربوية لها الصفة الدينية؛ لأنها صادرة من الرسول ﷺ، والمتدينون ملزمون بتنفيذ الأوامر الدينية إما على سبيل الإيجاب وإما على سبيل الندب. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وهذه ناحية ايجابية لا نجدها في أنواع التربية الأخرى .. إذ الأمر فيها متروك لاقتناع الأفراد بصلاحية هذا التوجيه، ولا يرى نفسه ملزماً بذلك ..

والتوجيهات التربوية النبوية التي وردت على سبيل الإيجاب هناك عقوبة أخروية على تركها، وقد تكون في بعض الحالات دنيوية أيضاً، كما رأينا في حديث عبد الرحمن بن أبيزى.

○ إن هذه التوجيهات التربوية لتتغلغل في أعماق النفس الإنسانية، لأن المؤمن يعتقد جازماً أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه يعلم السر وأخفى، فتنتلق النفس التي استجابت لله والرسول في تحقيقها وتطبيقها في السر والعلن، في قاع المنزل وأمام الناس.

○ وتنبه هذه التوجيهات على أمر لا نجده في تربية أرضية ألا وهو التحذير من الشيطان ووسوسته، فالشيطان - أعاذنا الله منه - يزين للناس الشهوات ويغويهم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠].



وقال تعالى ذاكراً إبليس: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا ضَلَّ عَنْهُمْ وَلَا مَنَيْتَهُمْ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيَبْتَكُنَّ عَادَاتُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتَهُمْ فَلَيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٥-٤].

ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٩﴾ يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢٠].

وحذرنا ربنا من الشيطان فقال: ﴿يَبْنَىْ عَادَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالشيطان يزين للناس المعاصي وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم، وبين لنا ربنا أنَّ الشيطان اتخذ سبيل الخطوات، فالخطوة تتبعها خطوة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقد جاء في الحديث أنَّ الشيطان يئس أن يعبد من جديد، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك مما يحقر الناس من الأعمال.
فلنحذر كيد الشيطان فإنه عدو مبين.

وهناك صفات أخرى لهذه التوجيهات التربوية سنذكرها إن شاء الله.

○ إنَّ التوجيهات التربوية النبوية لها حكم الحديث الشريف لأنها منه، لها حكمه في كونها من الوحي. وإذا تقرر هذا فإنَّ هذه التوجيهات تصيب الحقيقة وتقوم عليها، ولا تُبنى على التخمين والافتراض والبحث البشري. فالله تبارك وتعالى الذي أوحى إلى عبده ما أوحى يعلم حقيقة الإنسان. وحقيقة ما حوله وما فيه من طاقات وقدرات، ويعلم حقيقة الكون. يعلم ذلك كله علماً تاماً كاملاً ﴿أَلَا يَعْلَمُ

مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [المك: ١٤]. فهذه التوجيهات قائمة على الحقيقة اليقينية.

وقولنا: (إن هذه التوجيهات التربوية النبوية لها حكم الحديث في كونها من الوحي) معناه وشرحه كما يأتي:

[إن الأحاديث النبوية التي ليست بقدسيّة تنقسم إلى قسمين:

١. قسم استنبطه النبي ﷺ بفهمه لكلام الله، أو بتأمله في حقائق الكون. وهذا

القسم ليس من كلام الله، ولكن الله تبارك وتعالى لا يُقرّ نبيّه ﷺ إن أخطأ في أمر من أمور الشريعة، بل يُنزل في ذلك قرآناً يُبين له الحقّ، كما حدث في قصة أسرى بدر، وفي صلاته على المنافقين، وفي الإذن لهم، وفي قصة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم، أو يوحى إليه بالصواب ولا يكون هذا الوحي قرآناً.

وقد قرّر المحققون من العلماء أنّ الرسول ﷺ كان يجتهد في أمور كثيرة وأنّ ذلك وقع منه في أحكام الشرع، وهذا الذي عليه عامّة الأصوليين، واستدلوا على ذلك بأدلة موجودة في كتب أصول الفقه.

قال الإمام النووي: [وقد كان الاجتهاد جائزاً له وواقعاً منه ﷺ عند المحققين، وله مزية على سائر المجتهدين بأنه لا يُقرّ على الخطأ في اجتهاده] وقال: [فأما أمور الدنيا فاتفق العلماء على جواز اجتهاده ﷺ فيها، ووقوعه منه، وأما أحكام الدين فقال أكثر العلماء بجواز الاجتهاد له ﷺ؛ لأنه إذا جاز لغيره فله ﷺ من باب أولى].^(١)

(١) "شرح صحيح مسلم" ١/ ٢٤١، وانظر "الحديث النبوي" ص ١٣٥-١٣٦.



٢. وقسم تلقى الرسول ﷺ مضمونه من الوحي فبيّنه بكلامه وأسلوبه، وهذا القسم وإن كان ما فيه من المعاني من الله تعالى، لكنّه من حيث هو كلام جدير بأن ينسب إلى الرسول ﷺ لأنه قائله، وكثير من الأحاديث النبوية من هذا القبيل. وقد صرح النبي ﷺ في عدد منها أنها مما أُحيى إليه، منها حديث عياض بن حمار رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد».^(١) ومنها حديث عائشة رضي عنها عن النبي ﷺ قال: «وأُحيى إليّ أنكم تفتنون في قبوركم».^(٢)

ومهما يكن من أمر فإنّ على المسلم أن يمثل أمر الرسول ﷺ سواء أكان الحديث من هذا القسم أم من ذاك، إذ أنه ﷺ متصل بالوحي يُقره على الصحيح من الاستنباط وينبّه على الخطأ في الاجتهاد، فكان مردّ الأمر إلى الوحي في القسمين. وهذه التوجيهات التربوية إما أحاديث قولية من كلامه ﷺ نُقلت إلينا بطريق الرواية الموثقة، ودونت في مدونات السنة.

وإما مستنبطة من أفعاله وتصرفاته ﷺ في الحياة، وقد نُقلت لنا أيضاً أفعاله وتصرفاته نقلاً دقيقاً شاملاً، فلم تغب عنا أخبار جانب من جوانب حياته المباركة ﷺ نجد هذه الأخبار مفصلة في كتب السيرة والشمال وكتب الحديث.

وهذه الخاصّة لا نجدها في إنسان غيره، لا من الأنبياء ولا من العلماء ولا من الزعماء والحكام.

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) رواه البخاري (٨٦)، وأحمد ٢٣٨/٦، وانظر "فتح الباري" ١٣/٢٥١.

وهذه التوجيهات التي سنعرضها إن شاء الله متمشية مع القرآن، بل هي صورة حية لما جاء فيه، وتطبيق كامل لأحكامه، ومن هنا جواب السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلقه فقالت: كان خلقه القرآن.^(١)

ولهذا سنعمد في بيان هذه التوجيهات التربوية النبوية إلى القرآن ما أمكننا ذلك. ومعلوم أن الإسلام قائم على الكتاب والسنة.

من التوجيهات التربوية النبوية الدعوة إلى التعلم والتعليم، فالجاهل مدعو إلى أن يتعلم، والعالم - أو العارف - مدعو إلى أن يُعلم.

والتعليم هو قرين التربية .. بل يمكن أن نعدّه أول باب من أبوابها .. بل هو الخطوة الأولى لبلوغ التربية السليمة الرشيدة، ذلكم لأن المعرفة تسبق السلوك، فمن عرف عملاً يجزّ عليه النفع الكبير المادي والمعنوي، وهو قادر على أن يأتيه سارع إليه، ولولا المعرفة ما أقدم عليه ولا فاز بتلك الفوائد والمنافع. ومن عرف نباتاً ساماً قاتلاً يودي بحياته إن أكله اجتنبه وامتنع من تناوله مهما كان جائعاً، ولولا المعرفة لعرض نفسه إلى الهلاك المحقق، وكذلك طريق الجنة لا بد في سلوكه من معرفته، وطريق النار لا بُدّ في النجاة منه والبعد عنه من معرفته.

وقد حصّ رسول الله ﷺ على إذاعة العلم ونشره، وهدّد من يكتمه بالعقوبة الشديدة. وجميل أن يتحول كل علم بمسألة معلماً لا يبخل عمن يسأله بالجواب.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه جاء يوم القيامة عليه لجام من نار».^(٢)

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١)، وابن حبان بألفاظ متقاربة.



وفي رواية: «ما من رجل حفظ علماً فسئل عنه فكتمه إلا جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار».

وروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ أيضاً عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بنحو حديث أبي هريرة.

ورواه أيضاً عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ولفظه: «من كتم علماً يُنتفع به جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار».

وهذه الرواية فيها التهديد بلجام النار لكل من كتم علماً تنتفع منه الأمة، ولم يعلق ذلك على أن يسأل العالم.

كم حلت بالأمة انحرافات وانحرافات بسبب سكوت بعض العلماء عن قول الحق، وعن عدم تعليم المسلمين الدين الحق، إثارة للراحة والسلامة، وخوفاً من الوقوع في الحرج.

ومعلوم أن التعليم في أمة الإسلام ليس محصوراً بطبقة فليس في الإسلام رجال دين ولا مقصوراً على العالم المتضلع المتبحر المتمكن .. بل إن رسول الله ﷺ يقول: «بلغوا غني ولو آية»^(١).

فكل من علم حكماً في دين الله ورأى تقصيراً في مراعاته وتطبيقه عليه أن يبلغ هذا الحكم بالحكمة والأسلوب والحسن المحبب. وقد مرّ بنا حديث عبد الرحمن بن أبيزى الذي فيه التهديد بالعقوبة الدنيوية إن قصر الناس في هذا الأمر. يقول رسول الله ﷺ: «لِيُعَلِّمَنَّ قَوْمٌ جيرانهم أو لأُعجلنَّهم بالعقوبة».

لو أن كل مسلم علم مسألة فبلغها .. ولو أن كل مسلم رأى جهلاً في فرد أو قوم فعمل على إزالته .. أو رأى منكراً فغيره لتبدل واقع الناس.

(١) رواه البخاري (٣٤٦١)، والترمذي (٢٦٦٩)، وأحمد ١٥٩/٢.

وإنه ليؤسفني أن أقرر أن هناك جهلاً فظيعاً في كثير من بلاد المسلمين، والمسؤولية على العلماء الذين هم في تلك البلاد، وعلى المؤسسات التعليمية، والمؤسسات الإعلامية، وعلى الجمعيات الخيرية، وعلى رجال الدعوة فيها.

إن تربية الأجيال على دين الإسلام ومبادئه تقتضي تعريف الناس بهذا الدين، والعمل على إقناعهم بأنه هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].. إن معرفة الشيء والافتناع به تقود إلى تربيته والعمل به.

إن نشر المعرفة بهذا الدين وتربية الناس على مبادئه وأخلاقه يجلب الأمن والسعادة، ويحقق العدالة والطمأنينة، ولا يخاف من نشرها ألا جاهل بهذا الدين أو حاقد عليه.

ألا فلنمض في طريق الخير ونشر حقيقة الدين، لنصل إلى تربية عظيمة أراها الله لنا، لنكون خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ونؤمن بالله.

فكتاب الله وسنة رسوله فيهما الهدى والنور.. فعلينا أن نعرض حقائق الدين كاملة كما أنزلها الله، ولنحذر الدعوات الباطلة التي تأبى أن تُعرض بعض الآيات وبعض الأحاديث الصحيحة.. وقد أنكر الله تبارك وتعالى على اليهود أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض فقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُوَفَّى الصَّادِقُ أَجْرَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٥-٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَن أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا



مَنْ النَّاسِ لَفَسِقُونَ ﴿٥٩﴾ أَخْكَمَ الْجَهْلِيَّةُ يَبْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وإني لأحسب أنّ مَنْ يستجيب لهذه الرغبة الآثمة فيخفي بعض الأحكام، داخلٌ بالتهديد أن يلجمه الله يوم القيامة بلجام من نار. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا وأن يوفقنا لما يرضيه.

إنّ مصادرنا في هذه الوقفات التربوية التي سنقفها مع بعض الأحاديث الرائعة التي هي من جوامع كلمه ﷺ هي:

١- كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ ذلك لأنّ السنّة المطهرة هي شرحٌ وبيانٌ لآيات الكتاب المبين قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ومفصلة لمجمله، وتسير في هداه، وتنطلق من مبادئه وأسسّه.

٢- والمصدر الرئيسي في هذه الوقفات كتب السنّة المطهرة، ويأتي في طليعتها الكتب الستّة وهي "صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم"، و"جامع الترمذي"، و"سنن النسائي"، و"سنن أبي داود"، و"سنن ابن ماجه"، والكتب الأخرى من أمثال "الموطأ"، و"مسند أحمد"، و"سنن الدارمي"، و"سنن البيهقي"، و"المستدرک" للحاكم، و"صحيح ابن حبان"، و"صحيح ابن خزيمة"، و"المصنف" لعبد الرزاق، و"المصنّف" لابن أبي شيبة وغيرها من كتب السنّة.

٣- وكتب السيرة التي جمعت أخبار حياته المباركة، ويأتي في طليعتها "سيرة ابن هشام" وهو عبد الملك بن هشام الحميري البصري المتوفى سنة ٢١٨هـ. وفي طبقات ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ سيرة مطولة للرسول ﷺ. ومنها كتاب

"عيون الأثر في فنون المغازي والسير" لمحمد بن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤هـ، ومنها "كتاب البداية والنهاية" لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ وغيرها.

٤- وسنفيد من الكتب التي شرحت المصادر الأساسية في الحديث مثل فتح الباري لابن حجر العسقلاني، وشرح صحيح مسلم للنووي وغيرهما.

وسيكون حرصي الشديد على إيراد الحديث الصحيح .. ولكنني في مواضع قليلة قد أورد بعض الأحاديث الضعيفة التي توافرت فيها الشروط التي تجيز الاحتجاج بها، فقد ذهب جمهور العلماء إلى جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال بالشروط الآتية:

١- ألا يكون ضعف الحديث شديداً.

٢- أن يكون مندرجاً تحت أصل عام تدعو إليه الشريعة. وقد شرح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا الشرط فقال:

[وإنما مرادهم بذلك أن يكون العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله أو مما يكرهه الله، بنص أو إجماع، كتلاوة القرآن، والتسبيح، والدعاء، والصدقة والعق، والإحسان إلى الناس، وكراهة الكذب والخيانة ونحو ذلك. فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها، وكراهة بعض الأعمال وعقابها، فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه، إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به، بمعنى أن النفس ترجو ذاك الثواب، أو تخاف ذلك العقاب].^(١) انتهى كلامه رحمه الله.

٣- ألا يعتقد من يعمل به ثبوته وإنما يعمل به للاحتياط.

إن التوجيهات التربوية النبوية إن وردت في حديث صحيح لا أعدل عنه إلى

(١) "مجموع الفتاوى" ١٨ / ٦٥ - ٦٦.



غيره، ولكن إذا وردت توجيهات نبوية عظيمة وكان الحديث فيه ضعف غير شديد فأنا لا أرى أن أضحى بهذه التوجيهات .. بل أُورد الحديث وأشير إلى كلام العلماء فيه بإيجاز لاسيما أن كثيراً من الباحثين إذا رأوا خبراً عن عالم أو فيلسوف فيه توجيه تربوي أخذوا به علماً أنه لا مجال للموازنة بين ما يُورده المحدثون وبين ما يذكر في كتب التراجم والأدب والتاريخ.

وإنني لأقرر هنا أن الحديث الضعيف بالشروط المذكورة آنفاً خير ألف مرة من كثير من تلك الأخبار التي نجدتها في تلك الكتب والتي يَبني عليها كثير من الباحثين أحكامهم وتصوراتهم؛ ذلكم لأنّ المحدثين رحمهم الله تشدّدوا في الشروط التي طلبوها في الحديث الصحيح ليكون بناء الشريعة في مجال العقيدة والحلال والحرام قائماً على أساس متين.

وقد جاء في كتاب "علوم الحديث" لابن الصلاح و"توجيه النظر" للجزائري ما فحواه: [المراد بقولهم: حديث صحيح .. أو حديث ضعيف أنه كذلك بحسب ما ظهر لهم من استيفاء الشروط كلها أو بعضها أو عدم استيفائها، ويكون تبعاً لذلك مقبولاً أو مردوداً، لا أنه مقطوع به في نفس الأمر؛ لجواز الخطأ أو النسيان على الثقة، ولجواز الضبط والصدق على غير الثقة].^(١)

ولأوضح هذه النقطة أذكر لكم أنّ من شروط الحديث الصحيح أن يكون الراوي ضابطاً، والضبط عندهم يشمل كمال الملكات العقلية من النباهة وعدم الغفلة واليقظة وحسن الفهم والحفظ والمعرفة بأحوال الناس. قال الشيخ محمد شاكر: [وأما الضبط فهو: إتقان ما يرويه الراوي بأن يكون متيقظاً لما يروي غير مغفل، حافظاً لروايته إن روى من حفظه، ضابطاً لكتابه إن روى من الكتاب، عالماً بمعنى ما يرويه وبما يحيل المعنى عن المراد إن روى بالمعنى].

(١) انظر كتابنا "الحديث النبوي" ص ٢٠٢، و"توجيه النظر" ص ٨٣-٨٤.

أقول: نحن في حياتنا اليومية: هل نرد كل الأخبار التي يرويها من كانت ذاكرته ضعيفة؟ والجواب أننا لا نفعل، قد نرد بعضها لأسباب ظاهرة، ولكننا نقبل كثيراً مما يُخبرنا به هذا الرجل إن كان عُرف عنه الصدق، لكن المحدثين - جزاهم الله خيراً - آثروا الاحتياط للدين فحكموا على أحاديثه بالضعف.

سيتضح لنا جميعاً أنّ التوجيهات التربوية النبوية حققت سبقاً في عالم التربية وكان ذلك في نطاق الأسرة والمجتمع.

فيها توجيهات تربوية تقوم فكر الفرد، وتنظم عقله، وتوجيهات تربوية تقوم سلوكه.

إننا لنجد في الأحاديث النبوية التي تقرر هذه التوجيهات التربوية ما يصلح أن يكون نظرية متميزة في التربية. ما أحوج المسلمين إلى الوقوف عليها وتمثلها وتحقيقها في واقع الحياة.



المسؤولية

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلی الله علیه وسلم قال: «كلکم راع، وكلکم مسؤول عن رعيته: الأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلکم راع، وكلکم مسؤول عن رعيته»^(١).

○ وفي رواية للشيخين^(٢): «المرأة راعية على بيت بعلمها وولده، وهي مسؤولة عن رعيتهما، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، فكلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته»^(٣).

هذا الحديث الصحيح الجامع الجميل أصل كبير من أصول التربية .. يقرر فيه رسول الله مسؤولية كل إنسان، ويحض على الشعور بالمسؤولية، وعلى أن يستحضر المرء هذه المسؤولية في كل ظروف الحياة .. وهذا المعنى التربوي العظيم قررته آيات الكتاب المبين، وعدد من أحاديث النبي الكريم صلی الله علیه وسلم، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلْتَسْلَنْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٢]. وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَتَسْلَنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]. وقوله: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٥) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾^(٦) وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ

(١) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥)، وأحمد ٥/٢.

(٢) انظر رواية البخاري (٢٥٥٤)، ورواية مسلم (١٨٢٩). هذا وقد ذكر محمد فؤاد عبد الباقي: أن الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته.

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه بأرقام (٨٩٣ - ٢٤٠٩ - ٢٥٥٤ - ٢٥٥٨ - ٢٧٥١ - ٥١٨٨ - ٥٢٠٠ - ٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩)، وأبو داود (٢٩٢٨)، والترمذي (١٧٠٥)، وأحمد ٥٤/٢.

﴿مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٢-٢٤].

وأود أن نقف وقفة تربوية عند قوله ﷺ: «والرجل راع على أهل بيته» ولنا وقفات أخرى في هذا الحديث.

إنَّ مسؤولية الرجل عند أهل بيته ذات جوانب عدة .. فهناك مسؤوليته عن الزوجة، وهناك مسؤوليته عن رعاية أولاده بنين وبنات، وهناك مسؤوليته عن قيامه بواجب بر أبويه لا سيما عندما يبلغ عنده الكبر أحدهما أو كلاهما، وهناك مسؤوليته عن رعاية الخدم ومن يتصل بالبيت.

أما رعايته الزوجة فتكون بالإحسان إليها، ونصحها وتذكيرها بما أوجب الله عليها من العبادة، وبالإيفاء عليها في طعامها وملبسها ومسكنها، وبمداواة آيات من كتاب الله معها وكذا مداواة أحاديث نبوية معها، وبحوار مبلبل بندى العاطفة الودودة وبالتعاون معها على البر والتقوى والدعوة إلى الله سبحانه.

إنَّ مهمة القوامة التي خصَّ الرجل بها مهمة ليست يسيرة .. إنها أمانة يسأل عنها الرجل يوم القيامة، ولا ينبغي أن يتنازل عن هذه المهمة أبداً، كما لا ينبغي أن يتعسف في استعمال هذه المهمة فيكون من الظالمين لنفسه.

ولابدَّ أن تؤدي هذه القوامة دورها التربوي، ومما يعين على ذلك التلطف في ممارستها، فالقسوة والغلاظة والفظاظة منفرات لا تتيح للرجل أن يصل إلى مبتغاه، وربنا تعالت أسماؤه يقول لنبیه محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



ومما يعين على أداء الدور التربوي أن يكون الزوجان قد مرّا في الأيام الأولى من حياتهما الزوجية بمرحلة التفاهم وترويض كل من الزوجين نفسه وصاحبه على فهم الآخر.

ولا بُدّ من مراعات الأولويات في عملية النصح والتوجيه اللذين تقتضيهما القوامه .. فالعقيدة أولاً، ثم أداء الصلاة على وقتها، ثم تأتي الواجبات الأخرى واجتناب المحرمات كلها، والعفة والخُلُق الكريم يأتيان في أول سلم الاهتمامات .. هذه نبذة وللموضوع تفصيل سيأتي إن شاء الله.

وأما رعاية الرجل لأولاده فهي مهمة كبيرة وليست باليسيرة ولا سيما في هذه الأيام التي غزينا فيها عن طريق الإعلام فكراً وسلوكياً، وتبدأ تربية الأولاد بعد اختيار الزوجة الصالحة ثم تكون بعد الولادة مباشرة. فما ينبغي إهمالهم صغاراً، ثم يحاول بعد أن يبس عودهم أن يصلح وينصح .. إن الوقت يكون قد فات، ويندم عندما لا ينفعه الندم .. إنها مسؤولية كبيرة، والعمل فيها دقيق، والشدة في التربية لا تأتي بخير، واللين الزائد مضر ..

ويحسن أن أشير إلى أهمية دور الأب في تربية الأولاد، وقد دلّني تجربتي ودراستي إلى أنه لا يسدّ مسدّ الأب أحد .. ولا تؤتي التربية ثمارها إلا إذا كان هناك تعاون بين الزوجين في هذا الأمر.

إنّ كلّ كلمة يقولها الأب لها أكبر الأثر في نفسية أولاده وفي فكرهم وفي سلوكهم، وكذلك فإن كل تصرف يتصرفه أمامهم له أكبر الأثر أيضاً في كل ما سبق.

فلنتق الله في أولادنا .. فإنها مسؤولية وأية مسؤولية.

إنّ من أصعب مراحل التربية مرحلة المراهقة عند الأولاد بنين وبنات .. إنّ على الأبوين أن يفرّغا جزءاً من وقتها للأولاد، يتحدث الأب إليهم، ويمارحهم، ويناقشهم، وكذا تفعل الأم.

وعليهما أن يتحبا إليهم بالوسائل المتاحة .. إنَّ الحبَّ إذا وُجد سهل على النفس أمر الاستجابة والطاعة والتنفيذ.

ومع الحب أن يكون الرفق والإقناع والصبر.

فأما الرفق فشأنه عظيم. عن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(١).

وعنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله رفيق يحب الرفق يحب الرفق في الأمر كله»^(٢) وعنها أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(٣).

ومن الدلالات التربوية لقوله ﷺ: «والرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته» مسؤولية الرجل عن أهل بيته.

ومن أهم جوانب المسؤولية في أهل بيته تربيته لأولاده بنين وبنات .. تربيتهم على الإسلام .. وعلى حبِّ رسول الله ﷺ .. وعلى العقيدة الإسلامية الصافية البعيدة عن الشوائب الدخيلة التي قد أصابتها .. وتربيتهم على الخلق الزكيّ. ولا يبلغ الرجل مراده في ذلك كله إلا بالتدرج في التوجيه والإرشاد .. والحوار والإقناع والجلوس إلى أولاده وسماع أقوالهم ومناقشتهم فيها وإقرار الصواب منه، والتنبيه على الخطأ .. والتودّد إليهم .. والرفق بهم .. حتى يكون الحب المتبادل هو الرابطة التي تربط قلبه بقلوبهم. وقبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك أن يكون هناك تعاون بينه وبين زوجته.

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤)، أبو داود (٤٨٠٨)، وأحمد ٦/ ١٢٥.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٣٦٨٩).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٣).



إنَّ الرفق في التربية وفي كلِّ أمر شيء مهم جداً .. إنَّ على الأب في تربية أولاده أن يضع نصب عينيه دائماً قول الرسول العظيم ﷺ: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

وعلى الأب أن يصدر في تربيته أولاده عن برنامج مخطط، وعليه أن لا يتخلف عن تحقيقه وتطبيقه مهما كانت الصوارف؛ وذلك كأن تكون له جلسة معهم يومية أو نصف أسبوعية يتفرغ لها ويخصر الموضوعات التي سيثيرها فيها .. ويحسن أن يلجأ إلى الهدايا المحببة للأطفال كاللعب والحلوى تُعطى للمحسن منهم. وعليه أن يحذر من الشدة المفرطة، واللين الزائد، وأن يكون في تربيته وسطاً بين الأمرين .. إنَّ الشدة لا تأتي بخير، وإنَّ الرفق إن يُنزع من التربية أبعد ذلك المرء عن الوصول إلى الغاية التي يبتغيها، وكذلك فإنَّ الحزم إن فُقد من التربية نأى بالمرء عن بلوغ الهدف الذي كان يقصده.

وسلوك الطريق الوسط هو المطلوب، وهو أمر دقيق، وغير يسير إلا من يسره الله عليه.

أعرف رجلاً من أهل العلم صالحاً غاية الصلاح، رزقه الله عدداً من الأولاد، وقد نكب بأولاده الذكور، فسلكوا طريقاً غير طريقه، فتغصت حياته، وتبددت آماله، وعاش كئيلاً، ومات حزيناً. ولكنه ﷺ يتحمل جزءاً غير قليل من المسؤولية في هذا الأمر؛ ذلك لأنه اتخذ الشدة والعنف سبيلاً في تربية أولاده، فكان ما كان. رزق بالولد الأول وهو في عنفوان الشباب، فحمله بالعنف على حفظ القرآن، فكان الولد إذا قصر في حفظ ما كلف به يعاقبه أشد العقوبة .. كان - غفر الله له - يربطه بحبل إلى حديد النافذة، ويضربه بالضرب المبرح، ولا يقبل شفاعته الأم فيه ولا غيرها، ولا يفكه من قيوده إلا بعد بكاء طويل، واستغاثة ورجاء وتعهّد

بأن لا يقصر مرة أخرى .. فحفظ القرآن كله في سن مبكرة، ثم حمله على حفظ عدد من المتون العلمية كالألفية في النحو وغيرها من المتون في العلوم الأخرى. صبر هذا الولد إلى أن اشتدَّ عُوده، فهرب من أبيه، وعاشر السفهاء، فساء خلقه، وانحرف سلوكه، وضيّع ما حفظ من القرآن والمتون .. ثم غابت أخباره عن أبيه غياباً تاماً، ومات أبوه وهو لا يعرف أحي هو أم ميت. وكذلك كان شأن الولد الثاني .. ففر من أبيه. وعاش هذا الرجل شيخوخة بائسة لا يجد من يخبره عن ولديه.

يقول أحد العلماء المختصين بالعلاج النفسي: [إنَّ ضرب الطفل سياسة انهزامية للأسباب الآتية:

- (١) لأنه يجعل الطفل يخاف من ضاربه ويكرهه.
- (٢) ولأنه يعلم الطفل الطاعة العمياء بدلاً من المناقشة والفهم والتقبل عن اقتناع.
- (٣) ولأنَّ التعبير عن المزاج الانفعالي في أثناء الضرب يعطي الطفل انموذجاً سيئاً للاقتداء به.
- (٤) ولأنَّ الضرب القاسي هو أدنى الأساليب التربوية مهارة وأصالة.
- (٥) ولأنه وجد في بعض الحالات أنَّ الضرب يزيد الطفل عناداً، وبذلك يثبت السلوك الذي نسعى إلى تغييره.
- (٦) ولأنَّ هدف التربية هو تصحيح الأفكار والسمو بال رغبات لينشأ عنها سلوك مستقيم، لا تعديل السلوك ظاهرياً فقط].^(١)

إنَّ الابن أو الابنة قد يفعل ما نطلب منه مهددين باستعمال القوة .. يفعل ذلك لضعفه أمامنا ولخوفه من العقوبة. ولكن يجب أن نعلم أنه يضر في نفسه الكره

(١) "مجلة القافلة" عدد جمادى الآخرة سنة ١٤١٨ هـ وعنوان المقال "الأسرة وأثرها في تكوين شخصية الأبناء" بقلم محي الدين سباهي.



لنا، وعندما يكون قادراً على الإفلات من رقابتنا لن يفعل هذا الأمر الخيّر الذي حملناه عليه حملاً دون أن يقتنع بفائدته وصلاحه وأهميته.

هذا وقد يكون الضرب في بعض الحالات النادرة ضرورياً وعندئذ فلا بُدّ من مراعاة ما يأتي:

- (١) يجب أن لا يكون الضرب مبرحاً.. بل يكون خفيفاً مرافقاً بالعبوس والعتب.
- (٢) يجب أن يتجنب الوجه، لأنّ رسول الله ﷺ نهى عن ضرب الوجه.
- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ضرب أحدكم أخاه فليجنب الوجه»^(١).

- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه^(٢).
- (٣) ألا يضرب وهو منفعل، بل ينتظر حتى يهدأ انفعاله ويضرب الضرب اليسير.
- (٤) أن يستحضر أن الضرب للتأديب لا ليفشأ غضبه أو لينتقم لنفسه من هذا الطفل.

- (٥) أن يستحضر أن الطفل تغلب عليه البراءة، فلا يذهب في تسويغ ضربه له أنه طفل سيء.

وأحب أن أقرر أنّ ما ذكرته عن الأب مطلوب من الأم، والتربية البيئية لا يمكن أن تؤدي الغرض الأسمى من التربية إلا بأن يكون تعاون بين الأب والأم.

وهناك عقوبات أخرى مؤذية غير الضرب، وتدخل في زمرة الشدة والعنف، وهي عقوبات مؤذية لا ينبغي أن يلجأ إليها الأبوان؛ لأنّ ضررها شديد أيضاً،

(١) رواه البخاري (٢٥٥٩)، ومسلم (٢٦١٢)، وفي رواية مسلم «فليتق الوجه».

(٢) رواه أحمد ١١٨/٢، هذا وقد رُويت أحاديث عدة في النهي عن ضرب الوجه، منها حديث معاوية القشيري الذي أخرجه أبو داود (٢١٤٢)، وابن ماجه (١٨٥٠).

ومن هذه العقوبات طرد الولد المراهق من البيت.

إنها عقوبة خطيرة قد يلجأ إليها الآباء بقصد حسن، ولكن عاقبتها سيئة جداً؛ ذلك لأن طرده من البيت قد يكون سبباً لتفاقم الفساد والانحراف فيه وزيادتهما، ويجرّ الولد إلى ارتكاب ذنوب أشدّ ومعاصي أكبر .. ويجعله مستمراً في طريق الغواية، ويحول بينه وبين الرجوع إلى الاستقامة.

ومن القواعد الشرعية المقررة المعمول بها في أحكام كثيرة في الشريعة السمحاء (أن الضرر الأشدّ يزال بالضرر الأخف)، وهي القاعدة السادسة والعشرون من قواعد مجلة الأحكام العدلية.

ومن هذه القواعد أنه (إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بارتكاب أخف الضررين) وهي القاعدة السابعة والعشرون من هذه القواعد العظيمة المحكمة.

ومن هذه القواعد أيضاً أنه (يُختار أهون الشرين، ودرء المفسد أولى من جلب المصالح) وهذه القاعدة التاسعة والعشرون من قواعد مجلة الأحكام.

ورعاية هذه القواعد الكلية في موضوعنا تجعلنا نقرر أن طرد الولد المراهق لخطأ ارتكبه أو معصية وقع فيها، ليس تصرفاً سليماً ولا حكيماً أبداً.

إنّ علينا أن نصبر على ما نرى من أولادنا، ولا نياس من إصلاحهم .. والله در القائل:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وكم من إنسان منحرف سمع موعظة فلان قلبه لله وصلح حاله، وأصبح من كبار الصالحين العاملين الدعاة إلى الله. وهناك كتاب لابن قدامة عنوانه "كتاب



التوابين" يذكر فيه قصص عدد من الصالحين العابدين وكانوا فيما مضى من عمرهم مسرفين على أنفسهم.

إنَّ بقاء الولد المخطئ تحت رقابة الأبوين مع محاولتهما البحث عن طرائق في التربية والزجر والتأثير والاستعانة بالعلماء والمربين أولى وأفضل ومع الدعاء له.

إنَّ أولادنا بسبب انتشار هذه المخترعات من التلفاز والمحطات الفضائية والإنترنت والمجلات الخليعة الهابطة يخضعون لمؤثرات مفسدة ومسيئة، وهذه المخترعات لم يكن أسلافنا يعرفونها .. فلنقرر ذلك ولنعمل على إيجاد الحصانة في قلوب أولادنا وأفكارهم .. ولنحذر من أن نكون عوناً للشيطان على أولادنا من حيث لا نشعر.

حدثني أخ كريم أنَّ رجلاً فاضلاً رأى ابنه يدخن، فأنكر عليه، وحسناً فعل في الإنكار؛ لأنَّ التدخين حرام لا شك في ذلك لما ثبت من ضرره اليقيني، وقد كبر على الأب الأمر، فنهاء عن هذا الفعل القبيح مرات، وتظاهر الولد بقبول النصيحة .. ولكنه لم يقلع عن ذلك، فلما تبين لأبيه أنه ما زال مصراً على اقتراف هذه المعصية طرده من بيته، وهو فتى في سن المراهقة .. فكان ذلك عاملاً تفاقم الانحراف، والاستغراق في المعاصي، فعاش مع قرناء السوء العصاة، فأصبح يتعاطى المخدرات والمسكرات، ويرتكب الفواحش المنكرة، فأساء بذلك الأب من حيث أراد أن يحسن. والمؤمن لا يكف عن فعل الخير، ولا ييأس مهما لاقى في طريقه من العقبات.



وكما أنَّ الشدة لا تؤدي إلى نتيجة محمودة في التربية، فكذلك اللين الشديد ومسايرة الأولاد فيما يريدون ولو كان هذا الذي يريدونه ضاراً لهم. لا يؤدي إلى نتيجة محمودة.

أعرف رجلاً كان ليناً عظيم الحنان .. كان يحقق لأولاده كل طلب مما يقوى على تحقيقه، ولو كان هذا الطلب ضاراً لعيونهم وعقولهم، كإباحة رؤية التلفاز في الليل والنهار، فكان يتركهم يرون الأفلام المختلفة العادية والردئية .. وفيها ما يחדش الخلق وما يُسيء إلى العقيدة. فتتأثر عيونهم .. وتفسد تصوراتهم، ويأتي لهم بالأكلات الجاهزة - بصورة تكاد تكون دائمة - هذه الأكلات التي يجبها الأطفال ويجذر منه الأطباء.

وهكذا كان معهم .. لا يعرف الحزم في معاملتهم .. بل يتركهم وشأنهم .. فكان عاقبة أمره أن خسر أولاده عندما كبروا .. فقد أخفقوا في الحياة .. وأصبحوا عائلة علي وعلى المجتمع .. وندم عندما لا ينفع الندم.

* * *

إنّ تربية الأولاد أمر دقيق جداً .. وإننا مسؤولون عن ذلك بين يدي الله. أعاننا الله على هذه المهمة العظيمة.

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فهو يبدأ بتقرير مسؤولية كل إنسان مكلف، وهذا اللفظ (كل) من ألفاظ العموم. قال صاحب المصباح: [(كل) كلمة تستعمل بمعنى الاستغراق بحسب المقام كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقوله ﷺ: «وكل راع مسؤول عن رعيته».

ثم ذكر ﷺ مسؤولية الإمام الأعظم، وقرر أنه راع وأنه مسؤول عن رعيته. وفي الحديث صورة بيانية منتزعة من الحياة العربية المألوفة عند العرب، وهي صورة الراعي. وقد استعمل ﷺ هذه الصورة غير مرة، ومن ذلك قوله ﷺ: «... ومن



وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرمى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»^(١). واستخدم الصورة البيانية المعبرة في تقرير المعاني له أكبر الأثر في توضيح هذه المعاني وإيصالها إلى عقول السامعين وقلوبهم، وهذا ما نجده في كتاب الله وسنة رسوله^(٢).

ولقد تمثل أصحاب رسول الله ﷺ معنى الشعور بالمسؤولية على أكمل وجه، فكانوا يشعرون بعظم المسؤولية .. على اختلاف مستوياتهم رجالاً ونساء وشباباً وشيخاً .. ويبلغ هذا الشعور المستوى الأسمى عند الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم .. فهذا سيدنا عمر يقول: (لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سائلني عنها يوم القيامة)^(٣).

وفي رواية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: رأيت عمر بن الخطاب على قتب^(٤) يعدو. فقلت: يا أمير المؤمنين! أين تذهب؟ فقال: بعير ندّ من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: لقد أتعبت من بعدك. فقال عمر: فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة لو أن عناقاً^(٥) ذهبت بشاطئ الفرات لأخذ عمر بها يوم القيامة^(٦).

إنّ الإمام مسؤول عن الناس وهم رعيته .. مسؤول عن تحقيق الأمن لهم .. مسؤول عن بناء المساجد لهم .. مسؤول عن إعداد الطرق لهم ولمواسيهم .. مسؤول عن توفير القوت لهم .. مسؤول عن تهيئة وسائل التعلم لهم .. مسؤول عن

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، وهو الحديث السادس من الأربعين النووية.
(٢) انظر كتاب "التصوير الفني في القرآن" لسيد قطب، وكتابنا "التصوير الفني في الحديث النبوي".

(٣) انظر كتاب "حلية الأولياء" ١/ ٥٣، وظننت: أيقنت.

(٤) القتب: البعير.

(٥) عنزا.

(٦) انظر كتاب "أخبار عمر" للطنطاوي ص ٣٠٦ نقلاً عن ابن الجوزي.

العدل بينهم.

لقد كان عمر رضي الله عنه محققاً هذا كله ومع ذلك فقد كان شعوره بالمسؤولية يجعله يخاف من الحساب يوم القيامة. قال عبدالله بن عباس رضي الله عنه: لما طعن عمر دخلت عليه فقلت له:

- أنشريا أمير المؤمنين، فإن الله قد مَصَّر بك الأمصار، ودفع بك النفاق، وأفشى بك الرزق.

- قال: أفي الإمارة تشني عليّ يا ابن عباس؟

- فقلت: وفي غيرها.

- قال: والذي نفسي بيده لو ددت أني خرجت منها كما دخلت فيها لا أجر ولا وزر. ^(١)

وقد أدرك عامة الجيل الثاني من الصحابة والتابعين في المجتمع الإسلامي معنى مسؤولية الإمام ومن ذلك ما ذكره الطبري وابن الجوزي وغيرهما أن أسلم مولى عمر قال:

خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرّة واقم، حتى إذا كنّا بصرار ^(٢) إذا نارٌ تُورث (أي: تُشعل) قال: يا أسلم. أفي أرى ههنا ركبانا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا.

فخرجنا نهول حتى دنونا منهم، فإذا امرأةٌ معها صبيانٌ وقد رُ منصوبةٌ على نار، وصبيانها يتضاغون (أي: يتصايحون).

- فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء (وكره أن يقول: يا أصحاب النار).

- فقالت: وعليكم السلام.

(١) انظر "الحلية" ١/ ٥٢.

(٢) حرّة واقم وصرار أسماء مواضع قرب المدينة.



- فقال: أأدنو؟
- فقالت: أدن بخير أو دع. فدنا منها.
- فقال: ما بالكم؟
- قالت: مضّر بنا الليل والبرد.
- قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟
- قالت: من الجوع.
- قال: وأي شيء في هذا القدر؟
- قالت: ماء أسكنهم به حتى يناموا. والله بيننا وبين عمر.
- قال: رحمك الله. وما يدري عمر بكم؟
- قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا.
- قال أسلم: فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا. فخرجنا نهول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكُبة شحم، فقال: احمله عليّ.
- قلت: أنا أحمله عنك.
- قال: أنت تحمل وزري يوم القيامة. لا أم لك. فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئاً، فجعل يقول لها: ذري عليّ، أنا أحرّ لك.
- وجعل ينفخ تحت القدر، فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته، حتى طبخ لهم، ثم أنزلها وقال: أبغيني شيئاً، فأتته بصفحة فأفرغها فيها، فجعل يقول: أطعميهم وأنا أسطح لهم (أي: أبسطه حتى يبرد) فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فضل ذلك، وقام. وقمت معه. فجعلت تقول: جزاك الله خيراً. كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين.
- فيقول: قولي خيراً، إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية عنها، ثم استقبلها، فربض مربضاً. فقلت له: لك شأن غير هذا؟ فلا

يكلمني، حتى رأيت الصبية يصطرون، ثم ناموا وهدؤوا.
فقام يحمد الله، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن
لا أنصرف حتى أرى ما رأيت.^(١)

أفرايتم مستوى هذه المرأة الفقيرة التي أدركت أن مسؤولية الحاكم تقتضي أن لا
يغفل عن المعوزين والمحتاجين.

وتمثل هذا المعنى أيضا العلماء الصالحون الورعون من بعد، فما أكثر من رفض
تولي القضاء، وآثروا أن يسجنوا ويضربوا على أن يلوا هذا المنصب خوفا من
المسؤولية.

رضي الله عن سيدنا عمر الفاروق العادل وعمّن سار سيرته من العلماء والدعاة
إلى يوم الدين.

إن مسؤولية المرأة في تربية الأولاد ورعاية شؤون البيت التي قررها رسول
الله ﷺ في حديث ابن عمر رضي الله عنهما مسؤولية كبيرة، تكاد لا تقل عن مسؤولية
الرجل .. ولابد أن يتعاونوا على الخير والبر والتقوى .. وأود أن أذكر أخواتي
وبناتي بأن عليهن أن يتحملن هذه المسؤولية وأن يقمن بأعبائها متعاونات مع
أزواجهن، ولا يجوز أن يُلقين العبء كله على الرجل، فلكل دور، وبالتعاون
والتخطيط والتلطف والصبر يحصل المطلوب إن شاء الله.

وعلينا - نساء ورجالا - أن نقدّر أثر تصرفاتنا على أولادنا .. إن أثرها عميق
آنيًا ومستقبلاً على مدى زمن طويل .. تصرفاتنا الفعلية وتصرفاتنا القولية ..
هذه التصرفات التي قد لا يبدو أثرها في أول الأمر .. إن معنى القدوة بالآباء
والأمهات وتقليدهم قائم في نفوس الأطفال وإن لم يعربوا عنه بألستهم .. إنهم

(١) أنظر "تاريخ الطبري" وابن الجوزي، و"أخبار عمر" ص ٣٤٤-٣٤٥.



يقلدوننا في حركاتنا وأقوالنا .. وتنطبع هذه التصرفات في عقولهم وفي نفوسهم.
فإن كانت هذه التصرفات سيئة أفسدت عقولهم وأخلاقهم، وإن كانت حسنة
ظهرت آثارها في أفكارهم وسلوكهم.
إن كل ما ذكرته آنفاً عن مسؤولية الرجل في تربية أولاده وارد بالنسبة إلى المرأة
يا أخواتي ويا بناتي.

إننا مسؤولون عن هؤلاء الأولاد بنين وبنات الذين أكرمنا الله بهم .. وإن
المسؤولية - كما تعلمن - بين يدي الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في
السماء .. إننا قد نغفل عن أثر تصرفاتنا على الأولاد، فنأتي بالأمور التي لا نقبل
صدورها منهم .. هل يرضى الواحد منا أن يكون ابنه مدخناً؟ إذن كيف يدخن
بعض الناس أمام أطفاله.

إننا مسؤولون .. والحساب دقيق ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:
٧] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَلَّيْنَا مَا لَ هَذَا
الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ
رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

وإننا مأمورون من ربنا أن نقي أنفسنا وأهلينا النار .. ولا يدرك تحقيق هذه
الوقاية إلا بالتربية الصالحة السليمة .. أيها الآباء .. أيتها الأمهات اسمعوا قول الله
عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا
مَكْبُكَةٌ عِلاَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].
والرابطة واضحة بين الحديث الذي نعيش في ظلاله «كلكم راع وكلكم مسؤول عن
رعيته» وبين هذه الآية الكريمة .. إن الأب راعٍ في أهل بيته .. وكذلك فإن المرأة
راعية في بيت زوجها وولده وذلك يقضي بأن يقوا هؤلاء الأولاد من النار ..

وذلك بتربيتهم التربية الفاضلة وتنشئتهم على الدين القويم، والخلق الكريم، والعلم النافع.

وإذا كان الأب ملزماً بالتربية ومسؤولاً عنها فإن أهله وأولاده ملزمون بطاعته في المعروف لأنه من أولي الأمر الداخلين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

إن تأثير الأم على الأولاد تأثير كبير جداً .. إن كثيراً من النابغين والمصلحين والدعاة والمفكرين كان لأمهاتهم الأثر الكبير في بلوغهم مرتبة المصلحين والدعاة والمفكرين.

إذا ضُمت عناية المرأة بأولادها وتنشئتها لهم على الدين والخلق وإلى جهود الرجل الإيجابية في التربية المستمرة من الكتاب والسنة كان ذلك سبباً في نجاح التربية.

والأم أكثر التصاقاً بالولد في سنواته الأولى، وهي السنوات التي تكون فيها شخصية الطفل وتبنى فيها نفسه وفكره.

إنَّ الطفل يتصرف ببراءة تصرفات غير جائزة ولا محمودة، كأن يأخذ كتاباً ليس له من المدرسة، أو لعبة لزميله أو قلماً أو أي شيء آخر، فإذا وبخته الأم ولامته على هذا التصرف بحزم وألزمته أن يعيد هذا الذي أخذه إلى صاحبه، وبينت له أن هذه سرقة محرمة وأن فاعلها يعاقب عليها في الدنيا بقطع يده وفي الآخرة بالعذاب .. إذا فعلت الأم ذلك امتنع من السرقة في حياته كلها.

يحكى أن ولداً سرق متاعاً يسيراً فزجرته أمه وقالت له: ويحك إن هذا الفعل قد يقودك إلى أن تقطع يدك، وذكرت له الحديث المتفق عليه: عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ



رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الجمل فتقطع يده»^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وجه الحديث وتأويله ذمُّ السرقة، وتهجين أمرها، وتحذير سوء مغبتها فيما قلّ وكثر من المال، كأنه يقول: إن سرقة الشيء اليسير الذي لا قيمة له كالبيضة المذرة، والحبل الخلق^(٢) الذي لا قيمة له، إذا تعاطاه فاستمرت به العادة لم يأس أن يؤديه ذلك إلى سرقة ما فوقها حتى يبلغ قدر ما تقطع فيه اليد، فتقطع يده، كأنه يقول: فليحذر هذا الطفل، وليتوقَّه قبل أن تملكه العادة، ويمرن عليها، ليسلم من سوء مغبته، ووخيم عاقبته.

وحديث ابن عمر في المسؤولية يجعل المسلمين كلهم مسؤولين، ويحملهم المسؤولية بدءاً من الإمام الأعظم .. إلى الرجل .. إلى المرأة .. إلى العبد .. إلى الخادم. ولكنَّ المسؤولية - بطبيعة الحال - تختلف باختلاف الإمكانيات والقدرات التي يمتلكها المكلف.

وفي ذلك تطبيق لما قرره القرآن من كرامة الإنسان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. فالخادم والعبد كل واحد منهما يحمل مسؤولية تتناسب مع قدرته ومكانته، ولكنه من حيث حمل المسؤولية هو مسؤول شأنه شأن الآخرين. إنَّ هذا يجعله يشعر بالعزَّة والكرامة.

* * *

(١) رواه البخاري (٦٧٨٣ - ٦٧٩٩)، ومسلم (٤٤٠٨).

(٢) جاء في "المختار": [وملحَّفه خَلَقٌ وثوبٌ خلقٌ أي: بالٍ يستوي فيه الذكر والمؤنث؛ لأنه في الأصل مصدر].

طلب العلم

إنّ من أهم التوجيهات النبوية التربوية ما جاء في الحض على طلب العلم والترغيب في نشر العلم، وذلك كقوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». (١)

وكقوله صلوات الله وسلامه عليه: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رَضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَفَضَلَ الْعَالَمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهماً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظٍّ وَافِرٍ». (٢)

شرح العلماء معنى قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة» على أوجه، وأمثلها الوجه الآتي، قالوا: إنّ على المسلم أن يسأل عن حكم الله في أي أمر يواجهه سواء كان في العبادات أو المعاملات وإن عليه أن يعلم ذاك الحكم ويعمل به. وهذا فرض عين على كل مكلف.

قال الإمام عبد الله بن المبارك معناه [أن يقع الرجل في شيء من أمر دينه فيسأل عنه حتى يعلمه]. (٣)

وحديث أبي الدرداء رضي الله عنه حديث عظيم، يبين فيه الرسول ﷺ فضل العلم وطلبه بطرائق من البيان تأخذ بالألباب.

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٤) عن أنس، وانظر "الفوائد الموضوعة" بتحقيقنا الحديث رقم: ٧٨.
(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١ - ٣٦٤٢)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، والدارمي (٩٨/١)، وأحمد ١٩٦/٥ عن أبي الدرداء.

(٣) انظر "جامع بيان العلم" ص ١٠، و"الفوائد الموضوعة" بتحقيقنا الحديث رقم: ٧٨.



■ فالطريقة الأولى هي قوله من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة هناك طريقان أحدهما يقود إلى الآخر، الأول في الدنيا وهو أن يضرب في الأرض يبتغي تحصيل العلم .. والآخر في الآخرة.

إنَّ طريق الجنة .. الجنة وما أدراك ما الجنة .. طلبة المؤمنين، تتلهف إليها قلوبهم، وتتجسد فيها آمالهم. ومن أراد الجنة فعليه أن يجتهد ويحْتَهد في طلب العلم.

■ والطريقة الثانية من طرائق البيان في هذا الحديث الجميل أنَّ الملائكة تحتفل بطالب العلم، فتفرش له أجنحتها لتحمله عليها فتبلغه حيث يقصد من البقاع، وتعينه وتيسر السعي له في طلب العلم.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله أنَّ الله حَبَّبَ لطلبة العلم ما يلقونه من العناء في السفر، وما يواجهونه من المخاطر في قطع المسافات الطويلة فقال: [وقام علماء النقل والنقاد، بعلم الرواية والإسناد، فساروا في ذلك إلى البلاد، وهجروا فيه لذيذ الرقاد، وفارقوا الأموال والأولاد، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد، وصبروا فيه على النوائب، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب، ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة والقصص الماثورة، ما هو عند أهله معلوم ... بتوسد أحدهم التراب، وتركهم لذيق الطعام والشراب، وترك معاشر الأهل والأصحاب، والتصبر على مرارة الاغتراب، ومقاساة الأهوال والصعاب، أمر حَبَّبه الله إليهم وحلّاه، ليحفظ بذلك دين الله].^(١)

أقول: لعل هذا أثر من آثار وضع الملائكة أجنحتها لطلبة العلم .. في تيسير سعيهم لبلوغ مرادهم.

(١) انظر "مجموع الفتاوى" ٦/١.

- والطريقة الثالثة من طرائق البيان في هذا الحديث الجميل أن طالب العلم يستغفر له كل مخلوق في السموات، وكل مخلوق في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء. كم في هذا الكلام من الإغراء بالعلم ! وكم فيه من التشجيع على المضي فيه ! والاستغفار والتسبيح متصور في المخلوقات كلها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].
إنَّ الكون كله يحفل بطالب العلم. الأرض والسموات ومن فيهن يستغفرون للعالم. إن العالم يشعر بنشوة واعتزاز عندما يعلم أن الكون بإنسه وجنّه وملائكته وحيوانات البر وحيتان البحر يذكره ويستغفر له.
- والطريقة الرابعة من طرائق البيان في هذا الحديث الجميل أن رسول الله ﷺ ذكر فضل العالم على العابد .. إن الفرق بينهما كبير كبير، وقد عبّر عن ذلك بالموازنة بين القمر والكواكب .. فقال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب».
- أين القمر من الكواكب؟ أين القمر بضيائه وجماله وبالظلال التي يوحى التي يوحى بها من الكواكب الأخرى؟ وفي هذا تقدير للعلم وحض على طلبه وإظهار لفضل العالم في هذا الوجود.
- والطريقة الخامسة من طرائق البيان في هذا الحديث الجميل أن العلماء ورثة الأنبياء. وفي ذلك ترغيب في العلم وأي ترغيب.
ومعلوم أن الأنبياء لا يرث أهلهم مما تركوا شيئاً .. بل كل ما تركوه من الأموال والمتاع صدقة كما جاء في الحديث الصحيح: «إنا معشر الأنبياء - لا نُورث، ما تركناه فهو صدقة».^(١)

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩)، أبو داود (٢٩٧٦)، والترمذي (١٦١٠)، والنسائي (٤١٤٨)، ومالك ٢/٩٩٣، وأحمد ١/١٩١.



أما العلم فإنهم يورثونه لطلبة العلم .. فالعلماء هم ورثة الأنبياء .. فياها من مرتبة عظيمة .. وجاء التعبير عنها بقوله ﷺ: «وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر». لأن العلم يبقى والمال يفنى .. والعلماء باقون بعلمهم فهم كالأحياء في نفع الناس.

إن المؤمن الذي يتدبر هذه الطرائق الخمسة في الحض على طلب العلم التي وردت في هذا الحديث يندفع اندفاعاً ذاتياً إلى تحصيل العلم .. وهذا أسلوب تربوي رائع.

والعلم نور ورحمة وسكينة وتكريم من الله لأهله بأن يذكرهم فيمن عنده. روى الإمام مسلم والإمام أبو داود بسنديهما إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «... وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده». إن العلم نور، وهو يقود إلى الاستقامة والخير والسلوك الحسن، وهو قرين التربية ولذلك قرن التعليم بالتربية ف قيل: التربية والتعليم.

لقد شفع الرسول العظيم ﷺ ذاك الترغيب في التعلم والتعليم بالترهيب من كتم العلم، وحذر منه أكبر تحذير. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه جاء يوم القيامة عليه لجام من نار».^(١)

وروى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه بنحو حديث أبي هريرة، ورواه أيضاً عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ولفظه: «من كتم علماً

(١) رواه أبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١)، والترمذي (٢٦٤٩) وقال: حديث حسن، وابن حبان رواه بالفاظ متقاربة.

يتنفع به جاء يوم القيامة ملجأً بلجام من نار» وهذه الرواية فيه التهديد بلجام من نار لكل من كتم علماً تنتفع منه الأمة ولم يعلق ذلك على أن يسأل العالم.

هذا وقد ورد التهديد لكاتم العلم باللجنة والعذاب الأليم في مواضع عدة من كتاب الله ﷻ. فمن ذلك قوله جل ثناؤه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أَُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥].

يهدد رسول الله ﷺ كاتم العلم تهديداً مخيفاً جاء من خلال صورة حسيّة مألوفة عند الناس، فاللجام الحديدي معروف، ويضعه الناس على خيولهم ودوابهم، وفي هذه الصورة النبوية نواح من الجمال:

- فاللجام لا يوضع إلا للدواب العجماوات .. فهذا الذي كتم العلم النافع شبيه بها .. ويستحق أن يوضع له لجام.
- واللجام الحديدي لو أُلجم به إنسان لكان في ذلك إهانة له وأية إهانة، وإذلال وأي إذلال، فما بالناس وهذا اللجام من النار الموقدة .. إنّ ذلك أشد في التنكيل والعقوبة.
- وهذا الكاتم للعلم يأتي يوم القيامة ملجأً بلجام من نار يحرق لسانه وشفتيه



لأنه لم يستعملهما فيما يرضي الله تعالى، ولأنه لم يبلغ دين الله، ولو أنه نشر العلم وبلغ لنجا من هذا المصير البائس الفظيع.

■ فوق هذا كله فإن مجيئه يوم القيامة وهو على هذه الصورة فضيحة على رؤوس الأشهاد.. فضيحة عظيمة وخزي عظيم في ذلك اليوم العصيب عندما يأتي وعليه لجام من نار يلتهب فيراه الناس جميعاً نعوذ بالله من الخذلان.

ولكتمان العلم أسباب عدة، ينبغي أن يحذرها طالب العلم:

- فمنها الكسل وإيثار الراحة والسلامة.
- ومنها سيطرة النزعة المادية على كثير من الناس، فترى الرجل مشغولاً بتحصيل المال، ونشر العلم لا يجز عليه منفعة مادية.
- ومنها الخوف من دعاة الشر وحماة الرذيلة.
- ومنها الرغبة في أن يحببه الناس كلهم، مع أن رضى الناس غاية لا تدرك، وأن من يريد الحصول على محبة الناس جميعاً وثنائهم لا بد أن يكون منافقاً. يقول لكل فريق ما يرضيه. ومن المأثور قولهم: ما ترك الحق صديق لعمر.
- وهذه الخصلة إذا استحكمت في إنسان جعلته يخذل إخوانه المؤمنين الصالحين، إن لم يكونوا ذوي قوة وسلطان. فلا يؤازرهم ولا يقف إلى جانبهم.

* * *

ويحسن بنا أن نعرض إلى جانب هذه اللوحة المخيفة العابسة القائمة لوحة مشرقة باسمه.. لوحة يبدو فيها ناشر العلم والهدى ناجياً من ذاك المصير الكالch الذي صار إليه كاتم العلم.. وحائزاً على الأجر الكبير:

- عن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله».(١)

■ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً».(٢)

■ وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعليّ يوم خيبر عندما أعطاه الراية: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم».(٣)

إنّ هذا الترغيب والترهيب يثمران عند المكلف العاقل الاندفاع في تعليم من يلقي وهدايتهم إلى سواء السبيل، ويجعلانه يرى أنّ نشر العلم وإذاعته أمر لازم وواجب محتّم.

وبهذا يتحقق أمر تتميز به أمة الإسلام على مرّ القرون بفضل هذه التربية النبوية المباركة .. وهذا الأمر هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم. حتى غدت أمتنا التي كانت أمة أمية أمة العلم في الدنيا بعد عدد من العقود من الرسالة النبوية تنشر أضواءه. عنها يتلقى الراغبون في التعلم، وحتى أضحت مساجدها جامعات تقوم حول أساطينها حلقات العلوم المختلفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» .. فقال أصحابه: وأنت؟

قال: «نعم. كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة».(٤)

(١) رواه مسلم (١٨٩٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٤) رواه البخاري (٢٢٦٢).



في هذا الحديث الصحيح فوائد تربوية كثيرة، نذكر بعضها فيما يأتي:

- فمن هذه الفوائد تقرير أنّ مما يساعد المرء المسلم على أن يحيا الحياة الإسلامية النظيفة السليمة أن يتخذ لنفسه مهنة تنأى به عن البيئات الجاهلية .. فأنبىء الله صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يعتزلون مجتمعاتهم الشركية ويمتهنون رعي الغنم .. فكانوا يتتبعون المراعي في أرض الله، ويتأملون في خلق الله وفي الكون الذي أتقن الله صنعه، وهو يدل على الحكيم الخبير.

إنّ الإنسان لا بُدَّ أن يتأثر بما يرى ويسمع، وقد يكون في بعض ما يرى جمال يفتن، وقد يكون في بعض ما يسمع تسلية ومنتعة، وقد يجره هذا وذاك إلى الوقوع في الحرام. ففي البعد عن الأوساط المنحرفة سلامة.

أما الاختلاط بالناس الأفاضل فأمرٌ محمود وقد رغب الشرع فيه .. وذلك كحضور الجمع والجماعات، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر، وحلقات العلم، وعيادة المرضى، وتشجيع الجنائز. ففي ذلك خير كبير.

التوجيه التربوي النبوي أن يحذر المسلم مخالطة الأشرار ويحرص على مخالطة الأخيار وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم. يقول الله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. ويقول سبحانه: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وخيرٌ للمرء ألف مرة أن يكون خفياً لا يعرفه الناس ولا يشيرون إليه بالبنان إذا كان محافظاً على سلامة دينه وقلبه وفكره، بعيداً عن المعكرات .. خيرٌ له ألف مرة من أن يحصل على شهرة رخيصة ومكانة مؤقتة، وذلك بمعاشرته الفسقة من ذوي الشروات والمراتب ومجاملتهم ومداهنتهم، فيخسر دينه

وسلامة قلبه ونقاء فكره. وذلك هو الخسران المبين.

والمرء على دين خليله يقول رسول الله ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال». (١)

ويقول ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي». (٢)
والصالحون في الدنيا قليل. والموازنة بين العزلة والمخالطة موضوع تتسع فيه جوانب القول.

• ومن فوائد هذا الحديث التربوية الحُص على التواضع فهؤلاء الأنبياء الذين هم خير خلق الله كانوا يعملون في الرعي ولا يتكبرون..
والتواضع خلق كريم يتحلّى به الأنبياء والدعاة.. وينبغي أن نربي أنفسنا وأولادنا وتلاميذنا عليه.. يقول رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد». (٣)

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». (٤)
- وعن ركب المصري (٥) قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذُلّ في غير مسألة، وأنفق مالاّ جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذلّ والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد ٢/٣٠٣ - ٣٣٤، والحاكم ٤/١٧١.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) (٦٤)، وأبو داود (٤٨٩٥)، وابن ماجه (٤١٧٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨) (٦٩)، والترمذي (٢٠٢٩).

(٥) ركب: قال البغوي: لا أدري سمع من النبي ﷺ أم لا. وقال ابن منده: لا نعرف له صحبة. وذكر غيرهما أنّ له صحبة. وقد حسن هذا الحديث أبو عمر النمري وغيره، انظر الترغيب والترهيب ٣/٢٣٠.



- طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرتهن وكرمت علاقته، وعزل عن الناس شره.

- طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه». (١)

ويذكر الله تعالى القوم الذين يحبون الله ويحبهم الله ويصفهم بالتواضع قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

- ومن فوائد هذا الحديث التربوية أن على المسلم الذي تعزّ عليه كرامته أن يوطن نفسه على رعي الغنم إذا انسدت في وجهه سبل العمل، ولا يكون عالة على أحد سواء كان قريباً أو بعيداً.

إن حاجة الناس مذلة، وإن سؤلهم مهانة، وإن العمل أيا كان - ما دام في حدود الشريعة - أمر شريف .. ولو أن يذهب إلى البرية ويجمع الحطب ويبيعه، فذلك خير من السؤال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب، فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس». متفق عليه. (٢)

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجيء بحزمة الحطب على ظهره فيبيعهها، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». (٣)

(١) رواه الطبراني ٧١ / ٥ ورواته إلا نصيح ثقات. قال المنذري: عن نصيح العنسي عن ركب المصري.

(٢) البخاري (١٤٨٠)، ومسلم (١٠٤٢) (١٠٧)، والنسائي (٢٥٨٩).

(٣) رواه البخاري (١٤٧١)، وابن ماجه (١٨٣٦)، وأحمد ١ / ١٦٧.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَنْ أَطِيبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كِسْبِهِ».^(١)
وأخرج البخاري أنه ﷺ قال: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلٍ
يَدِهِ وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ».^(٢)
هناك شباب يشكون من البطالة .. ومن آثارها الفاقة. ولو أنهم أنصفوا لشكوا
أنفسهم، لأنهم يريدون عملاً مريحاً براتب كبير، ومنصب خطير، ويقفون جالسين في
بيوتهم على الأرائك يشاهدون التلفاز، ويلعبون بالشطرنج، ويشكون الدهر،
ويندبون حظهم.

قال أحد الكتّاب المعاصرين:^(٣)

[لا تقل إنَّ كرامتي لا تسمح لي أن أدق الأبواب. إنَّ الذي يجلس واضعاً ساقاً
فوق ساق ينتظر أن يطرق المجد بابه سوف ينتظر إلى الأبد، يجب أن تقوم من مكانك
وتفتح للمجد الباب، فلا وقت عند المجد لدق الأبواب المغلقة .. لا يتوقف المجد
أمام القاعدين القرفصاء، ولكنه يعدو خلف المنطلقين المتحركين المجددين الذين لا
يتوقفون إلا ليمسحوا عرقهم ويستأنفوا الانطلاق من جديد].

إنَّ المطلوب منا أن نربي أولادنا على القناعة والرضى بما قسم الله، ثم على السعي
وقبول العمل المتاح ولو كان رعي الغنم. وعليهم بعد ذلك أن يبحثوا وسيجدون.
«الرجل راعٍ في أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وولده
وهي مسؤولة عن رعيته».

إنَّ مسؤولية الأبوين نحو أولادهما تقتضي أن يسهرا على تربيتهم التربية
الصالحة.

(١) رواه أبو داود (٣٥٢٨)، والنسائي (٤٤٤٩)، وابن ماجه (٢١٣٧).

(٢) رواه الطبراني ورواته إلا نصيح ثقات. قال المنذري: عن نصيح.

(٣) إنه مصطفى أمين في جريدة الأخبار بتاريخ ٢١/٠٤/١٩٨٠م.



- أما الأب فهو مسؤول عن تربيتهم قبل أن يولدوا، وذلك بأن يحسن اختيار أمهم، فالأم مدرسة وأية مدرسة، فلقد أوصى رسول الله ﷺ بأن يختار الرجل ذات الدين زوجة فقال ﷺ: «... فعليك بذات الدين تربت يداك».

وقد أثبتت البحوث العلمية أنّ الولد يرث من أمه صفات وراثية كما يرث من أبيه هذا من ناحية وقد أدرك العرب هذا المعنى فقالوا في أمثالهم: (كادت المرأة أن تلد أخاها).

وأما من الناحية التربوية فللأم تأثير كبير سبق أن أشرنا إلى جانب منه؛ ذلك لأنّ التصاق الولد بها أيام نشأته الأولى ورضاعه وحضانه مدة طفولته يترك في نفسه أكبر الآثار. فالأم الصالحة الورعة التي تراقب الله تعالى وتكون في سلوكها منسجمة مع ما تعتقد وتعلم، تطبع ولدها على ما هي عليه.

- وعلى الأب - وهذا مطلوب من الأم أيضاً - أن يكون حذراً كل الحذر من أن يتصرف أمام أولاده تصرفاً مخالفاً لأحكام الدين، وأن يتجنب القسوة في التربية واللين الزائد فيها.

- وعليه أن يتيح للولد فرصة ليعبر عن آرائه عندما يستطيع الكلام، وأن يصغي لكلامه، ويناقشه فيه. فمن الخطأ التربوي أن يتصرف الأب تصرفاً يحطم شخصية الطفل وذلك بسلوك بعض الطرائق المغلوطة التي سنعرض بعضها فيما يأتي:

١ - أن يهزأ منه إذا تكلم، ويضحك عليه إذا تصرف تصرفاً ما، إنّ ذلك يجعله يخجل ويتعقد. وهذا الأمر يفعلُه كثير من الناس الأقرباء والأبعدين، إنّ الطفل ليدرك أنّ هذا انتقاص له، وقد ينشأ على كراهية الذي كان يحتقره، وينشأ على محبة من كان يحسن معاملته.

٢- أن يُسكّت الطفل كلما أراد أن يتكلم ويتنهره بحزم كأن يقول له: إذا كنت بين الكبار فعليك بالسكوت ولا تتكلم أبداً. هذا سلوك مؤذ لنفسية الطفل وشخصيته.

٣- أن ندمن على توبيخه ولومه على كلّ تصرف نراه - نحن الكبار - خطأ، إنّ هذا خطأ كبير يجعل الطفل ينفر منا. والله در الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
٤- أن نحكم على الطفل حكماً قاسياً يزلزل ثقته بنفسه، ذلك أنّ الشاب الكبير عندما لا يثق بنفسه أنه قادر على انجاز عمل ما يستحيل عليه أن ينجزه. وقد لمست هذا بنفسى أيام طلبي العلم، فقد كنت أجد بعض زملائي إذا واجهته مسألة في الرياضيات يقف أمامها قائلاً: إنها مسألة صعبة يستحيل علي أن أحلها، وبالفعل فإنه لا يقوى على حلها بحال. أما المرء الذي يقول: هذه مسألة صعبة وأنا قادر بحول الله أن أحلها، فإنه يحلّها.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى العبارات العلمية في الكتب القديمة التي يمر بها طالب العلم، فالواثق بنفسه يستطيع أن يفهمها بعد تأمل ونظر.
٥- أن يشتم أحد الوالدين الطفل بالألفاظ الجارحة أو الكلمات البذيئة، كتشبيهه بالحمار أو الكلب، وذكر كلمات سوقية، فضرر ذلك مزدوج:

- فهو من ناحية يحطم نفسية الطفل ويضعف ثقته بنفسه.
- ومن ناحية أخرى فإنه يُعوّد الطفل على استعمال هذه الألفاظ.

٦- أن يُخوّف أحد الوالدين الطفل من الجنّ والحيوانات، ويقص عليهم أخباراً ينخلع لها قلب الرجل، فهذا له أثر سيء جداً، ويجعل الطفل جبناً لا يقوى على المضيّ فيأمر وحيداً، ولا يستطيع أن يسير ليلاً في طريق بعيداً عن أهله إذا كبر.



٧- تعيير الطفل بالغباء والتقصير والموازنة بينه وبين طفل آخر وتفضيل ذاك عليه .. وهذا الأسلوب المنحرف يستعمله بعض الناس كثيراً. وقد يحمل هذا الفعل الولد على الإصرار على التقصير نكايه بمن عيّره، ويحمله على كراهية من قورن به.

٨- الإكثار من ممارسة العقوبة بأنواعها التي تحدثنا عنها، فعندئذ قد تأتي هذه العقوبة بنتيجة عكسية، فلا يعود الطفل يقيم لها وزناً لأنه تعود عليها. وكذلك الإكثار من التهديد بالعقوبة سواء نفذ الأب التهديد أم لم ينفذ .. إنَّ كلَّ أولئك يؤذي نفسية الطفل أعظم الإيذاء.

٩- تحميل الطفل ما لا يستطيع حمله سواء كان ذلك في الأمور المادية، كتحميله متاعاً ثقيلاً، أو في الأمور الفكرية مثل أن يقرأ عليه نصاً من كتاب عميق عباراته صعبة، إن ذلك مؤذٍ لنفسيته مدمرٌ لطاقاته، فإذا عجز ظنَّ أنَّ العجز أمر لازم له في حياته.

إنَّ مسؤولية الأبوين في تربية الطفل مسؤولية كبيرة. قال الإمام الغزالي

رحمه الله: (١)

[والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، ومائل إلى كل ما يمال به إليه. فإنَّ عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب. وإنَّ عود الشر، وأهمل إهمال البهائم، شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له.

وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

وإن كان الأدب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى. وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من قرناء السوء، ولا يعوده

(١) "إحياء علوم الدين" ٣/ ٦٩-٧٠.

التنعم، ولا يجب إليه الزينة وأسباب الرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد [انتهى كلامه].

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا. فأقبل عليه القوم يزجرونه وقالوا: مه. مه.

- فقال النبي ﷺ: «ادنه». فدنا منه قريباً، فجلس.

- قال ﷺ: «أتحبّه لأمك؟»

- قال: لا والله جعلني الله فداءك.

- قال ﷺ: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: أفتحبّه لابنتك؟

- قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

- قال ﷺ: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: أفتحبّه لأختك؟

- قال: لا والله جعلني الله فداءك.

- قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: أفتحبّه لعمتك؟

- قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

- قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: أفتحبّه لخالتك؟

- قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك.

- قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم».

قال فوضع النبي ﷺ يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.^(١)

هذا الحديث حديث صحيح، وفيه أسلوب في التربية رائع جداً:

(١) رواه أحمد ٢٥٥/٥، والطبراني في "الكبير" (٧٦٧٩ - ٧٧٥٩)، والبيهقي في "الشعب" (٥٠٣٢)، وفي "السنن" ١٦١/٩، وانظر "مجمع الزوائد" ١٢٩/١، و"السلسلة الصحيحة" برقم: ٣٧٠.



فتى شاب يستأذن رسول الله ﷺ في الزنا .. ويبدو أن الشاب يعرف أن الزنا أمرٌ قبيح حرام، لكنه يريد أن يحصل على إذن من النبي ﷺ، في ممارسة هذه الفعلة المنكرة، ويبدو أنه ما حمله على هذا إلا اشتعال نيران الغريزة عنده، فهو شابٌ ناشئ، لا يُحسن التصرف؛ فقد سأله بصوت عالٍ وعلى مسمعٍ من الصحابة الذين أنكروا عليه قوله، وكان موقفهم منه الاستنكار والزجر فقالوا له: مه. مه. ومه: اسم فعل بمعنى اكفف.^(١)

ولقد كان موقف الصحابة موقفاً عنيفاً - كما نلاحظ - فيه الاستنكار والزجر، وحقٌ لهم أن يقفوا هذا الموقف؛ فكيف يجروا فتى مسلم على أن يطلب من النبي ﷺ هذا الطلب؟ والزنا من أكبر الكبائر، وذلك أن الشارع الحكيم رتبَّ على فعله حداً من الحدود، وهو جلد مئة جلدة وغريب عام لغير المتزوج، والرجم حتى الموت للمحصن. قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقد وصف الله تبارك وتعالى عباد الرحمن بأوصاف عدة منها اجتناب الزنا وذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

أما موقف النبي ﷺ فلم يكن منه إلا أن ناداه وقال: أدن مني، فدنا منه قريباً وجلس، وأدار النبي ﷺ حواراً يدل على حلمه وسعة صدره وحكمته البالغة، فسأله النبي ﷺ: أتحبُّ الزنا لأملك؟ فأجاب الفتى: لا والله جعلني الله فداك .. أجابه بصراحة وأدب وفداه بنفسه. فقال رسول الله ﷺ: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ..

(١) والعامة في بعض البلاد تبدل الميم لاماً فيقولون: له.

إنّ الناس لا يحبون هذا الفعل الشنيع لأمّياتهم. ثم سأله: أتجبه لابنتك؟ .. أتجبه لأختك؟ .. أتجبه لعمتك؟ .. أتجبه لخالتك؟ والفتى يقول: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. وهذه الأجوبة تدل على سلامة فطرته، وعلى محبته لرسول الله ﷺ.

أجل إنّ الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها لتكره هذا الفعل الشنيع .. كان هذا قبل أن يشوهها بعضهم بألفة المعاصي.

والرسول ﷺ يقول له: ولا الناس يحبونه لقربائهم .. والمؤمن لا يكتمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكرهه لنفسه؛ فمن الظلم للناس أن يأتي المرء أمراً لا يحب أن يعامله الآخرون بمثله. قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).

أيها السادة .. هذا نموذج سام للتربية .. وهو أن نجعل المرء ينظر في الأفعال التي يقوم بها أو يريد أن يقوم بها .. كيف يحكم عليها لو كانت صادرة من الآخرين موجهة إليه .. ونتيجة هذا النظر أن يكفّ عن الإتيان بها إذا كان يكرهها، ويقوم بها إذا كان يحبها.

إنّ هذا الأسلوب مراجعة للنفس بشأن العمل قبل الإتيان به .. وهو يجعل المرء يأتي بالأمر الخير عن اقتناع واندفاع ذاتي .. ويحجم عن الأمر السيء عن اقتناع وعزوف ذاتي. وهذا مستوى سام من التربية.

فالرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه عندما كان يسأله: هل تحبّ هذا لأمك .. وبنتك .. وأختك؟ ويحيب بأنه لا يحب هذا كان يقول له: ولا الناس يحبونه لأمّياتهم وبناتهم وأخواتهم .. فكيف تقدم على الإساءة إلى أخ من إخوانك المسلمين .. أو لا تخشى أن يصيبك شيء من الشرّ منهم إن اكتشف أمرك؟

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) كلاهما عن أنس.



وأمرُ تربوي آخر نقف عليه في هذا الحديث: وهو أننا مطالبون - إن أردنا أن نصل في تربيتنا لمن حولنا إلى نتيجة إيجابية - أن يتسع صدرنا لهؤلاء الذين نتولّى تربيتهم، ومطالبون بالألا نقابلهم بالتوبيخ والتفريع والشتم والعنف .. فكل هذا لا يؤدي إلى أي نتيجة.

وما أروع قول النبي الكريم: «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».(١)

وقوله: «إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف».(٢)

وهل هناك أشدّ إثارة من أن يأتي فتى إلى عالم أو داعية أو مربّب يطلب منه مثل هذا الطلب؟ ولكن الرسول العظيم لم يثر كما ثار الصحابة وكما يثور كثير من علمائنا اليوم، بل استدناه وقربه إليه وحاوره واقنعه .. وقد استقام أمر الفتى على الحق .. ولو كان الموقف غير ذلك لذهب الفتى في طريق الغواية إلى آخر مدى ولكانت عاقبة أمره الهلاك.

إنّ اقتناع المرء بالفكرة التي نريد أن نقرّرها له أمر مهم .. ومن الوسائل الموصلة إليه الحوار وهذا ما شهدناه في هذا الحديث.

والدعاء أمر مهم؛ فبعد أن انتهى الرسول ﷺ من هذا الحوار النافع الذي أجراه وضع يده عليه - وفي هذه الحركة مزيد عناية بالفتى وتودد إليه - ثم دعا الله أن يغفر ذنوبه الماضية، ويظهر قلبه من الرغبات المخالفة للشرع ويحصّن فرجه. ودعاء النبي ﷺ مستجاب.

(١) رواه مسلم (٢٥٩٤) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣) عن عائشة رضي الله عنها .

قال الراوي: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم، وأحب الأعمال إلى الله ﻋَظَمُهَا سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته. ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضياً يوم القيامة. ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام. وإنَّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»^(١).

في هذا الحديث الجميل توجيهات تربوية رائعة، سنذكر بعضها فيما يأتي:

- فأحب الناس إلى الله أنفعهم للناس .. وهذا المعنى وارد في أحاديث عدة، ولو نظرنا في هذه الأحاديث التي تذكر خير الناس وأحبهم إلى الله لوجدنا أن معظمها تجعل من ينفع الناس حائزاً على هذه الخيرية. وانظروا إلى هذه الأحاديث التي سأورد متونها^(٢) وهي قُلُّ من كل، وكلها صحيحة أو حسنة.
 - يقول رسول الله ﷺ: «خياركم أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً».
 - ويقول ﷺ: «خياركم أحسنكم قضاءً للدين».
 - ويقول: «خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أخلاقاً».
 - ويقول: «خياركم خياركم لنسائهم».
 - ويقول: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

(١) رواه ابن أبي الدنيا في "قضاء الحوائج"، والطبراني. وهو حديث حسن، وانظر "صحيح

الجامع الصغير" برقم: ١٧٦.

(٢) انظرها في "صحيح الجامع الصغير" للسيوطي. تأليف الألباني.



○ ويقول: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره».

○ ويقول: «خير المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده».

○ ويقول: «خير الناس أحسنهم خلقاً».

○ ويقول: «خير الناس أنفعهم للناس».

○ ويقول: «خيركم من أطعم الطعام وردّ السلام».

○ ويقول: «خيركم من يُرجى خيره ويؤمن شره».

○ ويقول: «خير ما أعطي الناس خلقٌ حسن».

أرأيتم كيف أن الخيرية تدور حول نفع المسلمين بأمور تعود على الأفراد والأمة بالنفع العميم.

إنّ النوافل من الصلاة والصيام ونحوهما تنفع صاحبها دون شك، ولا يكون نفعها للآخرين ظاهراً بجلاء. أما حسن الخلق والتلطف مع الأهل، وتعليم الناس القرآن، والوفاء للصديق، والإحسان إلى الجار، والبعد عن الإساءة للمسلمين بلسان أو يد، وإطعام الطعام، وردّ السلام، وقضاء حوائج الناس؛ فنفعها للمسلمين نفعٌ كبير. وهذا المعنى هو الذي نجده في قوله ﷺ في حديثنا الذي تتأمل توجيهاته التربوية «أحب الناس أنفعهم للناس».

إنّ لله عبادةً صالحين وقفوا حياتهم على خدمة الناس .. ببذل المال، وبذل الجاه، وتقديم النصح والمشورة، ونصرة المظلوم.

فمن وجد رجلاً مسلماً محتاجاً، وبذل له من ماله ما يسدّ حاجته كان هذا العمل سبباً لأن يحبّه الله .. بل ليكون من أحب الناس إليه .. ويا سعادة من أحبه الله بل يا سعادة من كان من أحب الناس إليه .. إنه إنسان حيزت له السعادة بحذاقها.

إنها فرصة ثمينة أن يجد أحدكم مسلماً بحاجة إلى عون .. فيعينه. والعاقِل من لا يفوتها، فقد لا تتاح له مرة أخرى. كم في دنيا المسلمين من محتاجين: من محتاجين إلى الطعام .. ومحتاجين إلى الكساء والدواء .. ومحتاجين إلى المأوى .. ومحتاجين للزواج .. ومحتاجين إلى التعلم. وسدّ هذه الحاجات يكون بالمال .. ومن يُوفّق إلى ذلك تتحقّق له السعادة العظمى، وذلك عندما يحبه الله ويكون من أحبّ الناس إليه .. إنّ تقرير هذه الحقيقة التي ينصّ عليها هذا الحديث لتدفع بالمؤمنين إلى المسارعة إلى نفع الناس ما استطاعوا إليه سبيلاً .. وإنّ هذا لأسلوبٌ تربويٌّ عظيم.

والمال زائل، وإن لم يزل عن صاحبه زال عنه صاحبه، ومن خصائص الحياة الدنيا الزوال والتغير .. فالإنسان والحيوان والنبات عرضة للتغير. وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شأن

ألا فلينفق ذو سعة من سعته، ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله .. والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

ومن إكرام الله لعباده الموسرين أنه هو الذي رزقهم المال، وعندما ينفقون شيئاً في سبيله مما رزقهم يكافئهم المكافئة الجزيلة. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

ويقول: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]. وستجد كل نفس ما قدّمت قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَجْذُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. وقال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

وقد دلّ الحديث على أنّ من ينفع الناس يحبه الله، ومن أحبه الله كان من الفائزين في الدنيا والآخرة.



روى البخاري ومسلم^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبَّه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وروى الترمذي^(٢) هذا الحديث بلفظ: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل: إني أحببت فلاناً فأحبَّه. قال: فينادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

ذكرنا فضل إعانة المسلم أخاه بالمال، وذكرنا إكرام الله للمعين بأن يجزل له المكافأة مع أنَّ ما ينفقه هو من عطاء الله وورزقه.

وليتحقق للعبد الذي ينفع الناس ذاك الأجر العظيم، والثواب الجزيل، وليفوز بمحبة الله له يجب أن يكون العمل خالصاً لله، وهذا أصل عام في شريعة الإسلام تدور حوله أحكام الشريعة كلها، وذلك مأخوذ من قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات».

إنَّ المسلم الصادق الموفق لعمل الخير ونفع الناس يُنفق ما ينفق ابتغاء رضوان الله لا يريد شهرةً ولا مصلحةً ماديةً، ولا يفعل ذلك رثاء الناس، بل يتأسى بالأبرار

(١) رواه البخاري (٦٦٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧)، وأحمد ٣٤١ / ٢. وفي مسلم زيادة: «وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

(٢) رواه الترمذي (٣١٦١). وذكر بشار عواد أن الحديث برقم: ٢٠٠٦، والطبائسي (٢٤٣٦)، وعبد الرزاق (١٩٦٧٣)، وابن حبان (٣٦٤)، وأبو نعيم في "الحلية" ٢٥٨ / ٣ و ١٤١ / ٧ و ٣٠٦ / ١٠، والنسائي في "الكبرى" (٧٧٠٠).

الذين قيل فيهم ﴿وَيُطْعَمُونَ اَلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ٥ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٦﴾ [الإنسان: ٨-٩].

وللجاء دورٌ في تحقيق النفع للناس لا يقلُّ في أهميته عن المال.

ولننظر إلى قوله ﷺ في هذا الحديث: «لأنَّ أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً».

وشأن الاعتكاف في المسجد للصلاة والذكر وقراءة القرآن شأنٌ عظيم، والرسول ﷺ يفضل أن يمشي في حاجة الأخ المسلم على الاعتكاف شهراً في المسجد، يصلي خلاله ويقرأ القرآن .. ويقرر هذا مؤكداً بلام التأكيد «ولأنَّ أمشي مع أخي المسلم...». ثم يقول ﷺ في الحديث نفسه: «ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتَّى يُثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام».

مرة أخرى ذكر الرسول ﷺ المشي مع الأخ المسلم في حاجته، ففي المرة الأولى فضَّل ﷺ المشي في حاجة المسلم على الاعتكاف شهراً، وفي المرة الأخرى ذكر جزاء ذلك يوم القيامة وهو تثبيت قدمه يوم تزل الأقدام.

إنَّ الناس يُدعون يوم القيامة إلى السير على الصراط .. وفي هذا اليوم تزلُّ أقدام كثير من الناس، فالزلازل والزلاّت عن الصراط يومئذ كثير. وقد وردت أحاديث كثيرة تصف المرور على الصراط وتعرّض كثير من الناس في هذا المرور إلى الزلزل المهلك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يأمر الله بالصراط فيضربُ على جهنم^(١) فيمرُّ الناس على قدر أعمالهم^(٢) فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم

(١) رواه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢): «فيضرب الصراط بين ظهري جهنم».

(٢) "النهاية" لابن كثير ١١٦/٢.



من يمر كالطير، ومنهم من لا يستطيع السير إلا زحفاً^(١).
 فمن مشى مع أخيه المسلم ليثبت حاجته أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام. يا
 لها من مكافأة عظيمة !! تحقق له الفوز العظيم في الآخرة والسعادة الأبدية.
 وللجاء - عند أصحاب العقول - زكاة، فمن استطاع أن يوصل امرأً بجاهه إلى
 حقه كان أدى زكاة جاهه، وكذلك من استطاع أن يسعى لإيجاد عمل لإنسان
 عاطل عن العمل، وكذلك من استطاع أن يدفع سوءاً عن أخيه المسلم.
 وقد حَضَّ رسول الله ﷺ على الشفاعة ورتَّبَ عليها الأجر: عن أبي موسى
 الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال:
 «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء». متفق عليه^(٢). وفي رواية:
 «ما أحب».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ
 الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسِّرْ عَلَى مَعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا
 كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»^(٣).

كم في هذه الدنيا من متاعب وعقبات يتعرض لها الإنسان، والناس في
 التصدي لهذه المتاعب والعقبات أنواع: فمنهم من يقوى - بفضل الله - على
 التغلب عليها، ومنهم من يستعين بمن يساعده على التغلب عليها، ومنهم ناس لا
 يقوون على التغلب عليها ولا يعرفون من يعينهم .. أن هؤلاء في غم شديد، وكرب

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

كبير، لا يهدأ لهم بال، ولا يطيب لهم عيش. وكلما كانت المتاعب كبيرة كان صاحب الحاجة الذي لا يعرف المعين في كرب شديد، ورغبة عظيمة للخلاص منها. فهنيئاً لمن يُوفِّق لتفريج كرب المكروبين.

إنَّ ما ذكرناه من الأجر العظيم الذي أعدّه الله للمحسنين الذين ينفعون الناس ويدخلون عليهم السرور، فيه من الدوافع لخدمة الناس وتحقيق النفع لهم ما فيه. وإنَّ هذا من أساليب التربية العظيمة. ما أحوج المسلمين إليها اليوم وفي كل وقت.

إنَّ على المرء الذي أكرمه بجاءٍ أن يبذل جاهه في تفريج كُرب المكروبين، وجبر عثرات العاثرين. والأيام دول.. فقد يضحى هذا الضعيف المكروب في يوم من الأيام قوياً ويغدو القويّ ضعيفاً يحتاج إلى العون.

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس وإنِّي لأعرف ذلك فيمن أعرف من الناس..

ناس كانوا فقراء ضعفاء.. أصبحوا بعد حين من الدهر أغنياء أقوياء.
وناس كانوا أغنياء أقوياء.. أصبحوا بعد حين من الدهر فقراء ضعفاء.

ولله درّ الأمام الشافعي الذي يقول: (١)

وأفضلُ الناسِ ما بين الوري رجلٌ	تُقضى على يده للناس حاجاتُ
لا تمنعَنَّ يد المعروف عن أحدٍ	ما دمت مقتدراً، فالسعدُ تاراتُ
واشكر فضائلَ صنَّع الله إذ جعلت	إليك، لا لك عند الناس حاجاتُ
قد مات قومٌ وما ماتت مكارمهم	وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتُ

وأنِّي لأحسب أنَّ سعادة مفرِّج الكروب سعادةٌ عظمى عندما يرى المكروب قد وصل إلى حقه.. وسعادته يوم القيامة أكبر وأجلّ.

(١) "وقفات مع الأبرار" ص ٣٤١ فقرة ٨٤٦ نقلاً عن "المنهج الأحمد".



إنَّ إدخال السرور على مسلم من أحب الأعمال إلى الله كما ورد في الحديث الذي ندرسه يقول ﷺ: «... وأحب الأعمال إلى الله ﷻ سرورٌ تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً».

ولإدخال السرور على المسلم مظاهر متعددة:

فمن ذلك تحقيق مطالبه ما دامت في دائرة الحلال، وإعانتة عندما يقع في ضيق، ورعاية أولاده، والدفاع عنه أمام من يظلمه ويقع في عرضه، ودعوته إلى الطعام، وإجابة دعوته إن دعا، وعيادته إن مرض، وتعزيته إن مات له قريب، وإهداؤه هدية في المناسبات.

ومن مظاهر إدخال السرور على المسلمين من الفقراء والمساكين تفقدتهم أيام الأعياد وذلك بزيارتهم وسد حاجتهم. وكذلك تفقد الأرمال من القريبات ولاسيما إن كنَّ من المحارم كالخاله والعمة ونحوهما، تفقدن بالزيارة والاهتمام بأمورهنَّ وقضاء حاجتهنَّ وإعطائهنَّ..

ومن إدخال السرور على المسلمين الاهتمام بالجيران وإكرامهم وستر ما يقف المرء عليه من عيوبهم.. فأحب الأعمال إلى الله إدخال السرور على المسلمين.

- ومن الأمور التي يحبها الله والتي ذكرها هذا الحديث قضاء الدين عن المسلم المعسر وهذا أمر لا يفتنه له كثير من الناس.

دخل رجل على الإمام عبد الله بن المبارك رحمته الله فوجد عبد الله في وجهه أثر الضر، فلما خرج بعث إليه أربعة آلاف درهم وكتب إليه:

وفتّى خلا من ماله	ومن المروءة غير خالٍ
أعطاك قبل سؤاله	وكفاك مكروه السؤال ^(١)

(١) "أعلام النبلاء" ٣٦٢/٨.

- ومن الأمور التي يحبها الله، وذكرها هذا الحديث طرد الجوع عن المسلم .. وقد حَصَّ كتابُ الله وسنَّةُ رسوله على إطعام الطعام.
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمنُ بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»^(١)
وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع بجنبه وهو يعلم به. فيحرم على الجار الغني أن يدع جيرانه جائعين»^(٢)
وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا الأسير»^(٣)
وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تعالى»^(٤)
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤمنٍ أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمر الجنة. وأيما مؤمنٍ سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمنٍ كسا مؤمناً على عري كساه الله من خضر الجنة»^(٥)
- وكظم الغيظ فضيلة عظيمة، وصفة من صفات المتقين، ولا سيما إذا كانت من المرء القادر على أن يمضي غيظه، ويكفيها في بيان فضل هذه الخصلة الكريمة قول الله

(١) رواه البخاري في "الأدب المفرد" ص ١١٢، والطبراني، والحاكم ٤/١٦٧، وانظر "السلسلة

الصحيحة" برقم: ١٤٩.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

(٣) رواه البخاري (٥٣٧٣).

(٤) رواه أحمد ٢/٣٣.

(٥) رواه أحمد ٣/١٣.



تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم .. وما من جُرعة أحبَّ إلى الله من جُرعة غيظ يكظمها عبداً. ما كظمها عبداً لله إلا ملاً الله جوفه إيماناً». (١)

ومما يتصل بكظم الغيظ قوله ﷺ: «ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته» وأحسب أنَّ كظم الغيظ هو المرحلة الأولى في كف الغضب والله أعلم. إنَّ الكربات في هذه الدنيا كثيرة، وهذا أمرٌ غير مستغرب، فهذا شأنها، وإني لأحسب أنَّ كثيراً من الناس مروا في ظروف صعبة آلمتهم وأحزنتهم (٢) .. وأحسب أنَّ الذين أُتيح لهم أن يجدوا ذا مروءة يواسيهم ويفرج عنهم كربتهم شعروا بسعادة لا توصف وسرور لا يعدله سرور.

هناك ناسٌ أصحاب حق أعندي عليهم وهم ضعفاء لا يقوون على الوصول إلى حقهم. وهناك ناسٌ فقدوا عزيزاً عليهم فضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وهناك ناسٌ اغتصبت منهم دورهم وحملوا الظالمين نظاماً ظالماً، فهم يريدون الوصول إلى حقهم ولا يصلون .. إنَّ هؤلاء هؤلاء ينتظرون مسلماً قوياً ذا جاه ومروءة يوصلهم إلى حقوقهم ويواسيهم ويخفف عنهم ويفرج كربتهم.

(١) رواه الترمذي (٢٤٤٩)، وأبو داود (١٦٨٢). ضعيف الترمذي (٤٣٤).

(٢) وما أجمل كلمة الإمام الغزالي في ذلك حيث قال: [الدنيا دار غرور، لا دار سرور، ومطية عمل، لا مطية كسل، ومنزل عبور، لا منتزه حبور، ومحل تجارة لا مسكن عمارة، ومتجر بضاعته الطاعة، وربحها الفوز يوم تقوم الساعة]. "المستصفى" ٣/١.

فإلى هذا الفضل يدعو الإسلام أتباعه الأبرار.

روى الطبراني وابن أبي الدنيا وأورده السيوطي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أحبُّ النَّاسِ إلى الله أنفعهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله ﷻ سرورٌ تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً. ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهراً. ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته. ومن كظم غيظاً - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه رضياً يوم القيامة. ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له؛ أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام. وأنَّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخلَّ العسل».

وقفنا فيما سبق ووقفات تربوية متعددة مع معاني هذا الحديث الجميل وأحبُّ أن أختتم هذه الوقفات بكلمة عامة عن هذه المعاني.

لقد تناول هذا الحديث الموضوعات الآتية:

- ١ - أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم للناس.
- ٢ - أحبُّ الأعمال إلى الله إدخال السرور على مسلم، وهذا المعنى والذي قبله إيجابيان.
- ٣ - ذكر ﷺ أن من أحبَّ الأعمال إلى الله أن يكشف العبد عن مسلم كربة.
- ٤ - ذكر ﷺ أن من أحبَّ الأعمال إلى الله أن تقضي عن معسر ديناً.
- ٥ - ذكر ﷺ أن من أحبَّ الأعمال إلى الله أن تطرد عن مسلم جوعاً.
- ٦ - السعي في قضاء حاجة المسلم أفضل من عبادة النافلة، وجزاء هذا السعي يوم القيامة جزاء عظيم.
- ٧ - إذا كظم المسلم غيظه وهو قادر على البطش ملأ الله قلبه رضياً يوم القيامة.
- ٨ - من كفَّ غضبه ستر الله عورته.
- ٩ - سوء الخلق يفسد العمل الصالح.



وتقرير هذه المعاني وتعميقها في النفس الإنسانية أمرٌ تربوي، يجعل أمة الإسلام أمة متراحمة متعاونة على البر والتقوى.

أيها السادة .. نلاحظ الموضوعات الستة الأولى تتصل بالمجتمع الإسلامي المتراحم المتعاون المتحاب حتى غدا أفرادها كالجسد الواحد.

فنفعُ الناس، وإدخال السرور على المسلمين، وكشفُ الكُربِ عنهم، وقضاءُ الدين عن المدين المعسر، وإطعام الجائع، وقضاء حاجة المحتاج .. هذه كلها أمور اجتماعية تدور في فلك التراحم والتعاون، وهي أمورٌ تميّز بها المجتمع الإسلامي بسبب التربية الإسلامية التي قام به ودعا إليها سيدنا رسول الله ﷺ.

والموضوعات الثلاثة الأخيرة موضوعات تتصل بالإنسان ذاته، تربيته على الخلق السوي الزكي، فالمسلم يكظم غيظه، ويكفّ غضبه، ويحرص على الاتصاف بالخلق الحسن. قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن». وبهذا يصبح الفرد مؤهلاً لتحقيق الفضائل الاجتماعية التي سبق أن أوردناها.



ويحسن بنا أن نقف وقفة بيانية سريعة نتأمل فيها بعض جوانب البلاغة الأسرة في هذا الحديث، فالحديث مملوء بالصور البيانية، يكاد لم يُعبّر عن معنى من هذه المعاني التي وردت في هذا الحديث إلا من خلال صورة بيانية.

ولننظر كيف عبّر الرسول ﷺ عن هذه المعاني بالصور:

- فإدخال السرور على المسلم تجسيد للسرور وسَوْقٌ له حتى يدخل على المسلم ويلزمه.
- وكشف الكربة عن المسلم .. نتصور أنَّ الكربة كانت مغطية للمسلم محيطة به، فقيّده وسدت عليه المسالك وضيّقت صدره، فيأتي أخوه المسلم صاحب

المروءة والقدرة فيكشف عنه ذاك الغطاء .. فيعود المسلم إلى حيويته ونشاطه وانشراحه.

- وإطعام الجائع عُبرَ بطرد الجوع عنه، فالجوع بُسّ القرين والضجيع .. إنه قرين مزعج مؤذ مؤلم، ولا يرضى المسلم الحقُّ أن يلقي أخوه العناء والأذى والألم من مقارنة هذا القرين، فيطرده عنه .. طرداً لا يتيح له العودة، وذلك بسبب الرعاية الدائمة وتوفير الطعام والشراب.
- والسعي في قضاء مصلحة المسلم عُبرَ عنه بالمشي مع المسلم في تحقيق طلبته .. إننا نرى بأعين خيالنا هذا المسلم الغيور يمشي ممسكاً بيد أخيه حتى يوصله إلى بغيته.
- وعُبرَ عن رؤية المصير السعيد الذي آل إليه كاظم الغيظ بقوله ﷺ: «ملاً الله قلبه رضى» وكيف لا يرضى وقد حيزت له السعادة بحذافيرها. فكان القلب وعاء وقد امتلأ هذا الوعاء بالرضى.
- وقوله ﷺ: «كفَّ غضبه» تعبير يحمل صورة الرجل الذي يكفُّ الغضب وينهاه عن أن يرفع رأسه .. فكأنه إنسان يحاول أن يعث ويؤذي فيكفه ويزجره .. وكان جزاء من يكف غضبه بأن الله ستر عورته.
- ومن الملاحظات البيانية لجوّه ﷺ إلى أسلوب الموازنة عندما أراد أن يقرر فضل السعي في قضاء مصالح العباد، فقرر أنّ هذا السعي أفضل من الجلوس في المسجد شهراً يتعبد الله فيه.
- ومن الملاحظات البيانية استعماله التشبيه وذلك في قوله ﷺ: «وإنَّ سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخلّ العسل» فهذا تشبيه معبر .. فإذا أُلقي الخلّ في وعاء العسل فسد العسل فساداً لا صلاح له ..



وكذلك شأن العمل الصالح الذي يفسده سوء الخلق كما في قصة وزير المأمون .. ذكرُوا أَنَّ أبا عباد [ثابت بن يحيى كاتب المأمون كان إذا سئل الحاجة يشتم السائل، ويسطو عليه ويخجله ويبكته ساعة، ثم يأمر له بها، فيقوم وقد صارت إليه وهو يذمه ويلعنه. قال ابن جبلة العكوك:

لعنَ الله أبا عباد لعناً يتوالى
يوسع السائل شتماً ثم يعطيه السؤالاً

وكان الناس يقفون لأبي عباد وقت ركوبه، فيتقدم الواحد منهم إليه بقصته ليناوله إياها، فيركله برجله بالركاب، ويضربه بسوطه ويطير غضباً، ثم لا ينزل عن فرسه حتى يقضي حاجته، ويأمر له بطلبته، فينصرف الرجل وهو ذامٌ له ساخط عليه. فقال فيه دعبل:

أولى الأمور بضيعةٍ وفساد مُلك يدبره أبو عباد
متعمد بدواته جلساءه فمضرج ومخضبٌ بمداد
وكأنه من دير هزفلٍ مفلتٌ حرب يجرُّ سلاسل الأقياد^(١)
فاشدد أمير المؤمنين صفاده بأشدَّ منه في يد الحداد

وقال فيه بعض الشعراء:

قل للخليفة يا بن عمِّ محمدٍ قيدٌ وزيرك إنه رگالٌ
فلسوطه بين الرؤوس مسالك ولرجله بين الصدور مجال^(٢)

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لله أَقْوَاماً يَخْصُهُمُ بِالنَّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيَقْرَهُهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ فَحَوَّلَهَا إِلَى

(١) دير هزفل: مجتمع المجانين. و حرب: جاء في القاموس: [ورجل حرب: عدو محارب، وإن لم يكن محارباً للذكر والأنثى والجمع والواحد].

(٢) "شرح نهج البلاغة" ١٨ / ٣١-٣٢.

غيرهم»^(١).

إنَّ العاقل الحازم هو من يستديم النعمة، وذلك بمداومة الشكر عليها، والشكر الحقيقي استعمال النعمة فيما يرضي الله ﷻ .. والإفضال منها على عباده .. إنَّ ذلك يكسبه الخير في الدنيا والآخرة. ومن سنة الله في خلقه أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

قال الله تعالى: ﴿كَذَابٌ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٣]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ ءَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

إنه لشرف للمحسن أن يختصه الله بهذه المكرمة وهي نفع العباد، وقد تقدّم الحديث الذي يقرر فيه رسول الله ﷺ أنَّ أحبَّ الناس إلى الله أنفعهم لعباده ..

أجل .. إنَّ من يشرفه الله بتوفيقه إلى خدمة العباد ونفعهم ليشعر بالسعادة تغمر قلبه وذلك عندما يُقدِّم نفعاً لأسرة فيكفكف من دموع أفرادها، فيطرد عنهم الجوع، ويأتيهم بالدواء والكساء، ويراهم وقد تبدلت كآبتهم فرحاً ونشاطاً .. إنَّ الناس يحبون من يحسن إليهم، ويثقون به، ويقبلون عليه، ذلك لأنَّ النفوس الكريمة السليمة جُبلت على حبٍّ من أحسن إليها .. ويكون له الذكر

(١) رواه ابن أبي الدنيا في "قضاء الحوائج"، والطبراني في "الأوسط" برقم: ٥٢٩٥، وأبو نعيم في "الحلية" ١١٥/٦ و ٢١٥/١٠، والخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" ٤٥٩/٩. وقال الألباني: حديث حسن، انظر "صحيح الجامع" (٢١٦٤)، و"السلسلة الصحيحة" (١٦٩٢). وقال المنذري في "الترغيب والترهيب" ١٦٩/٣: [ولو قيل بتحسين سنده لكان ممكناً].



الحسن. إِنَّ ما يقدمه للناس يذهب .. ولكنَّ ثناء الناس عليه، وذكرهم له يبقى .
وفي الحديث الذي بدأت به تهديدٌ للذين يقطعون ما عودوا الناس عليه من
الإحسان بأن يزيل الله عنهم النعمة إلى غيرهم .. وحينذاك سيندمون وقت لا ينفع
الندم. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلَّى الله عليه وآله قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا
ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط
ممسكاً تلفاً». متفق عليه. (١)

كان رجل من العلماء الصالحين قد قبض راتبه ومضى في طريقه عائداً إلى بيته،
فاعترضه رجل فقير يبدو أنه في ضنك شديد، فذكر له حاله وطلب معونته، ورأى
الشيخ الصدق في لهجته، فما كان من الشيخ إلا أن دفع إليه الراتب كله. وعندما
دخل إلى بيته كان أهله ينتظرون قدومه لتسديد ما عليهم من ديونٍ للبقال واللحّام
وغيرهما، فذكر لهم أنه أعطى راتبه لإنسان محتاج، وقال: لا عليكم فإن في جيبى مالاً
آخر يفي بحاجتكم .. ولكنه عندما فتّش جيبه فوجئ أنه ليس معه شيء، وأن ما
كان معه أنفقه، فثارت ثائرة الزوجة وقالت: ماذا نصنع مع الدائنين اليوم وهم
ينتظرون أن ندفع إليهم ما لهم في ذمتنا؟ وشاركها في اللوم الأولاد .. وبينما هم في
هذا الحوار إذ طرق الباب رجلٌ يحمل للشيخ مبلغاً من المال بقدر الراتب، وهو
حقه من بعض الكتب التي نشرها. فقال لهم: رأيتم كيف أن الله أخلف علينا. وقرأ
الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

إن قضاء حوائج العباد يجعل صاحبه في سعادة في الدنيا وفي أمن من عذاب الله
يوم القيامة، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صلَّى الله عليه وآله: «إنَّ لله عبداً اختصهم بحوائج

(١) البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم،^(١) أولئك الآمنون من عذاب الله». (٢)
وفي رواية لابن أبي الدنيا للحديث بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ عِبَاداً خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ،
تُقْضَى حَوَائِجُ النَّاسِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، أُولَئِكَ الْآمَنُونَ مِنْ فَزَعِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».
إِنَّ مَا مَرَّ بَنَا مِنَ التَّرْهيبِ مِنْ مَنَعِ اسْتِعْمَالِ النِّعَمِ فِي نَفْعِ الْعِبَادِ، وَالتَّرْغِيبِ
بِالْأَجْرِ وَالْأَمْنِ لِمَنْ يَقْضِي حَوَائِجِ النَّاسِ أَسْلُوبٌ تَرْبَوِيٌّ عَظِيمٌ التَّأْثِيرِ فِي تَحْقِيقِ
التَّعَاوُنِ وَالتَّكَافُلِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

وعلى المرين أن يتخلّقوا بهذا الخلق الكريم .. فيقوموا بقضاء حوائج الناس ما
استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .. إِنَّ ذَلِكَ يَعْينُهُمْ عَلَى النِّجَاحِ فِي عَمَلِهِمْ، وَيَجْعَلُ النَّاسَ
يَسْتَجِيبُونَ لِنَصَحِهِمْ وَيَتَخَلَّقُونَ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي يَدْعُو أُولَئِكَ الْمَرْبُونُ النَّاسَ إِلَيْهَا ..
وبذلك يصل هؤلاء المربون إلى إنشاء أمة مستقيمة سائرة على الأسس التربوية
السليمة.

إِنَّ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ لَا تَنْقُضِي، وَمَا كُلُّ النَّاسِ قَادِرُونَ عَلَى قَضَائِهَا بَأَنْفُسِهِمْ ..
بل تقوم - غالباً - عقبات قد لا يقوى المرء وحده على تخطيها، وهذه العقبات
إما عقبات مادية تُتَخَطَّى بِالمَالِ أَوْ بِالقُوَّةِ الجَسَدِيَّةِ وَمَا أَعْظَمَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا سَأَلَهُ سَيِّدُنَا أَبُو ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

- قال: «الإيمان بالله والجهاد في سبيله».

- قلت: أي الرقاب أفضل؟

- قال: «أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً».

- قلت: فإن لم أفعل؟

- قال: «تعين صانعاً أو تصنع لأخرق».

(١) وقد رأيت نماذج من هؤلاء كالشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد الرزاق عفيفي والشيخ

مناح القطان رحم الله الجميع.

(٢) رواه الطبراني، وانظر "السلسلة الضعيفة" (٣١٩٥).



- قلت: يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟

- قال: «تكفَّ شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك»^(١).

وإما عقبات معنوية تُتخطى بأن يبذل المحسن جاهه وبيانهن وقد حَضَّ رسول الله ﷺ على الشفاعة فقال: «اشفعوا تؤجروا وليقضي الله على لسان رسوله ما شاء»^(٢).

وكلما قضى المرء حاجة له تجددت حاجات كما قال الشاعر:

نروح ونغدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضي

ومن هنا دعت الشريعة إلى التعاون. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال ﷺ: «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ»^(٣).

إنَّ التزام أحكام الشرع والعمل بها يُبعد الخلاف بين المسلمين ويأتي بالود. وإنَّ التربية النبوية ترمي إيجاد مجتمع متحاب متعاون على البر والتقوى، يرفع فيه كل فرد حرمة إخوانه المسلمين امتثالاً للتوجيه التربوي الكريم.

عن أبي بكرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنى في حجة الوداع: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا»^(٤).

(١) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤). والأخرق: الذي لا يتقن ما يحاول فعله.

(٢) رواه البخاري (٦٠٢٧).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٢) وهذا لفظه، وروى مسلم بنحوه برقم: ٢٥٦٤.

(٤) رواه البخاري (١٠٥)، ومسلم (١٦٧٩).

ومن أكبر أسباب الخلاف والعداوة العلاقات المالية. ومن أجل ذلك فقد ضبطها هذا الدين العظيم بالآيات المحكمات، وبالأحاديث الصحاح .. أجل لقد ضبط هذه العلاقات المالية ضبطاً محكماً وذلك بأن أحاطها بتوجيهات ذاتية في أعماق النفس، وتوجيهات تربوية أخلاقية. ورتب على بعض التصرفات المنحرفة حداً وعلى بعضها الآخر تعزيراً. ونريد أن نرى بعض الأمثلة:

١- الدّين: لقد زهد النبي ﷺ بالدّين، وكان يستعبدُ بالله منه فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أعوذ بالله من الكفر والدين». فقال رجلٌ: أتعدل الكفر بالدّين يا رسول الله؟ قال: «نعم»^(١).

ولا يخلو الرجل المدين من الشعور بالذل والمهانة ولا سيما إن لم يستطع أن يقوم بوفاء هذا الدين. والرجل الذي لا دينَ عليه يعيشُ حراً مرفوع الرأس.

قلت مرةً لشيخٍ صالحٍ ورع من مشايخي: لماذا لا تكمل بناء بيتك هذا؟ فقال لي: إني لا أحب أن ينام معي في فراشي أحد، ولا أحب أن يضع أحدُ رأسه معي على وسادتي. قلت: كيف يكون هذا؟ فقال: لو استندتُ لأكمل البناء لشعرتُ في كل ليلة أن الدائن ينام معي وأنه يضع رأسه إلى جانب رأسي يطالبني.

إنّ التزهيد بالدين توجيهٌ تربوي نبوي عظيم يُربي في المرء القناعة، ويُنمي فيه الشعور بالكرامة. ذلك أيها السادة أن بعض الناس يستدين لا لضرورة ولكن ليتوسع في مأكله وملبسه ومركبه ومسكنه .. يستدين ليأتي بأفخر الطعام من المطاعم، وليغير سيارته الجيدة بموديل جديد، وليقوم برحلات سياحية، ولا يركب في الطائرات إلا في الدرجة الأولى.

(١) رواه النسائي والحاكم من طريق دراج عن أبي الهيثم وقال: صحيح الإسناد. "الترغيب والترهيب" ٢/٢٥٥.



إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ وَأَمْثَالَهُ يَضَعُ فِي عُنْقِهِ غُلًّا لَا مِنْ حَدِيدٍ بَلْ مِنْ ذُلٍّ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الرُّوحَ الْجَسَدَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ: الْكَزْزِ وَالْغُلُولِ وَالِدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». (١)
وفي رواية: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنَ الْكِبَرِ وَالْغُلُولِ وَالِدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ».

○ ورغب الإسلام من استدان عن حاجة أن يحرص على الوفاء وأن يعمل في سبيل تحقيق ذلك.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ أَنْاسٍ يَرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ. وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ أَنْاسٍ يَرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ». (٢)

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَمَلَ مِنْ أَمْتِي دِينَارًا ثُمَّ جَاهِدَ فِي قَضَائِهِ ثُمَّ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَهُ فَأَنَا وَلِيهِ». (٣)

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي آدَاءِ دِينِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَوْنٌ». (٤) وفي رواية: «مَنْ كَانَ دَيْنُهُ قِضَاؤُهُ، أَوْ هَمٌّ بِقِضَائِهِ، لَمْ يَزَلْ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ حَارِسٌ». رواه أحمد. (٥)

○ ورغب الإسلام المسلم القادر على تفريغ كربة أخيه المكروب إذا جاءه يستدينه أن يفرج كربته:

(١) رواه أحمد ٢٧٦/٥، وابن ماجه (٢٤١٢)، والترمذي (١٥٧٢)، والحاكم ٢٦/٢ وقال: صحيح على شرطهما.

(٢) رواه البخاري (٢٣٨٧)، وابن ماجه (٢٤١١)، وأحمد ٣٦١/٢، وغيرهما.

(٣) رواه أحمد ١٥٤/٦ بإسناد جيد، وأبو يعلى، والطبراني.

(٤) رواه أحمد ٧٢/٦.

(٥) رواه أحمد ٢٥٥/٦.

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم. فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: لا. قالوا: تذكر. قال: كنت أداين الناس فأمر فتياي أن يُنظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر. قال: قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ: تجاوزوا عنه»^(١).

- وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُوسِبَ رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ نحن أحق بذلك منه. تجاوزوا عنه»^(٢).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا. فلقي الله فتجاوز عنه».

ويبدو أن الصحابة رضوان الله عليهم تأثروا بهذه التوجيهات التربوية فكان الموسر منهم يسامح المعسر عملاً بقول الله تعالى إذ أمر سبحانه بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال: ﴿وَلِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ ثم رغبه بأن يضع عنه ويسامحه ويبرئ ذمته، ووعد سبحانه من يفعل ذلك الخير والثواب فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وروى مسلم في صحيحه أن أبا قتادة طلب غريباً له، فتوارى عنه، ثم وجده. فقال: إني معسر. قال: آله؟ قال: الله. قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن ينجاه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه»^(٣).

(١) رواه مسلم (١٥٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٥٦١).

(٣) رواه مسلم (١٥٦٣).



وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلوكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ.. فقال له أبي: يا عمّ إني أرى في وجهك سقعة من غضب. قال: أجل. كان لي على فلان بن فلان الحرامي مال. فأتيت أهله فسلمت فقلت: ثمّ هو؟ قالوا: لا. فخرج علي ابن له جفر (أي: ابن خمس سنين) فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل أريكة أُمي. فقلت اخرج إليّ، فقد علمت أين أنت. فخرج، فقلت: ما حملك على أن أختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك. خشيت والله أن أحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأخلفك. وكنت صاحب رسول الله ﷺ وكنت والله معسراً. قال: قلت: آله. قال: الله. قلت: آله؟ قال: الله. قال: فأتاني بصحيفته فمحاها بيده فقال: إن وجدت قضاء ديني فاقضي وإلا فأنت في حل. فأشهدُ بصر عينيّ هاتين (ورفع أصبعيه على عينيه) وسمعُ أذني هاتين (ووضع أصبعيه على أذنيه) ووعاه قلبي هذا (وأشار إلى مناط قلبه) رسول الله ﷺ وهو يقول: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله». (١)

إنّ ضبط الإسلام العظيم للعلاقات المالية بين المسلمين .. ذلك الضبط الذي لا يدع مجالاً للخلاف أن يظهر لو التزم الناس بتلك التوجيهات التربوية. وقد بدأت بالدين .. وهو من الأمور الشائعة بين الناس في مجتمعاتنا .. ولنتابع هذه التوجيهات.

فمن ذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر بكتابة الدين فقال عزّ من قائل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ وأمر بكتابته صغيراً كان أو كبيراً فقال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وأمر بالإشهاد عند

(١) رواه مسلم (٣٠٠٦).

التبائع حتى لا يكون نسيان من طرف من الطرفين ولا تعمد الإنكار .. لا يكون ذلك سبباً لأكل أموال الناس بالباطل فقال: ﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهي أطول آية في القرآن.

إن ابن آدم معرض للنسيان ولا سيما في حالات معينة، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيزين للمرء الحرام .. وقد ينقاد هذا المرء في لحظة ضعف لإغوائه وإغرائه .. ولكن الكتابة تحسم الأمر.

أقرض رجل أخاه قرضاً، ولم يكتبه، وعندما حان أجل السداد جاء يطلب ماله فأنكر المدين أن يكون أخذ منه شيئاً. فقال الدائن: أنا - والله - أستحق؛ لأن الله وعده وَعَلَى أمر بالكتابة فلم أكتب، فأنا أستحق أن أعاقب بضائع مالي.

وقد يخلط الناس بين ضرورة الكتابة كي لا يكون نسيان ولا جحد، وبين المودة والمحبة .. وهذا شيء وذاك شيء آخر .. فالكتابة لا تחדش المودة ولا تنقصها .. بل تحول دون أن تتعرض هذه المودة على ما يחדشها وينال منها.

أعرف رجلين كان بينهما ودٌ كبير، وكان كل منهما يعلن أنه مستعد أن يفدي أحاه بنفسه وماله .. وكان هنالك عملٌ بينهما ينتج عنه مال .. وعمل أحدهما عند صاحبه، فلم يكتب أحد منهما ما له عند الآخر وما عليه. ودارت الأيام .. ومضى زمن طويل .. فحصل بينهما خلاف على الأمور المادية.

والخلاف لا يستبعد بين شريكين، ولا بين زوجين، ولا بين أخوين شقيقين، ولا بين صديقين، ولا بين أستاذ وتلميذه .. هذا شأن الناس في هذه الحياة الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].



وصعد كل منهما الخلاف، فقامت العداوة اللدودة بين الصديقين محل المودة الودودة. ولو أن كل منهما كان يكتب ما له وما عليه ويوثقه لما كان لهذا الخلاف أن يستفحل.

ولتأمل آية الأمر بكتابة الدين ولتذكر حال الناس يوم نزولها .. إننا لو تأملنا ذلك لاتضح لنا أهمية الكتابة؛ ذلك لأن الصحابة الكرام كان معظمهم أميين لا يقرأون ولا يكتبون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] والكاتبون فيهم قليل ومع ذلك فقد أمروا بكتابة الدين. واليوم قد انتشرت الكتابة بين الناس، فما للناس عذر في تركها.

وقد اختلف أهل العلم في أمر كتابة الدين: هل هو واجب أو هو مندوب؟ وقد ذهب الجمهور إلى أن الكتابة المأمور بها مندوبة، والأمر بها أمر ندب وإرشاد. وذهب آخرون إلى أنها فرض لازم. وقد عرض للموضوع بتفصيل الإمام الطبري في تفسيره وعرض حجج كل من الفريقين ثم قال: [قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله ﷻ أمر المتدائنين إلى أجل مسمى باكتتاب كتب الدين بينهم، وأمر الكاتب أن يكتب ذلك بينهم بالعدل. وأمر الله فرض لازم، إلا أن تقوم حجة بأنه إرشاد وندب ولا دلالة تدل على أن أمره جل ثناؤه باكتتاب الكتب في ذلك، وأن تقدمه إلى الكاتب أن لا يأبى كتابة ذلك ندب وإرشاد. فذلك فرض عليهم لا يسعهم تضييعه، ومن ضيعه منهم كان مَرَجاً - أي آثماً - بتضييعه.

ولا وجه لاعتلال من اعتل بأن الأمر بذلك منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ لأن ذلك إنما أذن الله ذكره به حيث لا سبيل إلى الكتاب أو إلى الكاتب. فأما الكتاب والكاتب موجودان، فالغرض - إذا كان الدين إلى أجل مسمى - ما أمر الله تعالى ذكره به في قوله: ﴿فَأَكْبُؤْهُ وَلْيَكُتُبْ يَنْكَرُ كَاتِبٌ

بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴿١٠﴾ وإنما يكون الناسخ ما لم يجز اجتماع حكمه وحكم المنسوخ في حال واحدة .. فأما ما كان أحدهما غير نافٍ حكم الآخر فليس من الناسخ والمنسوخ في شيء [١].

قد يجد الدائن أحياناً شيئاً من الحرج إذا طلب من المدين أن يكتب ويوقع على المكتوب، لأنَّ بعضهم يُعَدُّ ذلك منافياً للصدقة والمحبة والأخوة. فعليه في هذه الحالة أن يتلطف مع المدين في بيان الحكم ويقول: إن أخف الأقوال أنه أمر ندب. فلماذا نترك المندوب ونزهد في الثواب.

وهناك ملاحظة في موضوع الدين وهي أنَّ على الدائن أن يستجيب لطلب من لجأ إليه إذا كان الرجل صالحاً يؤدي الحقوق إلى أصحابها.

أما إذا كان على غير هذه الصفة فلا مانع من الاعتذار. وذلك كأن يعلم الدائن أن الرجل جاء ليستدين مالاً يلعب به بالقمار أو ليأتي الفواحش، أو أنه رجل دجال يستدين ولا يوفي إلى غير ذلك من الحالات.

إنَّ التربية الفاضلة الناجحة هي التي تعمل على تكوين الفرد الصالح السوي المتعاون مع إخوانه على الخير، وتعمل على استئصال كل أسباب الخلاف والعداوة. ومن هنا كان الهدف الأول للتربية الإسلامية التي وردت مبادئها في الكتاب والسنة إعداد الإنسان الذي كرمه الله كما أراد الله أن يكون.

أن يكون إنساناً يعرف الله حقَّ المعرفة، ويعبُدُه على بصيرة حقَّ العبادة، ويستحيي من الله حقَّ الحياء، ويسعى في الأرض عاملاً بما ينفعه وينفع إخوانه المسلمين، عارفاً سنن الله الكونية ومستفيداً منها، ينشر الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

إنَّ من أكبر أسباب الخلاق والعداوة بين الناس الأمور المالية، ومن رحمة الله بخلقه أن أنزل عليهم شريعة عظيمة، تُحَقِّق لهم السعادة، وتدلهم على طريق الخير، وتحذرهم من طريق الشر، وقد أقامت هذه الشريعة نظاماً دقيقاً يضبط تصرفاتهم



وعلاقتهم المادية فيما بينهم ضبطاً دقيقاً، فحرّمت عليهم بعض أنواع الكسب، وأحلت لهم طرق الكسب الحلال.

ولو التزم الناس بهذا النظام الربّاني لزالّت من حياتهم معظم أسباب الخلاف والشقاق. ومن أحكام هذا النظام أنّ الله تبارك وتعالى حرّم القمار قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمُرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال القرطبي: [والميسر قمار العرب بالأزلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله، فأَيُّهما قَمَرَ صاحبه صاحبه ذهب بماله وأهله].^(١)

ونقل القرطبي عن سيدنا علي رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما وعن عدد من التابعين أنهم قالوا: [كل شيء فيه قمار من نرد وشطرنج فهو الميسر].^(٢)
وقال القرطبي: [وأما القمار فإنه يورث العداوة والبغضاء لأنه أكل مال الغير بالباطل].^(٣)

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى. فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك. فليصدق». ^(٤)

إنّ مجرد الدعوة إلى القمار بالقول حرام، فكيف لو أتبع القول الفعل والعياذ بالله. وأمره صلى الله عليه وسلم بالصدقة لمن قال تلك المقولة الآثمة مندرج في الأمر النبوي الكريم العام:

(١) "تفسير القرطبي" ٥٢/٣.

(٢) "تفسير القرطبي" ٥٢/٣.

(٣) "تفسير القرطبي" ٥٧/٣.

(٤) رواه البخاري (٤٨٦٠)، ومسلم (١٦٤٧).

«وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا» وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْنَا لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ابن حجر: [والقمار حرام باتفاق، فالدعاء إلى فعله حرام].^(١)
وقال ابن قدامة في المغني: [كل لعب فيه قمار فهو محرم أي لعب كان وهو من الميسر الذي أمر الله تعالى باجتنابه].^(٢)

ويؤسفني أن أقول: إن هذا الداء الويل، بدأ يتشرب في عدد من بلاد المسلمين، وأن هذه العادة الهدامة شرع يمارسها بعض المسلمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد تفنن الشيطان وأتباعه من الإنس باختراع ألوان من القمار سموها بغير اسمها، وهذا لا يغير من الحقيقة شيئاً.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ^(٣) أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل الله منهم القردة والخنازير». ^(٤)

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها». ^(٥)

وهكذا فعل المفسدون في القمار فسموه بغير اسمه، وانطلقوا يرغبون السذج من الناس بالربح، فانساق إلى هذا المزلق هالكون.

(١) "فتح الباري" ٦١٨/٨.

(٢) "المغني" ١٥٤/١٤ تحقيق الحلو.

(٣) "الترغيب والترهيب" ١١٣/٣.

(٤) رواه ابن ماجه (٤٠٢٠)، وابن حبان في صحيحه (٦٧٥٨).

(٥) رواه ابن ماجه (٣٣٨٤)، وفي صحيح سنن ابن ماجه (٢٧٢٩).



لقد حرّم الله تعالى القمار الذي هو سبب من أسباب نشر الفقر والعداوة والبغضاء بين الناس.

كم خرّب القمار بيوتاً كانت عامرة! وكم أشقى القمار أسراً كانت سعيدة، أشقاها وفيها الأطفال والشيوخ والنساء! هناك مساكين دخلهم محدود زين لهم الشيطان أنهم بالقمار سيصبحون أغنياء فسلكوا هذا السبيل المحرّم .. ربّحوا مرة وخسروا مرات .. وتوالى الخسائر فاضطروا إلى بيع أثاث بيوتهم .. ثم بيوتهم، وعاشوا حياة البؤس والشظف والشقاء، وقد ينتهي الأمر ببعضهم إلى الاكتئاب أو الجريمة أو الانتحار. وجنوا على أنفسهم وأطفالهم.

أعرف رجلاً ذكياً غاية الذكاء كريماً، كان موسعاً عليه في الرزق، وكانت له مكانة اجتماعية مرموقة، ظنّ أنه في ممارسته القمار يزيد ماله، فسار في هذا الطريق المهلك، فكان عاقبة أمره أن فقد ماله كله وبيته .. فأصابته الأمراض، وأضحى قعيد بيت لأحد أقربائه، وصار يتصدق الناس عليه .. ومات همماً وغماً.

وأعرف موظفاً صغيراً كان أباً لسبع بنات .. فكان المسكين يقضي الليل كله في اللعب بالورق ليربح .. ولكن كان من الخاسرين أبداً .. كان ينفق راتبه كله في الليالي الأولى من الشهر ثم يستدين بقية الشهر .. حتى عجز عن وفاء الدين، وامتنع الناس عن إقراضه .. وضاعت الأسرة ومات همماً وغماً.

قلنا إن المفسدين استحدثوا وسائل من القمار سموها بغير اسمها كما سبق أن ذكرنا، منها اليانصيب وهو قمار محرم، وقد يزعمون أحياناً أن الربح الحاصل منه سينفق في مجالات خيرة، كمساعدة الأسر الفقيرة، أو تسليح الجيوش لردّ عدوان المعتدين. وقد فات هؤلاء أنّ الخير لا يمكن أن يأتي عن طريق الشر، وأنّ الإسلام حدد الوسيلة كما حدد الغاية.

ومنها وسائل أخرى تلفعت بثوب الجوائز، وقد أفتى العلماء بأنها من القمار. يعتمد بعضهم إلى دفع مبالغ طائلة^(١) لتسديد فاتورة الهاتف الذي استخدمه لمتابعة البرنامج القماري في التلفاز .. ولا يجني من ذلك إلا الخسارة والإثم.

أيها السادة .. أمر الله عباده أن يجتنبوا القمار فمن استجاب كان من المفلحين، ومن أعرض ولم يستجب كان في معيشة ضنك وكان من الخاسرين.

عن عبد الله بن السائب بن يزيد، عن أبيه عن جده يزيد بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لا لعباً ولا جاداً، فإذا أخذ أحدكم عصا صاحبه فليردها إليه»^(٢).

في هذا الحديث توجيهان تربويان عظيمان:
أمّا أولهما فالنهي عن أخذ المسلم شيئاً من مال أخيه، ولو كان متاعاً رخيصاً كالعصا.

وأمّا ثانيهما فالنهي عن المزاح الثقيل بأخذ متاع أخيه لعباً. وللرسول توجيهات تربوية رائعة في المزاح، سنورد شيئاً منها إن شاء الله.

لقد ربي الإسلام أتباعه على تجنب كل كسب محرّم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]. وحرم رسول الله ﷺ على المسلم

(١) ذكر لي رجل أنه سمع خاسراً يقول: لقد اتصلت أكثر من ألف مرة لأفوز بجائزة وزني من الذهب ولم أستفد إلا الخسارة.

(٢) رواه أحمد ٢٢١/٤، وأبو داود (٢٠٠٣)، والترمذي (٢١٦٠)، والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٤١)، والحاكم ٦٣٧/٣، والبيهقي في "السنن" ٩٢/٦، وفي "الشعب" ١٠/١٢١، والبعوي في "شرح السنة" ١٠/٢٦٤.



أموال إخوانه المسلمين ودماءهم وأعراضهم وكان ﷺ يقرر هذا المبدأ في مناسبات كثيرة ليؤصل هذا الخلق الكريم عند المسلمين.

رَوَى البخاري ومسلم وهذا لفظ البخاري: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟». قلنا: بلى. قال: «أيُّ شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس ذو الحجة؟». قلنا: بلى. قال: «أيُّ بلد هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليست بالبلدة الحرام؟». قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت؟». قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب، فربّ مبلغ أوعى

من سامع. فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».^(١)

في حديث أبي بكرة الصحيح الجميل حوار يثير الاهتمام، فلقد كان العرب يعظمون شهر الحج ومكة المكرمة وثبت هذا في أعماق نفوسهم فأراد الرسول ﷺ أن يبيّن لهم حرمة هذه الأمور الثلاثة: الدماء والأموال والأعراض فقرنها بما استقر في نفوسهم من التحريم والتعظيم فقتل النفس التي حرم الله من أكبر الكبائر، وأكل أموال الناس كذلك من الكبائر. فالسرقة، والرشوة، والغصب، والغش، والاختلاس، والاحتيال لأكل مال الآخرين .. كل ذلك حرام، وحرمتها مساوية لحرمة الدماء والبلد الحرام والشهر الحرام.

إن أكل مال الآخرين بالباطل مهما كانت صورته، ويكون المرء آثماً في كسبه وآثماً في إنفاقه حتى ولو أنفقه في سبل محمودّة خيرة.

(١) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩)، وفيه زيادة: «وأعراضكم».

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك، ومن جمع مالا حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إضره عليه». (١)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم. وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يُسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن عبدٌ حتى يأمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه؟ قال: «غشّه وظلمه. ولا يكسب عبدٌ مالا حراماً فيتصدق منه فيقبل منه، ولا ينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إن الله تعالى لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث». (٢)

فالرزق مقسوم فهذا غني وهذا فقير سبحانه من قسم الحظوظ فلا عتب ولا ملامة وكذلك فالأخلاق مقسومة، فهذا انفعالي وذاك مرح وهذا صبور وذاك ضجر، والسعيد من رضي بما قسم الله له من الرزق ولا عليه أن يعمل على زيادة ماله من طريق الحلال، وكذلك فإن على المرء أن يسعى في تحسين أخلاقه عن طريق الترويض والمراقبة والصبر ومخالفة النفس والهوى.

والحصول على الدنيا مكسبٌ رخيصٌ إن لم يجعلها المرء وسيلة لبلوغ رضوان الله، فالدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، والله سبحانه يحب الصادقين، ويجب

(١) قال المنذري ٢/٢٣٧: [رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم كلهم من رواية دراج عن ابن حجرية عنه].

(٢) قال المنذري ٢/٢٣٨: [رواه أحمد وغيره من طريق أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وقد حسنها بعضهم والله أعلم].



الصابرين ويحب المحسنين. فليعتزّ المسلم بعطيّة الله له، وليفخر ما شاء أنّ الله جل جلاله يحبه.

والمؤمن الكامل الإيمان هو الذي لا يتعرّض جاره إلى أذى منه أو ظلم، فروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره». (١)

بل ربط النبي ﷺ الإيمان بإكرام الجار، فروى البخاري ومسلم عن أبي شريح العدوي أنّ النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره». (٢)

وقد نهى النبي ﷺ عن المزاح الثقيل الذي يكون فيه ترويعٌ لمسلم أو أخذٌ لماله عن طريق المزاح، فقد يعمد بعضهم إلى أخذ متاع أخيه المسلم يريد أكله فإن اطلع عليه أحد ادعى أنه يمزح.

وقد يأخذ بعضهم المتاع لمدة قصيرة ثم يرده لصاحبه بعد أن يروعه ويسخر منه، يزعم أنه يمزح .. وهذا حرام لا يجوز، لأن فعله هذا يجعل صاحب المتاع مروعاً قلقاً، لاسيما إن كان المتاع ثميناً أو ضرورياً له، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى جبل معه فأخذه، ففزع فقال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلماً». (٣)

(١) رواه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٣)، ومسلم (٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٥٠٠٤).

وعن أبي حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرئ أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس»^(١) ولذلك لشدة ما حرم الله مال المسلم على المسلم.

* * *

(١) رواه أحمد ٤٢٦/٥، وابن حبان في صحيحه "الإحسان" ٣١٦/١٣، قال الهيثمي في "المجمع" ١٧١/٤: رواه أحمد والبيهقي ورجال الجميع رجال الصحيح والطحاوي في "مشكل الآثار" ٤١/٤.



الحلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني.

قال: «لا تغضب» فردّد مراراً. قال: «لا تغضب».

ورواه الترمذي بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني شيئاً ولا تكثر عليّ لعلّي أعيه.

قال: «لا تغضب» فردّد مراراً، كل ذلك يقول: «لا تغضب».^(١)

هذا توجيه تربوي كريم يعود على الفرد والأسرة والمجتمع بالخير العميم. أيها السادة .. إن المشاكل بين الناس كثيرة، منها ما يكون بين الزملاء في العمل ومنها ما يكون بين رئيس ومرؤوس، ومنها ما يكون بين الأصدقاء، ومنها ما يكون بين الجيران، ومنها ما يكون بين الزوجين ومنها ما يكون بين الأقرباء عموماً وسببها جميعاً إغفال الناس الأخذ بهذا التوجيه التربوي الكريم الذي ورد في هذا الحديث الجميل الموجز ..

وقد تتفاقم هذه المشاكل حتى تصبح أمراً خطيراً جداً.

وإصرار النبي ﷺ على هذه الوصية مراراً يدل على أن الغضب جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير.

روى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: «لا تغضب». قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.^(٢)

(١) رواه البخاري (٦١١٦)، وأحمد ٣٦٢/٢ و٤٦٦، والبيهقي في "الشعب" ٣٨١/١٤ إلى

٣٨٨، ورواه الترمذي (٢٠٢٠).

(٢) رواه الإمام أحمد ٣٧٣/٥.

الغضب خلق رديء، وآثاره السيئة الكثيرة هدامة .. فما أكثر ما جرّ من الوليات على الناس، فوقعت بسببه الجرائم، وأهرقت دماء، وترملت نساء، وتيتم أطفال. إن أكثر جرائم القتل بسبب الغضب. وإن ارتفاع نسبة حوادث الطلاق سببها الغضب. وإن أكثر حوادث الشجار التي تقود أصحابها إلى السجن سببها الغضب.

إننا كثيراً ما نغضب لأمر لا تستحق أن نشور من أجلها ونهيج ومن هنا كان تعريف الرسول ﷺ للرجل الشديد القوي بأنه الذي يملك نفسه عند الغضب. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

ولفظ مسلم في الرواية الأخرى: أنه ﷺ قال: «ما تعدون الصرعة فيكم؟». قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: «ليس بذاك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب».

والصُّرعة الرجل الشديد الذي يصرع الرجال ولا تصرعه - كما ورد شرح هذه الكلمة في الرواية المتقدمة - [إنَّ الإنسان بإرادته لا بعضلاته، فليس الشديد هو الذي يصرع الناس بقوته، لكن الشديد هو الذي يملك السيطرة على أعصابه ويستطيع أن يتصرف المتصرف الموزون البق حالة الغضب، وبذلك يكون الإنسان إنساناً]^(٢).

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)، وأحمد برقم: ٢ / ٢٣٥، والنسائي في "السنن الكبرى" (١٠١٥٤)، و"عمل اليوم والليلة": ٣٩٥ و٣٩٦، والبيهقي في "الشعب": ٣٨١ / ١٤ إلى ٣٨٨.

(٢) "الحديث النبوي" ص ٧٦.



ويشير الحديث إلى أن الغضب أمرٌ واقع يتعرض له كل إنسان، فالشديد من الرجال هو الذي لا يهيج ولا يثور ولا يفعل بل يملك نفسه.

إنّ علينا أن (نكبر عقولنا) كما يقول الناس، ونترفع عن مستوى الصغار الذين يكون وينفعلون لأي تصرف لا يروقهم، وعلينا أن نزن الأمور بميزان الشرع، فيكون غضبنا إذا انتهكت حرمة من حرمت الله.

إنّ علينا أن نغض الطرف عن أمور كثيرة تافهة جرت على غير مرادنا، ولكنها لا تستحق أن نعكر حياتنا من أجلها، سواء كان ذلك في مجال الأسرة أم في المجالات الأخرى.

وقد قرأت كلمة جيدة في هذا الصدد فيها حديث عن كتاب صدر حديثاً في هذا الموضوع المؤلف أجنبي، وعنوانه: "لا تهتم بصغائر الأمور مع أسرتك".^(١)

إذا أردتم أن تتمتعوا بحياة سعيدة مفعمة بالبهجة وحب الآخرين فعليكم بكظم الغيظ والعفو عن المخطئين وتجاوز الأمور الصغيرة، وعليكم أن تتحلوا بالصبر والحكمة في معالجة الأمور، ولا ينبغي بحال من الأحوال أن تدعوا الأمور الصغيرة التافهة تذهب بصوابكم، وتسيطر على تفكيركم، فالحياة مليئة بالصعوبات والعقبات والأزمات والمصائب. والله در القائل:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وليس من مصلحتكم النفسية ولا البدنية ولا من مصلحتكم الاجتماعية أن تتابعوا الأمور الصغيرة، وتعلقوا عليها، وتستنتجوا منها أموراً بعضها صحيح وبعضها خيالي غير صحيح وتغضبوا من أجلها.. إنكم إن فعلتم ذلك واستمررت عليه قادكم

(١) مؤلفه ريتشارد كارلسون - الأهرام عدد الجمعة ٢٣/٥/١٤٢٣هـ الموافق

٢/٨/٢٠٠٢م - جاء ذلك في كلمة بقلم عليّة سيف النصر.

الغضب إلى كل مكروه، وانتهى بكم الحال إلى حزن متواصل، وقد يُصاب بعضكم بانتيار عصبي.

إن الذين يملكون الإرادة القوية لا يخرجهم الغضب عن الجادة والاتزان.. بل تراهم مسيطرين على أنفسهم، يتصرفون التصرف السوي الذي يعود عليهم بالخير والسداد وغالباً ما يكون هؤلاء من الذين لا يشغلون أنفسهم بالأمور الصغيرة والتراوات، فهم يتمتعون بالقدرة على الإنتاج والإبداع، وتكون حياتهم مملوءة بالبهجة والسرور وتكون حياتهم أكثر يسراً وانسجاماً وحلاوة.. وينجون من الاحباط الذي يقع به الهائجون الغاضبون.. وسيكونون أيضاً مصدراً لسعادة من يعاشرهم من أصدقاء وزملاء وجيران وأزواج وأولاد وأقرباء.. وسيكونون محبوبين من قبل الناس يألفونهم ويودون التعامل معهم.

ويكفينا في الدلالة على فضيلة الحلم واجتناب الغضب قول الله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِيَةِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿ إلى أن يقول سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

والغضب يقع فيه كثير من الناس.. فيسيئون إلى أنفسهم وإلى من حولهم، وقد يقعون في الإثم، وإن لم يقعوا فيه فقد فاتهم أجر عظيم. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من جرعة أعظم عند الله أجراً من جرعة غيظ كظمها عبداً ابتغاء وجه الله».(١)

(١) رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٣١٨)، والحديث صحيح.



إن هذا الأجر العظيم الذي أعده الله لمن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه عند الغضب قد فات هذا المسكين الغضوب.

وأخرج الطبراني من حديث أبي الدرداء قال: قلت: يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة. قال ﷺ: «لا تغضب ولك الجنة»^(١).

وأخرج أحمد من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه سأل النبي ﷺ: ماذا يباعني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»^(٢).

إننا كثيراً ما نغضب لأمر تافه .. ذلك لأن كثيراً من الناس يضخمون الزلات اليسيرة، والأمور الصغيرة، والكلمات البريئة، ويجعلون من الحبة قبة، ويقابلون ذلك بالانفعال والثورة .. ومن الأمثلة على ذلك ما يقع في البيوت بين الرجل وزوجته وما يقع بين الكنة والحماة .. يرى أحدهم أمراً صغيراً لم يرق له، فيكبره في خياله .. فيغضب ويهيج، ويعبر عن غضبه بالصياح والسب وكسر ما أمامه من آنية .. وينسى حسنات من يهاجم ومزاياه وخدماته الكبيرة .. وقد يكبر الخلاف بسبب ذلك وتحلّ النكبة .. فيندم عندما لا ينفعه الندم قال يزيد بن الحكم الثقفي يعظ ابنه:

واعلم بُنيَّ فإنَّه	بالعلم ينتفع العليم
أنَّ الأمور دقيقتها	مما يهيج له العظيم
والبغي يصرع أهله	والظلم مرتعه وخيم ^(٣)

إنَّ الغضب أمر يتعرض له كل إنسان، ولكن الفرق بين القوي الموفق وغيره أن القوي يملك نفسه عند الغضب، والآخر يدع نفسه تثور وتتصرف تصرفات رعناء

(١) "مجمع الزوائد" ٨ / ٧٠.

(٢) أخرجه أحمد ٢ / ١٧٥.

(٣) "الحماسة" تحقيق عسيلان ١ / ٦١٣.

رعناء مؤذيه يندم عليها فيما بعد.

قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر.^(١)

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة. قال: ترك الغضب.

وقال الحسن البصري: يا ابن آدم كلما غضبت وَثَبْتَ، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار.^(٢)

وقيل: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فَرَّدَ الغضب بالكظم وسكَّنه بالتؤدة.

وقيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه!! قال: إذن لا تذله الشهوة، ولا يصصره الهوى، ولا يغلبه الغضب.

وقيل: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار.

وقال الحسن البصري: من علامات المسلم: قوة في الدين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حلم، وكَيْسٌ في رَفَق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتَجَمُّلٌ في فاقة، وإحسان في قدرة، وتَحَمُّلٌ في رفاقه، وصبر في شدة، لا يغلبه غضب، ولا تجمع به الحمية ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه بطنه، ولا يستخفه حرصه، ولا تقصر به نيته، فينصر المظلوم، ويرحم الضعيف، ولا يبخل، ولا يبذر، ولا يسرف، ولا يقتر، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء، والناس منه في رخاء.^(٣)

إن الرجل الذي يغضب ويثور هو الخاسر في كل مجال.. أما الذي يسيطر على أعصابه فهو الفائز في كل مجال. إن الغضب والانقياد لدواعيه يفقد الإنسان

(١) ابن رجب ٣٦٣، و"إحياء علوم الدين" ١٦٢/٣.

(٢) "إحياء علوم الدين" ١٦٢/٣.

(٣) "إحياء علوم الدين" ١٦٢/٣.



الاتزان، وسلامة التفكير. وهذه أمثلة رائعة تحكي تصرف رجال أشداء لا يستشارون بل ييقنون متماسكين:

- جاء رجل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فأسمعه كلاماً قاسياً. فقال له أبو الدرداء: يا هذا لا تُغرقن في سبنا، ودع للمصلح موضعاً، فإننا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. ^(١)
- وشم رجل الشعبي فقال له: إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلتَ فغفر الله لك.
- وشم رجل سلمان رضي الله عنه فقال له: إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول. ^(٢)
- وشم الربيع بن خثيم فقال: يا هذا قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرُّ مما تقول.
- وأسمع رجلُ سيدنا أبا بكر رضي الله عنه كلاماً فقال له: ما ستر الله عنك أكثر. وينشأ من الغضب كثيرٌ من الأفعال المحرمة، كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم والعدوان، وكثيرٌ من الأقوال المحرمة كالقذف، والسب، والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر والعياذ بالله تعالى.
- ويمكن للمسلم أن يكفكف من غضبه وأن يكظم غيظه وذلك بأن يروض نفسه على الخير ويتبع وصايا الرسول صلوات الله وسلاماته عليه في ذلك.

(١) "أدب الدنيا والدين" ٢٢٩.

(٢) "إحياء علوم الدين" ١٦٧/٣.

• فمن هذه الوصايا أن يستعيز بالله من الشيطان، عن سليمان بن صُرد قال: استبّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمّر عيناه وتنتفخ أوداجه، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقال الرجل: وهل ترى بي من جنون. (١)

وأن يتذكر موقفه بين يدي الله تعالى قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فأسمعه كلاماً مؤذياً فقال له: أردت أن يستفز في الشيطان لعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً .. انصرف رحمك الله. (٢)

• ومنها أن يغير المرء وضعه. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضجع». (٣)

وقد حدثني صديق أنه إذا غضب من شيء في البيت قطع النقاش وخرج وركب سيارته فانطلق يزور صديقاً أو يشتري شيئاً ثم يعود وكأن شيئاً لم يكن.

• ومنها أن يسكت. فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «علموا، ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت». (٤)

قال ابن رجب: [وهذا دواء عظيم للغضب؛ لأن الغضب ان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه .. مما يعظم قدره، فإذا

(١) رواه مسلم ٢٦١، والبخاري في "بدء الخلق" وفي "الأدب المفرد" ١٣١٩.

(٢) "الشعب" ١٤.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٨٢).

(٤) رواه البخاري في "الأدب المفرد" (١٢٧٠)، والبيهقي في "الشعب" ٣٩٦/١٤، وانظر

"السلسلة الصحيحة" ٣/٣٦٣.



سكت هذا الشر كله عنه].

- ومنها أن يتوضأ. أخرج الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار .. فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». (١)

- ومنها أن يتذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم على التصرفات المسيئة. وأن يتذكر مصلحته الدنيوية ستعرض للخطر لأنّ الناس تميل قلوبهم لمن لا يستثيره الغضب ولا ينفعل لكل أمر.

* * *

(١) رواه أحمد ٢٢٦/٤، وأبو داود (٤٧٨٤).

آداب المجلس

إنَّ رسول الله ﷺ سيد المرين، وأعظم المعلمين، ما ترك خيراً إلّا دلّ أمته عليه ولا أمر سوء إلّا نهى أمته عنه.

وأودَّ أن أقف وقفة تربوية عند بعض آداب المجلس التي روى رسول الله ﷺ عليها أصحابه الغر الميامين.

لقد نهى رسول الله ﷺ عن أن يُقيم أحدٌ أحداً من مجلسه ثم يجلس فيه: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه». متفق عليه. (١)

وفي رواية البخاري: قال ابن جريح: سمعتُ نافعاً يقول: سمعتُ ابن عمر رضي الله عنه يقول: نهى النبي ﷺ أن يُقيم الرجل الرجل من مقعده ويجلس فيه. قلت لنافع: الجمعة؟ قال: الجمعة وغيرها. (٢)

وأورده البخاري في موضع آخر من صحيحه بلفظ: عن النبي ﷺ أنه نهى أن يُقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسّحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر رضي الله عنه يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. (٣)

وأما رواية مسلم فكانت بلفظ: «لا يقيم أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه». (٤)

هذه الروايات للحديث تكمل كل منها الأخرى وبذلك يتحقق وضوح

(١) رواه البخاري (٩١١)، ومسلم (٢١٧٧)، والترمذي (٢٧٤٩)، وأحمد ٢/ ١٢٤.

(٢) رواه البخاري (٦٢٦٩).

(٣) رواه البخاري (٦٢٧٠).

(٤) رواه مسلم (٢١٧٧).



المعنى، وهذه فائدة جمع روايات الحديث الواحد. ففي الرواية الأولى التي أخرجها الترمذي تذكير للمسلم بأن هذا الجالس أخ له «لا يقيم أحدكم أخاه من مجلسه» فلا ينبغي أن يسيئ المرء إلى أخيه، ذلك لأنَّ في هذا التصرف كسراً لخاطره، إذ كيف يقيمه من مجلسه أمام الناس ليجلس مكانه.. إن هذا لا يفعله الأخ مع أخيه. إنَّ في ذلك إهانة لكرامة الإنسان.. وهذا حرام في الإسلام. وفي الرواية التي أخرجها البخاري نقف على بيان سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما أن هذا النهي عام يشمل أن يقيم المرء أخاه من مجلسه في المسجد يوم الجمعة أو أن يقيمه في أي مكان آخر فلا يحل للمرء أن يقيم أخاه من مجلسه سواء كان في المسجد أو غيره. ثم ذكر ابن عمر في هذه الرواية بديلاً عن هذا التصرف وذلك بأن يتفصحوا ويتوسعوا وفي رواية: «ولكن ليقُل تفصحوا وتوسعوا».

وقال العلماء: معنى تفصحوا: أن يتوسعوا فيما بينهم ومعنى توسعوا: أن ينضم بعضهم إلى بعض.^(١)

○ وفي رواية البخاري أن ابن عمر كان يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه.^(٢) (وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه).

○ وأخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقام له رجل من مجلسه، فذهب ليجلس فيه، فنهاه رسول الله ﷺ.^(٣)

○ وأخرج الحاكم أن أبا بكرة رضي الله عنه جاء فقام له رجل من مجلسه فأبى أن يجلس فيه وقال: إنَّ النبي ﷺ نهى عن ذلك.

(١) "فتح الباري" ١١/٦٣.

(٢) جاء في "الأدب المفرد" للبخاري، والترمذي (٢٧٥٠).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٢٨)، وأورده الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٤١).

○ وأخرج الترمذي عن وهب بن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «الرجل أحق بمجلسه، وإن خرج لحاجته ثم عاد فهو أحق بمجلسه».(١)

○ وفي رواية مسلم ورد الحديث بصيغة التأكيد: «لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه».

إنَّ هذا العمل فيه أنانية وأثرة وتكبر، والمسلمون سواسية، ومن سبق إلى مباح فهو له؛ وإقامته من مجلسه عدوان على حقه، وجرح لكرامته، إذ قد يفهم من هذا العمل أنَّ هذا الأخ المسلم لا ينبغي له أن يجلس في هذا المكان لهوانه ودنوّ منزلته.

إنَّ الإسلام حرص على توفير الكرامة للإنسان، وحَرَّمَ على المسلمين إهانته. يقول رسول الله ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل مسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».(٢)

والعِرضُ -كما قال العلماء- موضع المدح والذم من الإنسان، فالوقوع في عرض المسلم حرام، وإقامته من موضعه الذي يجلس فيه احتقار له، ولذا فهو حرام، ويكون فاعله قد ارتكب أمراً عظيماً من الشر.

قال لي صديق: كنتُ مرة في زيارة أحد العلماء المكفوفين، وكان بالقرب منه رجل فاضل عالم غريب فجاء رجل متكبر فاقترب من هذا الرجل الفاضل وقال له بصوت منخفض: قم من هنا، والعالم صاحب الدار لا يدري ما حصل، فقام ذلك الرجل الفاضل منكسر القلب، وجلس هذا المتكبر مكانه. قال صديقي: فسقط هذا الرجل من عيني، وكنت أتمنى لو أن الرجل الفاضل لم يستجب لمطلبه.

(١) رواه الترمذي (٢٧٥١) وقال: هذا حديث صحيح غريب.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٣-٢٥٦٤)، ورواه البخاري في "الأدب المفرد" ص ٦١.



قال ابن أبي جمرة: [هذا اللفظ عام في المجالس، ولكنه مخصوص بالمجالس المباحة، إما على العموم كالمساجد ومجلس الحكام والعلم، وإما على الخصوص كمن يدعو قوماً بأعيانهم إلى منزله لوليمة ونحوها. وأما المجالس التي ليس للشخص فيها ملك، ولا إذن له فيها، فإنه يقام ويُخرج منها ثم هو في المجالس العامة، وليس عاماً في الناس، بل هو خاصّ بغير المجانين، ومن يحصل منه الأذى كأكل الثوم النبيء^(١) إذا دخل المسجد، والسفيه إذا دخل مجلس العلم أو الحكم قال: والحكمة في هذا النهي: منع استنقاص حق المسلم المقتضى للضعائن، والحث على التواضع المقتضى للوادة وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام].^(٢)

وقد اختلف العلماء في دلالة النهي الوارد في الحديث: «لا يقمن أحدكم أخاه من مجلسه..» هل يدل على الحرمة أم على الكراهة، والراجح أنه يدل على الحرمة. قال ابن بطال:

[... وقيل: هو على ظاهره، ولا يجوز لمن سبق إلى مجلس مباح أن يقام منه، واحتجوا بالحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رفعه: «إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»].^(٣)

قالوا: فلما كان أحق به بعد رجوعه ثبت أنه حقه قبل أن يقوم، ويتأيد ذلك بفعل ابن عمر المذكور فإنه راوي الحديث وهو أعلم بالمراد منه. وقد سئل مالك عن حديث أبي هريرة فقال: ما سمعتُ به وإنه لحسن إن كانت أوبئته قريبة، وإن بعد فلا أرى

(١) بكسر النون على وزن نيل.

(٢) "فتح الباري" ١١/٦٣.

(٣) رواه مسلم (٢١٧٩).

ذلك، ولكنه من محاسن الأخلاق].^(١)

وقال القرطبي في "المفهم": [هذا الحديث يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه].^(٢)

وقال النووي: [قال أصحابنا: هذا في حق من جلس في موضع من المسجد أو غيره لصلاة مثلاً، ثم فارقه ليعود إليه، كإرادة الوضوء مثلاً، أو لشغل يسير ثم يعود، لا يبطل اختصاصه به، وله أن يُقيم من خالفه وقعد فيه، وعلى القاعد أن يطيعه. واختلف: هل يجب عليه: على وجهين أصحهما الوجوب، وقيل: يستحب وهو مذهب مالك. قال أصحابنا: وإنما يكون أحق به في تلك الصلاة دون غيرها. ولا فرق بين أن يقوم منه ويترك له فيه سجادة ونحوها أم لا والله أعلم].^(٣)

وهناك ملاحظة تتصل بموضوعنا وهي أن ماضى من الكلام يُعمل به في المساجد، ومجالس العلم، والأماكن العامة، ولا ينطبق هذا على المجالس الخاصة، وذلك كالمجلس الذي أعدّه رجل في بيته وأعدّ لنفسه مكاناً خاصاً ولمعاونيه من الكتاب وغيرهم أمكنة خاصة بهم، وكذا الحفلات التي ينظمها المشرفون عليها، فيجعلون أماكن معينة للناس معينين، فلا ينبغي للإنسان أن يجلس في تلك الأماكن المخصصة لغيره، وإن لم يتقيد بذلك عرّض نفسه للمهانة. فلصاحب الدار الحق في أن يجلس ضيوفه في الأماكن التي خصصها لهم.

ومن آداب المجلس التي رباهم عليها ﷺ أن يجلس المرء حيث ينتهي به المجلس، وإذا كان في المسجد فلا يجوز له أن يتخطى رقاب الناس.

(١) "فتح الباري" في شرح الحديث ٦٢٧٠.

(٢) "فتح الباري" في شرح الحديث ٦٢٧٠.

(٣) "فتح الباري" ٦٢٧٠.



○ أخرج أبو داود عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه قال: كنا إذا أتينا النبي صلى الله عليه وسلم جلس أحدنا حيث ينتهي. ^(١)

أو يجلس في فراغ يكون دون أن يؤذي الجالسين، وهذا الأدب الرفيع قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الذي رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل للرجل أن يفرّق بين اثنين إلا بإذنها». ^(٢)

○ وعن عبدة عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجلس بين رجلين إلا بإذنها». ^(٣)

مراعاة كريمة مرهفة بلغت المستوى الرفيع، ولباقة وتلطف في معاملة الآخرين .. اثنان يجلسان ويتحدثان في أمور خاصة بهما فلا يجوز أن يأتي إنسان ويقحم نفسه ويجلس بينهما، فيقطع حديثهما، ويضيع عليهما الفرصة التي أتحت لهما، فيكون كل منهما ينتظر مناسبة للحوار مع صديقه في أمر مهم، وجمعت بينهما هذه المناسبة .. فيكون هذا الإنسان الذي جلس بينهما ثقيلاً عليهما.

وقد يكون أحدهما يرتاح للجلوس مع إنسان معين لخفة روحه وطيب حديثه فما ينبغي أن يأتي إنسان ويفرق بينهما.

ولننظر في قول الرسول صلى الله عليه وسلم «لا يحل» .. إن هذه التربية النبوية رعاية كريمة لرغبات الناس .. وتجعل التزام هذا الأدب الاجتماعي أمراً دينياً يأثم من يخالفه. هذا ومخالفة هذا الأدب ضارٌّ أيضاً بهذا الفضولي لأنّ جلوسه بينهما وقطعه

(١) رواه أبو داود (٤٨٢٥).

(٢) رواه الترمذي (٢٧٥٢)، وأبو داود (٤٨٤٥).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٤).

لحديثهما يجعلهما يكرهانه ويريانه ثقيل الظل.

وينبغي أن يكون الإذن إذنًا حقيقياً صادراً من قلوبهما، فقد تحمل المجاملة هذين الجليسين على الإذن وهما في حقيقة الأمر لا يأذنان .. فإذا لمس المستأذن أن الإذن غير حقيقي فلا ينبغي له أن يجلس.

إنَّ الاستئذان لا معنى له إن لم يعبر عن حقيقة رأي من نستأذنه، وجدير بالمسلم أن يكون صريحاً مع إخوانه ومعاشريه، ويستطيع المرء أن يجمع بين الصراحة والتلطف في إبداء الصراحة.

وقد أدبنا ربنا في موضوع الاستئذان بأن نقبل نتيجته، فإن قيل: ارجعوا فلنرجع قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

وقال: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

حدثني صديق أنه طرق باب صديق له عزيز .. ولم يكن مستعداً لاستقباله .. لأنَّ أهله عندها ضيوف وأولادهم، فاعتذر إليه راجياً أن يقبل عذره ويأتيه في الغد، فما كان من ذاك الصديق إلا أن اعتبر هذا التصرف منافياً للصدقة والأخوة، وقاطع صديقه.

إنَّ علينا أن نحيا الحياة الإسلامية وألا يكون في أنفسنا حرج من أحكام شرع الله. إنَّ الاستئذان معناه طلب الإذن، فقد يجاب هذا الطلب وقد يمنع. ومن آداب يوم الجمعة أن لا يتخطى رقاب الناس، فذلك يضمن أن تكفر ذنوبه، وإن تخطى كان مؤذياً للمسلمين.



○ عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالَا: قال رسول الله ﷺ: «من اغتسل يوم الجمعة ولبس من أحسن ثيابه ومسّ من طيب إن كان عنده ثم أتى الجمعة فلم يتخطى رقاب الناس .. كانت كفارة لما بينها وبين جمعته التي قبلها». (١)

○ عن عبد الله بن بسر قال: جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبى ﷺ يخطب فقال له النبى ﷺ: «اجلس فقد آذيت». (٢)

ومن آداب المجالس التي ربّى الرسول العظيم أمته عليها أن تكون المجالس نافعة لأهلها في أمور الدين والدنيا، عامرة بذكر الله وقراءة القرآن، وأن تخلو من الغيبة والنميمة وازدراء الناس والوقوع في أعراضهم، وعن اللغو والعبث. ويؤسفني أن أقر وبكل ألم أن كثيراً من مجالس الناس اليوم لا تبرأ من هذه المآخذ.

○ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة». (٣)

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة، ومن اضطجع مضجعاً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة». (٤)

(١) رواه أبو داود (٣٤٣)، وانظر حديث عبد الله بن عمرو (٣٤٧) وهو حديث مقارب للحديث السابق.

(٢) رواه وأبو داود (١١١٨)، وابن ماجه (١١١٥) عن جابر بن عبد الله بنحوه وفيه زيادة «وأنيت».

(٣) رواه أبو داود (٤٨٥٥) بإسناد صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٤٨٥٦) بإسناد صحيح. والتر: النقص، ومعناها هنا: التبعة.

إنَّ حياتنا محدودة، والوقت هو رأس مال المسلم فلماذا لا تكون مجالسنا عامرة بذكر الله ومعرفته حكم الله فيما يمر معنا في حياتنا.

○ عن أبي برزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» فقال رجل: يا رسول الله! إنك لتقول قولاً ما كنت تقول في مضى فقال: «كفارة لما يكون في المجلس». (١)

○ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: كلمات لا يتكلم بهنَّ أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كُفِّرَ بهنَّ عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهنَّ عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة. سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك. (٢)

* * *

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٥٧).



إبطال التبني

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ هذه الآية ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧] نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة. (١)

من أساليب التربية الفعالة التربية بالقصة، وهذا ما نجده في عدد من الآيات الكريبات والأحاديث الصحيحة.

وهناك قصة تتصل بحياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف نبي وأعظم إنسان .. بحياته الدعوية والزوجية .. تتكلم قصة زواجه من زينب رضي الله عنها التي تشير إليها الآية الواردة في الحديث المتقدم.

لقد كانت عادة التبني في أيام الجاهلية عند العرب أمراً شائعاً ومعمولاً به، وهناك شخصيات مشهورة من الأعلام نسبت إلى غير آبائها، منهم زيد بن حارثة رضي الله عنه الذي كان يدعى (زيد بن محمد) ومنهم المقداد بن عمرو الذي كان يدعى (المقداد بن الأسود) وهذه العادة ليست محمودة، وهي تمثل أمراً غير طبيعي ولا سديد. ولقد أراد الله إبطال هذه العادة عملياً وذلك عندما أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بنت جحش التي كانت زوجة متبناه زيد.

أمّا قصّة تبني رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فهي قصة مؤثرة ومترعة بالتوجيهات التربوية التي يقف عليها المتأمل من متابعة أحداث هذه القصة. جاء في "الإصابة في تمييز الصحابة" ما يأتي:

زارت سعدى أم زيد بن حارثة قومها وزيدٌ معها، فأغارَت خيلُ لبني القين بن جَسْر في الجاهلية على أبيات بني معن، فأحتملوا زيداً وهو غلام، فأتوا به في سوق

(١) رواه البخاري (٤٧٨٧).

عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة رضي الله عنها، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، وكان أبوه حارثة بن شراحيل حين فقده قال:

بكيْتُ على زيدٍ ولم أدر ما فعل أحْيُ فيرجى أم أتى دونه الأجل

في أبيات، ثم حج ناس من كلب فرأوا زيداً فعرفهم وعرفوه، فانطلقوا وأعلموا أباه، ووصفوا له موضعه، فخرج حارثة وكعب أخوه بفدائه، فقدا مكة، ودخلا على النبي ﷺ في المسجد فقالا: يا ابن عبد المطلب! يا ابن سيد قوم! أنتم أهل حرم الله، تفكّون العاني وتطعمون الأسير. جئناك في ولدنا عبدك، فامنن علينا وأحسن في فدائه، فإننا سندفع لك.

قال: «وما ذاك؟»

قالوا: زيد بن حارثة.

فقال: «أو غير ذلك، ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداءً».

قالوا: زدتنا على النصف.

فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء؟»

فقال: نعم. هذا أبي، وهذا عمي.

قال: «فأنا من علمت، وقد رأيت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما».

فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم.

فقالا: ويحك يا زيد! أختار العبودية على الحرية، على أبيك وعمك وأهل بيتك؟

قال: نعم. إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجهم إلى الحجر فقال: «اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه».



فلما رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما وانصرفا، فدعي (زيد بن محمد) حتى جاء الله بالإسلام.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].^(١)

هذا وقد كان سيدنا زيد رضي الله عنه أميراً مظفراً عينه الرسول ﷺ أميراً على عدد من السرايا ثم كان من أمراء غزوة مؤتة وقد استشهد فيها وهو ابن خمس وخمسين سنة، ولم يقع في القرآن تسمية أحد باسمه إلا هو باتفاق.

وقد دعاه رسول الله ﷺ بأنه حُبّه. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمرته فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل. وأيم الله إن كان لخليقاً للإمرة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إلي بعده».^(٢)

إن في هذه القصة الممتعة فوائد عدة ينبغي أن نتدبرها وأن نعرضها على الناس بالأسلوب المؤثر الجذاب، وهذه مهمة أصحاب الأقلام.

ومن أهم هذه الفوائد بيان أثر المعاملة الحسنة فيمن نعاشر ونخالط، لقد كانت معاملة النبي ﷺ لزيد جعلته يؤثره على أبيه وأهل بيته، وجعلته يؤثر العبودية على الحرية .. إننا لن نستطيع أن نحسن إلى الناس جميعاً بأموالنا ولكننا نستطيع أن نحسن إليهم بأخلاقنا. يقول رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

(١) رواه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥).

(٢) رواه مسلم (٢٤٢٦).

لقد كانت أخلاق المسلمين الأولين الكريمة سبباً في دخول الناس في دين الله أفواجاً .. بل فتحت أقطار بالأخلاق الإسلامية وبالمعاملة الحسنة ومن حكم إباحة الزواج من الكتابيات إتاحة الفرصة لهنّ ليرين محاسن الإسلام العظيم في المعاملة والأخلاق .. وهذا قد تحقق فيما مضى، فمعظم أولئك النساء أسلمن وحسن إسلامهن، وكان زواجهن سبباً لعنتقهن من النار.

ورُبَّ ضارّة نافعة، ذلك أنّه آل أمر زيد إلى أن يكون في ملك سيدنا محمد رسول الله ﷺ فكان من أسعد الخلق بهذه الصّحبة وبتلك الخدمة، ولقي من إكرام الرسول ما جعله يؤثره على أبيه وأهله.

وحادثة الاختطاف - بشكل مجرّد - عدواناً على حرّية النّاس، وطمع للضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .. وهذه الظاهرة قضى عليها الإسلام وعدّها من المحرّمات الكبائر، ورّبب لمرتكبيها عقوبة زاجرة ومن هنا يتجلّى فضل الإسلام على العرب وعلى الدنيا كلها.

لقد كانت حياة النّاس قبل الإسلام في جزيرة العرب سلسلة من الغزوات والحروب المستمرة التي لا تتوقف إلا يسيراً في الأشهر الحرم، وقد يستطيلون هذه المدة، فيعمدون إلى النسيء يؤخرون شهر المحرم إلى صفر. كانت حياة النّاس في قلق واضطراب يستعبد القوي الضعفاء من الأحرار.

فزيد رضي الله عنه عربي حرّ، وقد عدا عليه العدوان فاسترقوه. وهذه حادثة لها نظائر كثيرة، نقلت بعض أخبارها، وهناك حوادث لم تنقل إلينا أخبارها، ولما جاء الإسلام أبطل هذا العدوان.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم



القيامة: رجل أعطى^(١) بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره». ^(٢)

لقد صان الإسلام العظيم كرامة الإنسان وحرية، ويطالعنا هذا الحديث القدسي الصحيح بعقوبة عظمى يهدد من يقوم بعملية اختطاف الحر واسترقاقه وبيعه بأن يكون الله تبارك وتعالى خصمه يوم القيامة. قال ابن الجوزي: [الحرُّ عبدُ الله، فمن جنى عليه فخصمه سيده]. ^(٣)

ومن إكرام الرسول ﷺ لزيد أنه زوجه بنت عمته زينب بنت جحش، ذلك لأنَّ أمَّها أُميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ.

وكانت زينب فتاة جميلة، وكانت من أشرف العرب بل كانت من ذؤابة العز والشرف عندهم حسباً ونسباً.

وللأعراف الاجتماعية ضغط على الناس في كل زمان ومكان، فزيد ﷺ مولى وزينب - كما أشرنا - قرشية في قمة الشرف، فلما عَرَضَ الرسول عليها الزواج من زيد ترددت وجاء في رواية ابن أبي حاتم أنها [كرهت ذلك .. ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه] .. لكن يبدو أنَّ الحياة الزوجية بينهما لم تستقم فقد روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: [جاء زيد بن حارثة فقال: يا رسول الله! إنَّ زينب اشتدَّ عليَّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها، فقال له: اتق الله وأمسك عليك زوجك].

(١) على حذف المفعول أي: والتقدير أعطى يمينه به، أي عاهد عهداً وحلف عليه بالله ثم نقضه.

(٢) رواه البخاري (٢٢٢٧-٢٢٧٠)، وابن ماجه (٢٤٤٢)، وأحمد ٣٥٨/٢.

(٣) "منار القاري" ٣/٣٠٦.

وقد أخبر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن نظام التبني القائم في حياة العرب سيُلغى ويمنع ويبطل وسيكون إبطاله عملياً وذلك بأن يتزوج النبي الكريم ﷺ زينب زوجة زيد بعد انتهاء عدتها من الطلاق. ولكن الرسول الكريم ﷺ الحريص على المسلمين خشي أن يواجه الناس بذلك فيكون منهم نفور فلم يعلن عن ذلك، ولم يخبر به زيداً ولا غيره، يخشى قاله الناس (تزوج محمداً امرأة ابنه).

قال الحافظ ابن حجر: [وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو: تزوج امرأة الذي كان يُدعى ابناً، ووقع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم].^(١)

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهذا واضح بين في أن زواج النبي هذا إنما كان لإبطال التبني إبطالاً عملياً. وكانت زينب رضي الله عنها تفتخر بأن الله هو الذي زوجها من فوق سبع سمواته أما الزوجات الأخريات فقد زوجهن أبواهن وأولياؤهن.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتُم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۗ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٨].^(٢)

(١) "فتح الباري" ٨ / ٥٢٤.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٠٧)، وأخرج مسلم الجزء الأول من الحديث (١٧٧) (الرقم الخاص ٢٨٨)، وأورد الألباني الحديث في ضعيف الترمذي (٦٢٨).



وقد تحقق ما توقعه الرسول ﷺ من مقالة الناس ففي حديث الترمذي السابق: [وإن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾] [الأحزاب: ٤٠].

ويقودنا حديثنا عن تربية الرسول ﷺ أمته في موضوع التبني وإبطال هذه العادة الجاهلية المغايرة للحقيقة إلى عرض سريع لحياة أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها تلك السيدة الكريمة التي لا يُذكر موضوع التبني وإبطال الله له إلا وتذكر هي وسيدنا زيد رضي الله عنهما.

لقد كانت سيدتنا زينب امرأة فاضلة، صوّامة، قوامة، سخية، صناعاً، أي تُتقن صناعة أمور عدة بيديها، وكان لها من ذلك دخل طيّب، وكانت تتصدق بذلك كله، وكانت لرسول الله ﷺ مُعجبة. كما قالت ذلك أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها. أبوها جحش بن رثاب، وأُمُّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ. تزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث، وقيل: سنة خمس، وكانت قبل ذلك تحت زيد بن حارثة، كما سبق أن ذكرنا، وكانت وليمة عرسها يوم أن بنى عليها رسول الله ﷺ وليمة فاخرة، أطعم عليها ﷺ الناس الخبز واللحم الكثير.

ومن خصائصها رضي الله عنها أن آية الحجاب نزلت بسببها. (١)

عن أنس رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش أُرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلت: يا نبي الله ما أجد أحداً أدعوه.. وبقي

(١) رواه البخاري (٤٧٩٣)، ومسلم (١٤٢٨).

ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء حتى دخل فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِدْنَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد وصفت عائشة رضي الله عنها زينب وصفاً رائعاً في قصة الإفك فقالت - كما روى مسلم - : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي عن أمري فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً، فعصمها الله بالورع.

وقالت عائشة أيضاً: لم يكن أحدٌ من نساء النبي ﷺ تساميني في حسن المنزلة عنده غير زينب بنت جحش. وكانت تفتخر على نساء النبي ﷺ بأنها بنت عمته، وبأن الله هو الذي زوجها له، وهن زوجهن أولياء أمورهن.

وقد ماتت رضي الله عنها سنة ٢٠ من الهجرة في خلافة عمر وقد صلى رضي الله عنه عليها، وكانت أول نساء النبي موتاً بعده. جاء في الصحيحين - اللفظ لمسلم - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً» فكن يتناولن: أيتهن أطول يداً، قالت عائشة: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل وتتصدق.

لقد فهم أزواج النبي رضي الله عنهن - أول مرة - الكلام على ظاهره كما دلت على ذلك رواية أخرى للحديث وهي: قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت



إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمذُّ أيدينا في الجدار نتناول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب وكانت امرأة قصيرة ولم تكن بأطوالنا، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة، وكانت زينب امرأة صناع اليدين فكانت تدبغ وتحرز .. وتتصدق به في سبيل الله، ولا يبقى معها شيئاً .. لقد كان ذلك شأنها في حياتها كلها

ﷺ

ولما أرسل عمر رضي الله عنه إليها عطاءها، وكان اثني عشر ألفاً قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة، فبلغ عمر ذلك، فقال: هذه امرأة يراد بها الخير، فجاء إليها ووقف عليها وأرسل إليها بالسلام وقال: بلغني أنك فرقت عطاءك، وسأرسل إليك ألف درهم تستبقينها لحاجتك، ولكنها سلكت بما أرسل إليها ذلك المسلك.

عاشت خمسين سنة، أو ثلاثاً وخمسين، ولما تزوجها رسول الله ﷺ كانت بنت خمس وثلاثين سنة.

ومعلوم مكانة عائشة رضي الله عنها عند رسول الله ﷺ ومع ذلك قالت عائشة: كانت زينب تساميني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، وما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب، ولا أتقى لله. ولا أصدق حديثاً، ولا أوصل للرحم، ولا أعظم صدقة من زينب وقالت عمرة: سمعت عائشة تقول: لقد ذهبت حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل.

في هذا الحديث الممتع نرى أثر تربية الرسول العظيم لزوجاته الطاهرات نراه جلياً في مسلك زينب رضي الله عنها: فقد وصفت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما السيدة الكريمة زينب رضي الله عنها بأنها كانت صوامة قوامه، أي تكثر من صيام النافلة ومن قيام الليل.

فلقد كانت تعمل وتكسب المال لا لتكثزه، ولا لتشتري به ما أحلّ الله من متاع الحياة الدنيا من الطعام الطيب، واللباس الفاخر، والمسكن الواسع الفخم، بل كانت تكسب ما تكسب لتنفقه على الفقراء والمساكين.

ولقد مرّ بنا أنّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أرسل إليها عطاءها، فأنفقته كله في سبيل الله ولم تبق لنفسها شيئاً، فلما علم بذلك عمر أرسل إليها ألفاً وطلب إليها أن تستبقها لحاجتها، ولكنها لم تفعل بل أنفقت هذه الألف أيضاً. إن كثيراً من العاملات اليوم ينفقن ما يكسبن في شراء الفساتين الحديثة والحلي الثمين وأدوات الزينة، ولا يذكرن الفقراء والمساكين من أرحامهنّ.

ولقد كانت بالإضافة إلى ذلك كله مثال الزوجة الصالحة.. فقد ورد في وصفها أنها كانت تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يسره منها ما يلقي من المعاملة رضي الله عنها وأرضاها، ووفق أخواتنا وبناتنا إلى الاقتداء بها وبأمثالها من الصحابيات الجليلات.

إنّ إبطال التبني الذي جاء به الإسلام هو إبطال للتزوير، وتقرير للحقيقة كما هي، وخطوة متقدمة في تحقيق الصدق الاجتماعي، ومحافظة على الأنساب، ودفع للعدوان عليها.

فكيف يقبل في منطق الاسلام الذي حرّم الكذب أن يُنسب الإنسان إلى غير أبيه؟

إنّ عادة التبني ظلم للأب الحقيقي، ومهانة للولد المتبنّى. جاء في صحيح البخاري ما يأتي:

[قال عبد الرحمن بن عوف لصهيب: اتق الله ولا تدّع إلى غير أبيك. فقال صهيب: ما يسرّني أن لي كذا وكذا وأنا قلت ذلك، ولكنني سُرقت وأنا صبي].^(١)

(١) رواه البخاري (٢٢١٩).



وبيان ذلك أَنَّ صهيباً كان يقول: إنه ابن سنان بن مالك بن عبد عمرو بن عقيل، ويسوق نسباً ينتهي إلى النمر بن قاسط، وأنَّ أمه من بني تميم، يقول ذلك وكان لسانه أعجمياً لأنه رُبِّي بين الروم فغلب عليه لسانهم. فظن عبد الرحمن أنه ينتسب إلى غير أبيه، فبين له أنه من العرب وأنه يحفظ نسبه، وأنه سرق وهو صبي يعي ويعلم. وقال: ما يسرني أن لي أموال الدنيا وأن أنتسب إلى غير أبي.

ويدو أنَّ عمر أيضاً أخذ عليه هذا قبل أن يوضح صهيب الأمر فقد روى الحاكم أنه قال عمر لصهيب: ما وجدت عليك في الإسلام إلا ثلاثة أشياء: اكتنيت أبا يحيى، وأنك لا تمسك شيئاً، وتدعي إلى النمر بن قاسط.

فقال صهيب: أما الكنية فإن رسول الله ﷺ كناني، وأما النفقة فإن الله يقول: ﴿وَمَا أَفْقَرُ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يَخْلُقُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. وأما النسب، فلو كنت من روثة لا نتسبُ إليها، ولكن كان العرب يسبي بعضهم بعضاً، فسباني ناس بعد أن عرفت مولدي وأهلي فباعوني، فأخذت بلسانهم يعني لسان الروم.^(١)

وإننا لنجد في الوقت الحاضر بعض الأسر التي لم ترزق بأولاد تعمد إلى أخذ ولد أو أكثر من اللقطاء الذين ألقاهم أهلهم في الطرقات أو على أبواب المساجد خشية الفضيحة، فيتبنونهم وينسبونهم إلى أنفسهم. وهذا زور من القول، وباطل من العمل وهو غير جائز.

وقد يكون هناك خلاف بين الزوجين ينتهي بالطلاق، فتذهب الزوجة مع أولادها إلى بيت أبيها، فينشأ الأولاد في كنف أخوالهم الذين ربّوهم ورعوهم، فيعرف هؤلاء الأولاد أنهم نشؤوا فيهم، ويشيع بين الناس نسبتهم إلى والد أمهم.

(١) "فتح الباري" ٤/٤١٣.

وهذا حرام أيضاً ولا بُدّ من أن ينسب كل ولد إلى أبيه. قال الله تعالى:
﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥].

○ وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليس من رجل ادّعى لغير أبيه وهو يعلم إلا كفر، ومن ادّعى ما ليس له فليس منا، وليتّبوا مقعده من النار». (١)

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر». (٢)

○ وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأبي بكرة رضي الله عنه كلاهما يقول: «من ادّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام». (٣)

○ وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ من أعظم الفري أن يدعى الرجل إلى غير أبيه، أو يُرى عينيه مالم تر، أو يقول على رسول الله مالم يقل». (٤)

وفي هذا التقرير الحكيم الذي جاء في الكتاب المجيد إكرام الوالد، وتشريف للولد حيث ينسب إلى أبيه الذي كان سبباً في وجوده.

وفي قصة إبطال تبني رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة توجيه للداعية وللمربي أن يكون فعلهما مطابقاً لقولهما فقد قضت إرادة الله في هذا الحكم الشرعي أن يكون إبطاله عملياً في متبني الرسول زيد.

(١) رواه البخاري (٣٥٠٨)، ومسلم (٦١) وهذا لفظ مسلم.

(٢) رواه مسلم (٦٢).

(٣) رواه مسلم (٦٣).

(٤) رواه البخاري (٣٥٠٩).



وهذا أمر يطيب لرسول الله ﷺ فقد ألفنا هذا منه صلوات الله وسلامه عليه فقد قال في خطبة الوداع: «إن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبدأ به دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب وأول ربا أبدأ به ربا عمي العباس».

وهكذا هنا: فإبطال التبني بدأ بإبطال تبني الرسول ﷺ لزيد وفي هذا درس تربوي للداعية والمربي فإذا دعا كل منهما إلى أمر يجب أن يكون هو أول من يفعل ذلك أمام من يدعوهم أو يريهم.

لقد كان هديه ﷺ سائراً على هذا المنوال، فقد كان ﷺ قدوة لمن يدعوهم وكان فعله معلماً لهم بلسان الحال إلى جانب لسان المقال.

نعم .. لقد كان هذا الأسلوب أسلوبه في تعليمه أمته الصلاة والحج وغيرهما فهو ﷺ يقول: «صلوا كما رأيتموني أصلي». ويقول: «خذوا عني مناسككم».

إنّ في ذلك لذكرى لرب الأسرة، فلا ينبغي له أن ينهي أولاده عن الكذب والتدخين مثلاً ويكذب ويدخن أمامهم، والكذب والتدخين كلاهما حرام في كل حال.



عيادة المريض

لقد ربّى رسولُ الله ﷺ أتباعه في شؤونهم كلها، صغيرها وكبيرها، وهذه التربية القديمة تجعل منهم - لو التزموا بها - أُمَّة متحابّة متعاونة على الخير، داعية إلى الحق والعدل، ناصرة للمظلوم، آخذة على يد الظالم.

ومن هذه الشؤون التي ربّى رسول الله ﷺ أمته عليها عيادة المريض.

كل إنسان معرّض للمرض، وما بعد الصحة إلّا المرض، والله درّ القائل:

أرى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

فإذا مرض المسلم سارع إليه أقرباؤه وأصدقاؤه يعودونه، ولم يتركوه يعاني

المرض وحيداً، سارعوا إلى عيادته امتثالاً لقول النبي ﷺ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ

السلام، وعيادة المريض، وأتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس»^(١).

وفي رواية لمسلم: ^(٢) «حق المسلم على المسلم ست».

قيل: وما هن يارسول الله؟

قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا

عطس فحمد الله فشمتّه، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه».

ولننظر إلى قول الرسول ﷺ: «حق المسلم على المسلم»، فأنت يا أخي إذا

عدت أخاك المريض فإنك تقوم بحق من حقوق أخيك عليك، ومع ذلك فقد

أعدّ الله لك الأجر الكبير الذي سنذكر ماورد فيه إن شاء الله.

(١) رواه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) (٤)، وأبو داود (٤٩٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢١٦٢) (٥)، وأبو داود (٤٩٤٤).



والمريض عندما يرى احتفاء الناس به وهو مريض، يدخل السرور عليه، وقد يكون هذا سبباً في شفائه .. ويشعر بوفاء أصدقائه وجيرانه له .. والوفاء صفة كريمة للمسلم .. والحياة بحقيقتها قائمة على المعاني السامية، والعواطف النبيلة أكثر من قيامها على الأمور المادية، والصور والمظاهر.

وهذه السنة النبوية ذات أثر كبير في توثيق أواصر الحب بين المسلمين، ذلك أن مشاركة المسلم لأخيه المسلم مآسيه تورث المودة وتحقق معنى الأخوة الذي قرر الله تبارك وتعالى في كتابه بقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن الأحاديث المرغبة في عيادة المريض ما رواه مسلم في صحيحه:

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَكَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا بَنَ آدَمَ! مَرَضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا بَنَ آدَمَ! اسْتَطَعَمْتُكَ فَلَمْ تَطْعَمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! كَيْفَ أَطْعَمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَطْعَمْهُ؟ أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا بَنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ! وَكَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ. أَمَّا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»^(١).

ما أحلى هذا الحوار، وما أروع .. إنه يحض العبد على القيام بهذه الأمور الاجتماعية الفاضلة من عيادة المرضى وإطعام الطعام وسقي الماء.

ولقد كان الجيل المثالي من الصحابة رضوان الله عليهم يحققون هذه المعاني ويتنافسون فيها ويتسابقون إليها.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٩).

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِماً؟». فقال أبو بكر: أنا.

فقال: «من أطعم منكم اليوم مسكيناً؟». فقال أبو بكر: أنا.

فقال: «من تبع منكم اليوم جنازة؟». فقال أبو بكر: أنا.

فقال: «من عاد منكم اليوم مريضاً؟». فقال أبو بكر: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة». (١)

وهكذا قرّر رسول الله ﷺ أن عيادة المرضى من الخصال التي تدخل صاحبها الجنة، وهكذا كان أصحاب محمد ﷺ يعملون، فإنّ أبا بكر رضي الله عنه في يوم واحد أطعم مسكيناً، وعاد مريضاً وتبع جنازة وكان مع ذلك صائماً.

ومما يحسن أن يفعله من يعود المريض أن يدعو له بالشفاء، والدعاء أمر مهم، ومن الدعاء المأثور أن يقول: «اللهم ربّ الناس. أذهب الباس. إشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً». (٢)

وللدعاء آثار ملموسة، ولا سيما إذا كان الداعي من الصالحين الذين لو أقسم أحدهم على الله لأبره.

أعرف أستاذاً من أساتذتي، كان يتألم من حصاة في الكلية، وثبت هذا بالتصوير أكثر من مرة، فدخل المستشفى يريد الخلاص منها .. وجهازه للعملية الجراحية ورأوا أن يعيدوا التصوير مرة أخرى، فإذا هم لا يرون حصاة ولا شيئاً منها، فأعادوه .. وخرج. فلما سئل عن هذا الأمر الذي أثار استغراب الأطباء قال: إنه الدعاء فتتها.

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٢١٣١).

(٢) رواه البخاري (٥٧٤٣) عن عائشة وعن أنس.



قال النووي: (١)

[قال صاحب الحاوي وغيره: يستحب أن يعمَّ بعيادته الصديق والعدو، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، لعموم الأحاديث .. وفي صحيح البخاري (٢) عن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعده عند رأسه فقال له: «أسلم». فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: أطع أبا القاسم. فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»].

المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ولا يسلمه، وهو مرآة أخيه يحوطه من ورائه، ويألم لما يصيبه كأنه هو المصاب، فهو يراعه دائماً ويتفقدده ويغيثه ويردّ عنه الغوائل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذا في الأحوال العادية، ويتضاعف الطلب إذا كان أخوه مريضاً، فيأتي إليه ويتلطف معه، ويسأله عن حاله، ويلمس بيده جبهته، ويسعى في مؤانسته بالحديث والتشجيع وتهوين الحال التي هو فيها، وتوسيع صدره بالأمل بالشفاء العاجل، ويعرض عليه خدماته بأن يأتي بالطبيب أو بالدواء، ويعرض عليه مساعدته في شؤون البيت التي لا يقضيها إلا الرجال من إحضار المؤونة ونحوها.

وعليه وعليه أن يوصي أهل المريض بخدمته والإحسان إليه، ويذكر لهم ما أعدَّ الله لمن يسعى في خدمة أخيه المسلم، قال ﷺ: «والله في عون المرء ما كان العبد في عون أخيه».

ومن المستحسن أن يأتي للمريض بما يحب إذا كان يناسبه طبيّاً، وأن يسأله - لا سيما إذا كان غريباً بعيداً عن أهله - إذا كان يشتهي شيئاً من الطعام فيأتيه به. ويحسن أن يذكر له من القصص ما يجعله ينسى ألمه.

(١) "المجموع" ١٠٠/٥.

(٢) رواه البخاري (١٣٥٦).

وعليه ألا يطيل الجلوس عنده حتى لا يضجر، لأن احتمال المريض قليل. ولا بُدَّ من أن يرجو أهل المريض العوَّادَ بالتخفيف، لا سيما إن كان حضر معهم رجل ثقل الظل يعرفون أنَّ مريضهم يضيق صدره منه.

ويستحبُّ أن يسأل أصحاب المريض وأصدقائه أهله عن صحته، إما بحضورهم إلى بيت المريض وإما بواسطة الهاتف؛ وينبغي أن يكون جواب الأهل مطمئناً، وأن يطلبوا من السائل الدعاء للمريض.

ففي صحيح البخاري أنَّ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا حسن! كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً.

إنَّ المجتمع الإسلامي مجتمع يمثل جسداً واحداً:

○ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».^(١)

يهتم المسلم بشأن إخوانه المسلمين، فإذا بلغه مرض أخ مسلم هو جار له أو صديق أو رجل تربطه به علاقة ما، فعليه أن يسأل عنه ويواسيه وأهله بما يستطيع. إنَّ هذا يؤكد المحبة بين المسلمين، فأقارب المريض يشكرون له هذا الاهتمام، والمريض إذا بلغه هذا السؤال شعر بأنه إنسان مهم يذكره الناس إذا غاب.

هذا ومما يتصل بعيادة المرضى الحديث عن المريض ..

فينبغي للمريض أن يحرص على تحسين خلقه، وأن يجتنب المخاصمة والمنازعة في أمور الدنيا.

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦)، وأحمد ٤ / ٢٧٠.



فبعضهم إذا مرض ساء خلقه وصار يشتم من حوله، ويتسخط قضاء الله. وهذا لا يليق بالمسلم. بل عليه أن يرضى بقضاء الله وقدره، وأن يعلم أنه ما بعد الصحة إلا المرض، وأن الله تبارك وتعالى بيده الشفاء فليدع الله.

وكذلك ينبغي أن يكون سمحاً في أموره المادية. وأن يستحل زوجته وأولاده وسائر أهله وجيرانه وأصدقائه وكل من كانت بينه وبينه معاملة، وأن يطلب منهم السماح، فلا بد أن تكون صدرت منه إساءة لبعضهم عن قصد أو عن غير قصد.

وكذلك فإن المطلوب منه أن يرى ذمته من الديون والحقوق التي عليه، فهو أحفظ من غيره بما عليه من ذلك. وما يدري المريض ولا السليم متى يكون أجله.

وعليه أن يكثر من الصدقات، فقد يكون بها الشفاء، فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «داووا مرضاكم بالصدقة». وهو حديث حسن.

وعليه ألا يضخم الأمر على نفسه وعلى أهله.. بل يطمئنهم بأن وضعه طيب ووضعهم مستقر، ولهذا أثر نفسي طيب على صحته أيضاً.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها».(١)

وروى البخاري عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا غم - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياها».(٢)

وروى أيضاً عن عبد الله رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ في مرضه وهو يوعك ووعكاً شديداً فقلت: إنك لتوعك ووعكاً شديداً - قلت -: إن ذاك بأن لك أجرين.

(١) رواه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).

(٢) رواه البخاري (٥٦٤١-٥٦٤٢).

قال: «أجل. ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ الله عنه خطاياها كما تحاتُّ ورق الشجر».

هذا وقد ذهب الإمام البخاري إلى وجوب عيادة المريض، فقد وضع العنوان الآتي: [باب وجوب عيادة المريض]^(١) وذكر فيه حديث أبي موسى: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العاني».

* * *

(١) وذكر البخاري [باب عيادة النساء للرجال]، و[باب عيادة الصبيان]، و[باب عيادة المشرك].



العائد في هبته

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس لنا مثل السوء: العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه»^(١).

وفي رواية للبخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه»^(٢).

وروى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كالكلب أكل حتى إذا شبع قاء ثم عاد فرجع في قيئه»^(٣).

توجيه تربوي كريم يبدأ بتقرير قاعدة شريفة أن المسلمين ليس لهم مثل السوء، ومن ارتضى لنفسه أن يكون له مثل السوء فقد ارتضى لنفسه غير أخلاق المسلمين.

الهبة والهدية بين الناس من أسباب توليد المودة، وسد الحاجة المادية؛ إذ ليس كل الناس يقبلون الصدقة أو الأخذ من الزكاة، فهناك فريق من الناس يأبون قبول الصدقة أو الزكاة حتى ولو كانوا في غاية الحاجة، يصبرون على القلة، وعلى الجوع، وعلى المستوى المتواضع في المسكن والملبس والمطعم ولا يمدّون أيديهم للناس يطلبون العون والمساعدة: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]. فالهبة إلى هؤلاء تودّد وعون وصون لكرامتهم وتوفير لحاجتهم.

(١) رواه البخاري (٢٦٢٢)، والترمذي (١٢٩٨)، والنسائي (٣٦٩٩)، وأحمد ١/ ٢١٨.

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٩).

(٣) رواه الترمذي (٢١٣١).

وهناك أناس كانوا أعزة في قومهم، فحلت بهم نوائب الزمان، فافتقروا بعد غنى، ولكنهم ظلّوا على ترفعهم وتعفّفهم، لا يشكون ولا يسألون الناس شيئاً مهماً كان وضعهم.

- إنّ هؤلاء وأولئك ينبغي أن يهتمّ بهم إخوانهم وجيرانهم .. إنّ على هؤلاء الإخوان والجيران أن يغتنموا المناسبات، ويقدموا لهم الهدايا التي تسدّ حاجتهم، وتصون ماء وجوههم .. هناك الأعياد .. وهناك مناسبات الفرح .. فيتقدم إليهم إخوانهم ويقدمون لهم في كل مرة هدية مجزئة بسبب هذه المناسبة أو ذاك العيد.
- وهناك رجال صالحون ميسورون ليسوا بحاجة إلى معونة .. والقرب منهم غنيمة وفلاح، والمرء العاقل الراغب في الخير يريد أن يوثق صلته بهم، وأن يوادهم .. ومن وسائل ذلك الهدية .. - فهو لذلك - يغتتم أيّ مناسبة ليقدّم إليهم هدية مناسبة تحقّق له مرادة.

وتوثيق المودة بين المسلمين، ولا سيما الصالحون منهم، أمرٌ دعا إليه الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة، منها الحديث الصحيح الجامع الجميل: يقول النبيّ الصادق المصدوق ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».(١)

ومنها قوله ﷺ: «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» وفي رواية: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».(٢)

إنّ المجتمع الإسلامي مجتمع المحبة والمودة والأخوة والتكافل والتعاون يقول رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد

(١) رواه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨).

(٢) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩)، والترمذي (٣٦٠٠).



الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).
 هذا وليس من المروءة أن يعود المؤمن في هبته .. فإذا أقدم امرؤ على هذه الخسة
 والدناءة فليعلم أنه سقط إلى دركٍ سحيق بعيد عن سمات المسلم الصادق.
 ولننظر إلى هذه الصورة المنفرة التي لا يرضاها لنفسه أحد يغار على كرامته
 وشرفه:

أولاً: فهو كالكلب!! ويالها من إهانة أن يكون في مستوى الكلاب.
 وثانياً: فهو كالكلب الذي أكل طعاماً ثم قاءه، ثم جعل يعود في قيئه يأكله.
 إنها صورة منفرة مقرفة. فهل يرضى امرؤ كريم أن تكون هذه صورته؟
 ولذا فقد نهى رسول الله ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشتري فرساً كان
 وهبه لإنسان .. وأراد ذلك الإنسان أن يبيعه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حملت على فرس في سبيل الله، فأضاعه الذي
 عنده - أي لم يكرمه بالإطعام والعناية به - فأردت أن أشتريه، وظننت أنه يبيعه
 برخص، فسألت النبي ﷺ فقال: «لا تشتريه، ولا تعد في صدقتك، وإن أعطاكه
 بدرهم، فإن العائد في صدقته كالعائد في قيئه»^(٢).

وهكذا فإن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يربي أمتة تربية
 سامية تقوم على مكارم الأخلاق وتترفع عن الدنيا، يقول ﷺ: «إنما بعثت
 لأتمم مكارم الأخلاق»^(٣).

ولقد نهى ﷺ عن كل خلق دنيء، وليس من شك في أن عودة المرء في هبته من
 الأخلاق الدنيئة الخسيسة. من أجل ذلك فلن تجد مسلماً كريم الخلق متمسك

(١) رواه مسلم (٢٥٨٦)، وأحمد ٤/ ٢٧٠، وروى البخاري (٦٠١١) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (٢٦٢٣)، ومسلم (١٦٢٠).

(٣) "السنن الكبرى" للبيهقي ١٠/ ١٩١.

بالفضائل الإسلامية يعود في هبته أبداً.

وقد فصلت كتب الفقه أحكام الهبة وبينت حكم عودة المرء في هبته وليس في هذا الموضوع استثناء إلا أن يهب الرجل ولده شيئاً.. ففي هذه الحالة فقط للوالد أن يعود في الهبة إن لم يتصرف الولد بما وهب له.

ولو نظرنا إلى في الحالة بتعمق لم نجد عودة الوالد عودة في الهبة، لأن مال الولد مال أبيه كما جاء في الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»^(١).

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يحل لأحد أن يعطي عطية فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده»^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عنه ﷺ أنه قال: «ليس لنا مثل السوء: العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه». رواه البخاري وغيره.

إن المسلمين ليس لهم مثل السوء، والعائد في هبته له مثل السوء.. إنه كالكلب الذي أكل حتى شبع ثم قاء ثم رجع يأكل قيئه.

إنه منظر قبيح أن ترى رجلاً يصنع هذا الصنيع.. يعتمد إلى قيئه فيتناوله. وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ: فهو يقرّر هذا التوجيه التربوي من خلال هذه

(١) رواه ابن ماجه (٢٢٩١)، والطبراني في "الكبير". والحديث بتمامه: عن جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله. إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك». في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات على شرط البخاري.

(٢) رواه أحمد ٢٣٧/١، وأبو داود (٣٥٣٩)، وابن ماجه (٢٣٧٧)، والنسائي (٣٧٠٣)، والترمذي (١٢٩٩ - ٢١٣٢). وقال الترمذي: (قال الشافعي: لا يحل لأحد أن يعطي عطية فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطي ولده واحتج الشافعي بحديث عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ).



الصورة الزاخرة الموحية المعبرة.

إنّ الشيطان قد يوسوس للمرء الذي أعطى أخاه المسلم شيئاً ثميناً ويقول له: لو أنّك احتفظت بهذا لأولادك ولأيام العسرة التي يمكن أن تحل بك لكان أحسن، فإن استجاب لتلك الوسوسة واسترجع ما أعطى سقط سقوطاً مريعاً.

وقد يعزم امرء على استرجاع هبته لحدوث اختلاف بينه وبين من أعطاه، وقيام خصومة حادة بينهما فيقول لنفسه: هذا الذي أحسنتُ إليه وأعطيته ظهر منه كذا وكذا. إنه لا يستحق تلك الهبة، ويعمل على أخذها واستردادها منه.

إنّ هذا الفعل لو حصل ينطوي على الأمور الآتية:

١- يدل على خسة هذا الإنسان ويسيء إلى سمعته عند الناس ويجلب له الاحتقار والذم.

٢- ويجعله كالكلب يعود في قيئه كما جاء في البيان النبوي البليغ.

٣- ويوجد الحزازات والعداوات بين المسلمين.

وكل هذه الأمور ينبغي الترفع عنها؛ لأنها لا تليق بالمسلم.

لقد حرّض رسول الله ﷺ على الهبة والهدية تحريضاً كبيراً؛ ذلك لأنّ الهدية توثق عرى المحبة والود بين المسلمين.

فقد أخرج أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تهادوا، فإنّ الهدية تذهب وَحَر الصدر»^(١) أي: تذهب الغِلّ والحقد.

وروى البخاري في الأدب المفرد أنه ﷺ قال: «تهادوا تحابوا». وهو حديث حسن.^(٢)

(١) رواه أحمد ٤٠٦/٢، والترمذي (٢١٣٠).

(٢) انظر "مختصر المقاصد الحسنة" للزرقاني (٣٢٨).

وقال ابن حجر في فتح الباري: ^(١) [وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «يا نساء المؤمنين. تهادوا ولو فرسن شاة فإنه ينبت المودة ويذهب الضغائن»].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا نساء المسلمين. لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة». ^(٢) أي: لا تمنع جارة من الهدية لجارتها لاستقلالها الموجود عندها، بل عليها أن تهدي ما تيسر وإن كان قليلاً كفرسن الشاة فهو خير من العدم. والفرسن من البعير كالحافر من الدابة، وربما استعير في الشاة.

فالقيل قد يسدّ حاجة كبيرة، والامتناع من تقديمه لقلته غلط؛ لأنه مهما كان شأنه فهو خير من العدم كما ذكرنا، وهذا مبني على أن المرء لا يجد شيئاً يقدمه إلا القليل. أما إذا كان موسراً فعلياً أن ينفق مما آتاه الله. وتكون هبته لجيرانه وأصدقائه مما يتناسب مع يسره وإمكاناته، وليذكر قول الله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وعلى المرء المهدي إليه أن يقبل ما يُقدّم إليه وأن يشكر المهدي ولا يردّ الهدية لضآلتها، فهذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت». رواه البخاري. ^(٣) والكراع في البقر والغنم كالوظيف في الفرس والبعير، وقيل: الكراع من الدواب ما دون الكعب. ^(٤)

(١) "فتح الباري" ١٩٨/٥.

(٢) رواه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠).

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨).

(٤) أنظر "مختار الصحاح".



فردّ الهدية أمر قبيح، وقد أخرج الطبراني من حديث أم حكيم الخزازية قالت: قلت: يا رسول الله. تكره ردّ الظلّف؟ قال ﷺ: «ما أقبحه! لو أهدي إليّ كراع لقبلت».

وردّها يكسر قلب المهدي، ويجعل في نفسه شيئاً على أخيه. لكن إذا كان هناك مانع شرعي أو طبّي من قبولها فليتلطف في الاعتذار.

روى البخاري بسنده^(١) إلى الصعب بن جثامة رضي الله عنه أنه أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء - أو بودّان - فردّه ﷺ عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «أما إنا لم نرده عليك إلا أنّا حُرّم».

فهذا الحديث يوجّه المسلمين توجيهاً اجتماعياً إلى الاعتذار للمهدي عن عدم إمكان قبول الهدية بذكر المانع، وكان هذا التوجيه بفعله ﷺ وهو الأسوة والقدوة؛ فقد اعتذر لمن قدم الهدية وهو أفضل الخلق وأشرف الرسل. إنّ ذلك الاعتذار يجبر خاطر المهدي ويوثق المودة ويزيل ما في نفسه.

وهناك أشياء يحسن أن لا يردّها الإنسان، منها الطيب؛ فقد جاء في صحيح البخاري أنّ أنساً رضي الله عنه كان لا يردّ الطيب قال: وزعم أنس أن النبي ﷺ كان لا يردّ الطيب.^(٢)

وأخرج الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «ثلاث لا ترد: الوسائد، والدهن، واللبن».^(٣) يعني بالدهن الطيب.

(١) رواه البخاري (٢٥٧٣).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٣).

(٣) رواه الترمذي (٢٧٩٠). قال ابن حجر في "فتح الباري" ٢٠٩/٥: وإسناده صحيح.

ومما يؤكد المودة ويثبتها بين المسلمين أن يكافئ المسلم من أهده؛ فقد أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها»^(١).

عن جابر بن سليم الهجيمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله. ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وأن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الإزار من المخيلة، ولا يُجبهها الله. وإن امرؤ شتمك وعيرك بأمر ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك. ولا تسبَّ أحدًا»^(٢) رواه الطيالسي وابن حبان وأحمد والبخاري وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد. وجابر رضي الله عنه مشهور بكنيته وهي أبو جري.

○ وفي رواية الطيالسي: عن جابر بن سليم قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب في بردة له كأني أنظر إلى أهدابها على قدميه فقلت: يا رسول الله. أوصني .. وذكر الحديث. قال: فما سببت بعد قول رسول الله ﷺ دابة ولا إنساناً.

○ وفي رواية أحمد: عن جابر بن سليم قال: أتيت النبي ﷺ فإذا هو جالس مع أصحابه فقلت: أيكم النبي ﷺ؟ قال: فإما أن يكون أوماً إلى نفسه، وإما أن يكون أشار إليه القوم. قال: فإذا هو محتب ببردة قد وقع هُذْبُها على قدميه، فقلت: أجفو عن أشياء، فعلمني. قال: فذكره.

(١) رواه الطيالسي (١٢٠٨)، وابن حبان ٢/ برقم: ٥٢١ و٥٢٢، وأحمد ٩٠/٦، والبخاري في "شرح السنة" (٣٥٠٤)، وانظر "سنن أبي داود" (٤٠٧٥ - ٤٠٨٤)، و"الأدب المفرد" (١١٨٢)، و"التاريخ الكبير" ٢/ ٢٠٦، و"السلسلة الصحيحة" (٧٧٠)، و"صحيح الجامع الصغير" (٩٨).

(٢) رواه البخاري (٢٥٨٣).



○ وعلق ابن حَبَّان على الحديث^(١) فقال: [قال أبو حاتم: الأمر بترك استحقار المعروف أمرٌ قصد به الإرشاد، والزجر عن إسبال الإزار زجرٌ حتم لعلّة معلومة وهي الخيلاء، فمتى عُدمت الخيلاء لم يكن بإسبال الإزار بأس، والزجر عن الشتيمة إذا شوتم المرء زجر عنه في ذلك الوقت وقبله وبعده، وإن لم يُشْتَمَ].
تضمن هذا الحديث الصحيح الشريف عدة توجيهات تربوية.
وكان أول هذه التوجيهات الأمر بتقوى الله، التي هي جماع كل خير كما سنين ذلك.

وكان التوجيه الثاني ألاّ يحقر المرء من المعروف شيئاً وإن قلّ، وذكر لهذا التوجيه النبوي مظهرين عمليين:

أولهما أن يفرغ المرء دلوّه في إناء المستسقي.

وثانيهما أن يلقى المرء أخاه ووجه إليه منبسط.

وكان التوجيه الثالث الحذر من الكبر ومظاهره.

وكان التوجيه الرابع الوصية بالحلم والصفح عن المسيء والترفع عن النزول إلى مستوى الشتم والسباب.

وهذه التوجيهات جاءت بعد طلب من الصحابي جابر بن سُلَيم، فلما سمعها التزم بها وقال: فما سببت بعد قول رسول الله ﷺ دابة ولا إنساناً.

* * *

(١) ابن حَبَّان ٢/٢٨٢.

التقوى

ولنشرح هذه التوجيهات النبوية التربوية:

كان أول هذه التوجيهات الوصية بالتقوى. والتقوى هي جماع كل خير، ومن تحلى بها كان على مستوى عالٍ جداً من التربية الخيرة.

من أجل ذلك كان الأمر بها كثيراً جداً في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، والتقوى سبب من أسباب استقرار الأمن وتحقيق السعادة للناس في الدنيا، وهي سبب لدخول الجنة، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والترمذي وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ: ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله وحسن الخلق.

قال ابن رجب: (١)

[فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده؛ فإنَّ حقَّ الله على عباده أن يتقوه حقَّ تقاته. والتقوى وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقايةً تقيه منه.

فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه].

والآيات والأحاديث الحاثّة على التقوى كثيرة، ويحسن أن نذكر طرفاً منها: يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦] أي: اتقوا الله فالمرجع إليه.

(١) "جامع العلوم والحكم" ٣٩٨/١.



ويقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

وصفات المتقين مبينة في كتاب الله في مواضع منها ما جاء في مطلع سورة البقرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ رَبُّهُمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَا أَلْأَخِرَةَ هُمْ يُؤْفِقُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١-٥].

ومنها ما جاء في سورة آل عمران؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِيَةِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٥].

ويدخل في التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات، وهو أعلى درجات التقوى.

قال ابن مسعود رضي الله عنه في شرح قوله تعالى ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر.

ولا بد لمن يريد أن يتقي الله من العلم بالحلال والحرام.

قال بكر بن خنيس: [كيف يكون متقياً مَنْ لا يدرى ما يتقي].

وقال معروف الكرخي: (١) [إذا كنت لا تحسن تتقي أكلت الربا .. وإذا كنت لا تحسن تتقي لقيتك امرأة فلم تغض بصرك].

واستعمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً على سرية فقال له: [أوصيك بتقوى الله الذي لا بد لك من لقاءه، ولا منتهى لك دزنه، وهو يملك الدنيا والآخرة]. (٢)
وعاقبة التقوى الفلاح في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وأما في الآخرة فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، وقوله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠-٣١].

وكتب ابن السماك إلى أخ له: [أما بعد أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيتك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حالك في ليلك ونهارك. وخف الله بقدر قربه منك، وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرک، وليكثر منه وجلک. والسلام]. (٣)

والوصية الثانية التي تضمنها حديث جابر بن سليم رضي الله عنه: أن لا يحقر المسلم شيئاً

(١) "جامع العلوم والحكم" ٤٠٢/١

(٢) "جامع العلوم والحكم" ٤٠٦/١

(٣) "جامع العلوم والحكم" ٤٠٨/١



من المعروف ولو كان هذا الشيء قليلاً، فيمتنع عن تقديمه أو قبوله.

هناك مثل عند العوام^(١) يقولون بما معناه: إذا أردت أن تعمل معروفاً فليكن هذا المعروف مجزئاً وكبيراً في نظر الناس وإلا فكف عن العمل. وهذا القول غير صحيح.

إنَّ القلة والكثرة أمر اعتباري تتفاوت تقديرات الناس فيه، فقد يكون ما تعدُّه قليلاً في نظرك يكون شيئاً كبيراً عند المحتاج والمضطّر. وقد يكون ما تعدّه كبيراً في نظرك يكون شيئاً صغيراً عند الآخرين.

ولو أنَّ الناس جميعاً امتنعوا عن فعل المعروف القليل لذهب خير كثير، وكان في الأمة ضرر كبير. إنَّ التعاون والتكافل وفعل المعروف، وإثابة الملهوف، وسدَّ حاجة المحتاج، أمور يحضُّ عليها الشرع المطهر ويأمر بها المسلمين مع مراعاة المبدأ الإسلامي الرحيم العظيم وهو: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ﴿لِيُفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وفي الأحاديث النبوية ذكر لعدد من نماذج احتقار بعض الناس لأنواع من المعروف سنورد بعضها فيما يأتي وغيرها كثير.

فمن ذلك قوله ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة»^(٢). من حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة،

(١) وهو من الأمثال العامة: (يا افتح بابك وافتخر، يا سكره وانستر).

(٢) رواه مسلم (١٠٠٧).

ويميط الأذى عن الطريق صدقة، ودُلَّ الطريق صدقة.

وأخرج مسلم^(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِينَ وَثَلَاثًا مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمَدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجْرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مَنكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِينَ وَالثَّلَاثَةِ السَّلَامِي فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ».

وقد ذكر هذا الحديث بروياته المختلفة عدداً من الصدقات والقربات لا ينتبه عليها كثير من الناس، مع أنها لا تأخذ من فاعلها جهداً ولا مالاً وهي:

١- الإصلاح بين الناس بالعدل، وهذا أمر من أعظم الأمور، وينبغي لصاحب الجاه والكلمة المسموعة أن لا يتأخر عن ذلك ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

٢- إعانة الرجل على دابته فيحمله عليها أو يرفع عليها متاعه، والدابة الأكثر استعمالاً هذه الأيام السيارة، فعلى المسلم أن يساعد أخاه في إصلاح دولاب ثقب، أو إصلاح سلك انقطع، أو إصلاح عطب في السيارة يقوى الإنسان عليه، لاسيما إذا كان في طريق دولي، وكان معه نساء وأطفال.

٣- والكلمة الطيبة يسرُّ بها المسلم أخاه المسلم، فلا يزهّد أحدٌ في ذكر الكلمة الحلوة لمن يلاقي ويعاشر، كالتحية، والسؤال عن الصحة، والدعاء بالشفاء والنجاح والتوفيق، والتهنئة لمن كانت عنده مناسبة سارة، والتعزية لمن أصيب بمصيبة.

٤- والخطوة يمشيها المسلم إلى الصلاة صدقة.

٥- والدلالة على الطريق بدقة ووضوح صدقة.

(١) رواه مسلم (١٠٠٧)، و"جامع العلوم والحكم" ٤٠٨/١.



٦- وإمالة الأذى عن الطريق صدقة؛ كرفع الحجر أو الشوكة أو العظم عن طريق المسلمين صدقة، بل إن رسول الله ﷺ جعلها من شعب الإيمان، وهذا يدعونا إلى أن ننبه إخواننا المسلمين على أن لا يضعوا قمامات أو عقبات أو أشياء ضارة كقشر الموز أو المسامير أو قطع الزجاج ونحو ذلك في طريق إخوانهم المسلمين.^(١)

٧- والذكر بأنواعه من التكبير والتحميد والتهليل والاستغفار، كل أولئك من الصدقات وهي يسيرة.

٨- والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك من الصدقات التي ينبغي أن لا نهون من شأنها.

٩- وسقى الكلب العطشان سبب لمغفرة الله لمن فعل ذلك. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد به العطش، فوجد بئراً فنزل فيها وشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني. فنزل البئر فملاً خُفّه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».^(٢)

١٠- ومن ذلك حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا طبخ أحدكم قدره فليكثر من مرقها ثم ليناول جيرانه». وهو حديث صحيح رواه الطبراني في المعجم الصغير، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف هذا الحديث عن جابر بلفظ: «إذا طبختم اللحم فأكثرُوا المرق فإنه أوسع وأبلغ للجيران».^(٣)

(١) وانظر في إمالة الأذى "الترغيب والترهيب" ٢٤٨/٣.

(٢) رواه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٣) "صحيح الجامع الصغير" (٦٧٦-٦٧٧)، و"السلسلة الصحيحة" (١٣٦٨).

١١ - ومن ذلك حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا النار ولو بشق تمره فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(١). فانظروا يا أخي هذا المعروف اليسير يقي من النار. [ولو ذهبنا نحقق هذا الواقع لوجدنا أن نسبة الذين يستطيعون بهذا القليل نسبة عالية وربما اجتمع لدى الفقير والمحتاج من الصدقات القليلة التي تقدم إليه ما يغني حاجته ويسد جوعته ويحل أزمته، والقطرات المتعددة تملأ الإناء الواسع].^(٢)

١٢ - ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة». رواه البخاري ومسلم.^(٣)

ومن ذلك الحديث الذي نحن بصدد دراسته وفيه قوله ﷺ أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي. إذا كنت على بئر وقد استسقيت، وجاء رجل بإنائه يريد الماء فأفرغت من دلوك في إنائه فعلت معروفاً يسيراً يبلغك رضوان الله، يبلغك رضوان الله، فلا تحتقرن ذلك.

١٣ - ومن ذلك أيضاً - في الحديث نفسه - قوله ﷺ: «أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسطة»^(٤). وهذه الخصلة الكريمة لا يراها كثير من الناس، تراهم دائماً عابسين مقطعين.. لماذا هذا العبوس والتقطيب.. ومعلوم أن الرجل العبوس ينفر الناس منه ويكرهونه ولا يتعاملون معه إلا مكرهين. إن الوسيم إذا عبس وتجهّم ذهب سامته وحلّ مكانها القبح، وإذا الرجل قبيحاً فإن عبوسه

(١) رواه البخاري (٣٥٩٥)، ومسلم (١٠١٦)، وأحمد ٢٥٦/٤.

(٢) "التصوير الفني في الحديث النبوي" ص ٣٢٩.

(٣) رواه البخاري (٢٥٦٦)، ومسلم (١٠٣٠)، وأحمد ٢٦٤/٢.

(٤) انظر في طلاقة الوجه "الترغيب والترهيب" ١٨٢/٣.



يزيد القبح قبحاً.

والعبوس - في الغالب - صنيع المتكبرين أو المتخلفين المعقدين الذين ليسوا بأسوياء. فعليك يا أخي أن تحاول أن تكون ضحوكا مبتسماً، وأن يكون وجهك منبسطاً لإخوانك المسلمين. إنَّ هذا يكسبك ثواب الله ومحبة الناس. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ المؤمن إذا لقي المؤمن فسلم عليه وأخذ بيده فتصافحا تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر».^(١)

إنَّ النهي عن استحقار المعروف، والحضّ على تقديم ما يستطيع المرء .. يضمن استمرار فعل الخير والجلود بالعطاء، ويحقق النفع للآخرين، ويؤكد المودة بين الناس.

روى البخاري ومسلم^(٢) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان لرسول الله ﷺ حصير، وكان يحتج به بالليل فيصلّي عليه، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ يصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال: «يا أيها الناس. خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإنَّ الله لا يملّ حتى تملّوا، وإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ».

وفي رواية للبخاري:^(٣) صنعوا ذلك ليلتين أو ثلاثاً حتى إذا كان بعد ذلك جلس رسول الله ﷺ فلم يخرج، فلما أصبح ذكر ذلك الناس فقال: «إني خشيت أن تكتب عليكم صلاة الليل». وفي رواية له:^(٤) «فإنه لم يخف عليّ مكانكم لكني خشيت

(١) رواه الطبراني في "المعجم الأوسط" ٨٤/١. قال المنذري في "الترغيب والترهيب" ١٨٨/٣: [ورواته لا أعلم فيهم مجروحاً].

(٢) رواه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢).

(٣) رواه البخاري (٧٢٩).

(٤) رواه البخاري (٩٢٤).

خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها». وفي رواية له^(١): وذلك في رمضان.

إنَّ هذا الحديث العظيم ليدل على رافة النبي ﷺ بأمته، ولقد خشي ﷺ أن تفرض عليهم فيعجزوا؛ ذلك لأنَّ الإنسان لا يقوى على الاستمرار إذا كلف نفسه فوق طاقتها. أما إذا عمل وفق طاقته ولم يمتنع عن إعطاء ما يستطيع وإن كان قليلاً أفلح ونال رضى الله وكسب محبة الناس.

هذا وإن إعطاء القليل دليل على فضل الإنسان ورغبته في الخير .. فلا ينبغي له أن يستحي من كون عطائه قليلاً، ولا أن يمتنع عن فعل الخير.

إنَّ الله تبارك وتعالى يُنمي الصدقة القليلة حتى تكون مثل الجبل. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإنَّ الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلؤه حتى يكون مثل الجبل»^(٢).

[إنَّ الصدقة اليسيرة التي تساوي عدل تمرة من كسب طيب يقبلها الله بيمينه، وإنه لإكرام للمتصدق .. فهذه الصدقة القليلة يقبلها الله تبارك وتعالى بيمينه ثم يربها وينميتها لصاحبها كما يربي أحدكم فلؤه، والعرب تعنى بالخیل عناية كبرى حتى إنهم ليسقونها اللبن، ولا يركبونها في الأسفار ولا في الذهاب إلى الحروب، ويدخرونها للمعارك والكرّ والفرّ والغارة، وقد نطقت بذلك أشعارهم، وما يزال ربنا تبارك وتعالى حتى تكون الجبل، وإنَّ انتقال الخيال من رؤية الصدقة وهي تمرة إلى رؤيتها مثل الجبل ليُقف الإنسان على عظيم الأجر الذي يكون للمتصدق، ويبعث على الصدقة، وعلى ألا يمتنع المرء من الصدقة لقلتها]^(٣).

(١) رواه البخاري (١١٢٩).

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)، والترمذي (٦٦١)، وابن ماجه (١٨٤٢).

(٣) "التصوير الفني في الحديث النبوي" ص ٣٢٩.



والقليل لا يضيع عند الله والله يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾
[الزلزلة: ٧]. والقليل أعون على الاستمرار.

عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: (ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر
صلاته وهو جالس، وكان أحب العمل إليه ما داوم عليه صاحبه وإن كان يسيراً).^(١)

* * *

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٣٧)، وأحمد ٦/ ٣٢٢، وابن حبان في صحيحه (٢٥٠٧).

التكبر

ومن التوجيهات التربوية السامية في حديث جابر بن سليم الهجيمي رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: «وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة، ولا يحبها الله». وهذا التوجيه الكريم يتصل بالتحذير من التكبر، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم مظهراً من مظاهر التكبر وهو إسبال الإزار، وللتكبر مظاهر أخرى كثيرة سنذكر بعضها فيما يأتي.

والأحاديث الواردة في النهي عن إسبال الإزار كثيرة،^(١) وكلها تربط ذلك بالتكبر كما في هذا الحديث إذ يقول صلى الله عليه وسلم: «فإن إسبال الإزار من المخيلة، ولا يحبها الله».

- فمن ذلك ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خيلاء».^(٢)
- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة». فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله إن إزاري يسترخي إلا أن أتعاهده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنك لست ممن يفعل خيلاء».^(٣)
- ومن مظاهر التكبر المشية المتبخرة التي يكرها الله تعالى، وهي مشية الخيلاء.

(١) انظر "الترغيب والترهيب" ٣/ ٣٠ و ٢٣٠.

(٢) رواه مالك ٢/ ٩١٤، والبخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥)، والترمذي (١٧٣٠)، وأبو داود (٤٠٨٥ - ٤٠٩٤)، والنسائي (٥٣٣٥)، وابن ماجه (٣٥٦٩).

(٣) رواه البخاري (٣٦٦٥)، ومسلم (٢٠٨٥) ولفظ مسلم: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنيّ هاتين يقول: «من جرّ إزاره لا يريد بذلك إلا المخيلة فإن الله لا ينظر إليه يوم القيامة».



رأى مطرف بن عبد الله بن الشخير المهلب وهو يتبختر في جبة خز فقال: (يا عبدالله هذه مشية يبغضها الله ورسوله). فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بينهما تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته تلك.^(١)

- ومن مظاهره عدم إلقاء السلام على من يلقي من المسلمين في الطريق أو في مجلس عام وقد لا يرد السلام.
 - ومن مظاهره أن يستنكف أن يجلس إلى جانب واحد من المسلمين الفقراء. كان أحد العلماء الكبار في مجلس، وكان يجلس إلى جانبه رجل، ف شعر هذا الرجل أنه بجلوسه يضايقه، فتنحى عنه قليلاً، فأخذ العالم بشيابه وجره إليه وقال: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف منكم رجلاً شراً مني؟^(٢)
 - ومن مظاهره التكلم باستعلاء وتفاجر، والتكلف في الصوت والاختصار في الكلام ترفعاً حيناً، والتفصيل في الكلام افتخاراً حيناً آخر.
 - ومن مظاهره تصغير المتكبر خدّه للناس، وإعراضه عنهم وعدم الإصغاء إلى كلامهم.
 - ومن مظاهره أن المتكبر لا يزور أحداً تكبراً.. وغير ذلك.
- والتكبر^(٣) يكون في القلب، وهو خلق باطن له مظاهر ذكرنا بعضها، وتصدر عن هذا الخلق الذميم أعمال قبيحة، تجلب له الاحتقار في الدنيا، والهلاك في الآخرة.

(١) "أقوال مأثورة" ٢/ ٢٥٩ عن "الإحياء" ٣/ ٣٣٠.

(٢) "مختصر مناهج القاصدين" ص ٢٤٠.

(٣) انظر بحثاً كتبته عن التكبر في كتابي "من هدي النبوة".

وقد عرفه رسول الله في الحديث الصحيح: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة. قال ﷺ: «إن الله يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١).

ويصدر عن التكبر أمور محظورة شرعاً:

- فمنها أن يرى المتكبر نفسه فوق كثير من الناس. وهذا يجز عليه الإثم، والخيبة، والاحتقار، والغرور. والغرور قتال.
- ومنها أن يحتقر المتكبر من دونه في نظره وأن يزدريهم .. لأنه ينظر إلى نفسه بعين الاستعظام .. فيقع في منزلة من الشر كبيرة.
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»^(٢).
- ومنها أن يحمل المتكبر على الحقد والحسد والغضب والانفعال .. وهذه أمور ذميمة محظورة في دين الله .. وتفتك بصاحبها وتنغص عيشه.
- ومن أسوأ أنواع الكبر التكبر بالعبادة والطاعة والعلم، فترى العالم المتكبر ينظر إلى كثير من الناس نظرة ازدراء واحتقار لأنهم لا يعلمون ما يعلم، وتراه عندما يخالط الناس كأنه معرض عنهم، وترى العابد المتكبر كذلك ينظر إلى كثير من الناس نظرة استخفاف واحتقار لأنهم لم يبلغوا مبلغه من العبادة.

(١) رواه مسلم (٩١)، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي (١٩٩٩)، وابن ماجه (٥٩ - ١٧٣٤).

وبطر الحق: دفعه ورده على قائله. وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).



ووقفه أمام الحديث الذي أوردته آنفا وهو قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». تبصرنا هذه الوقفة أن كثير من الناس في خطر عظيم بالنسبة إلى موضوع التكبر .. وإذا كان كذلك فعلينا أن نراقب أنفسنا وننهاها عن غيها، فلا ننظر إلى أحد من المسلمين نظرة امتنان ووزارة، لأنه لا يدرينا ماذا يعمل هذا الرجل من الأعمال الصالحة، فربما يكون عند الله خيراً منا، والأمور بخواتيمها، «ورب أشعث أغبر مدفوع الأبواب لو أقسم على الله لأبره»^(١).

ثم علينا أن نربي أولادنا ونساءنا وتلاميذنا على تجنب الكبر في كل حين وأن نربهم على التواضع. فإن الوضع القائم في هذا الشأن في مجتمعات الناس فيه تقصير كبير. ترى الطفل يتصرف أحياناً تصرفات مسيئة للآخرين، فإذا نُهي عنها قال: أنا من القبيلة الفلانية والأسرة الفلانية، أو البلد الفلاني وهذا تكبر.

فيجب علينا رجالاً ونساء أن نربي أولادنا بنين وبنات ومن يكون في ولايتنا على تجنب التكبر وعلى التحلي بالتواضع على ضوء الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

إن التكبر يقود المرء إلى الهلاك والإعراض عن الحق، فالآيات القرآنية والآيات الكونية اللتان تدل كل منهما على وجود الله ووحدانيته، وقدرته وتدبيره وإحكام صنعه، وعلى صفاته الحسنى، يُصرف عنها المتكبرون، ولا يرون سبيلاً جديراً بالاتباع إلا سبيل الغي والضلال، أما سبيل الرشد فلا يتخذونه سبيلاً. إنهم لما

(١) رواه مسلم (٢٦٢٢).

تكبروا منع الله عنهم فهم الحجج والأدلة على عظمة الله وشريعته وأحكام هذه الشريعة كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

○ وقال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤]. لقد قاده الاستكبار إلى المعصية والكفر، وقد بين إبليس سبب هذا الإباء والاستكبار وذلك كما جاء في آية الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ١١ ﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ١٢ ﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١-١٣].

لقد كان التكبر سبب وقوع إبليس في المعصية والكفر، وسببت طرده من الجنة ولحوق اللعنة به إلى يوم القيامة. ومن هنا قرر العلماء أن المعصية التي تكون بسبب التكبر أسوء من المعصية التي تكون بسبب الشهوة.

إبليس عصي ربه بسبب التكبر وأبى السجود فكان من الصاغرين الملعونين. وآدم عصي ربه بسبب الشهوة فأكل من الشجرة، ثم تاب فتاب الله عليه.

قال سفيان بن عيينة رحمته الله: مَنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي شَهْوَةٍ فَارْجُ لَهُ التَّوْبَةُ، فَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَى مُشْتَهِيًا فَغُفِرَ لَهُ، وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي كِبَرٍ فَاخْشَ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ عَصَى مُسْتَكْبِرًا فَلُعِنَ. ^(١)

○ وجهنم مشوى للمتكبرين قال الله تعالى: ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَيُشْأَلُ مَتَى أَلْمَتَ كَيْرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢].

(١) "مختصر مناهج القاصدين" ص ٢٣٦، و"سير أعلام النبلاء" ٤٠٦/٨، وانظر كتابنا "من هدي النبوة" ص ٤٧٦.



○ والله لا يحب المستكبرين قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

ومن أسباب دخول الجنة البراءة من التكبر؛ فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو بريء من الكبر والغلول والدين دخل الجنة». (١)

والمتكبرون من أبغض الناس إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ، وَالتَّشْدُقُونَ، وَالتَّمْفِيهُقُونَ». (٢) قالوا: يارسول الله. قد علمنا الثرثارين والمتشدقين، فما التمفيقهون؟ قال: «المتكبرون». (٣)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر: (أيها الناس تواضعوا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من تواضع لله رفعه»، وقال: (انتعش نعشك الله. فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير. ومن تكبر قصمه الله. وقال: اخسأ، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير). (٤)

○ إِنَّ التكبر نقيصة من أقذر النقائص في الإنسان، والتكبر يدل على نقص في عقل المتكبر؛ إذ يسلك سبيلاً يؤدي به إلى عكس مطلوبه فهو يتطلع إلى إحراز

(١) رواه الترمذي (١٥٧٢)، وابن ماجه (٢٤١٢)، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٢) قال الترمذي: الثرثار هو كثير الكلام. والمتشدد: هو الذي يتناول على الناس في الكلام. وقال المنذري: هو المتكلم بملء شذقيه تفاصيا وتعاظما واستعلاء على غيره، وهو معنى المتفيهق أيضاً.

(٣) رواه الترمذي (٢٠١٨)، وأحمد ٤/ ١٩٣، والطبراني، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي ثعلبة.

(٤) "الزهد" لأبي داود ٨٥/ ١.

احترام النَّاس له وتعظيمهم إياه، ولكن هذا السلوك يؤدي به إلى احتقار النَّاس له، وقد قرأنا في كتب الأخلاق أن المتكبر كالرجل الواقف في أعلى قمة الجبل، فهو يرى النَّاس صغاراً، وهم يرونه كذلك صغيراً.

○ وغالباً ما يكون في المتكبر نقص، فهو يحاول أن يستر نقصه بالتكبر. قال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قل أو كثر. (١)

○ ولا بد لمن أراد البعد عن التكبر وأراد الاتصاف بالتواضع أن يحرص على كرامته فلا يحملة التحلي بالتواضع على أن يرضى بالمهانة والذلة، فالمسلم لا يذل أبداً مهما كان حاله. قال عليه السلام: «طوبى لمن تواضع في غير منقصة». (٢)

○ ومن تواضع رفعه الله. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وانظروا إلى هذا الحديث الذي سبق أن أوردته وهو قوله عليه السلام: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

وإنه لمخيف لمن تدبره .. كما يقع من انتقاص لمسلم وتكبر عليه .. ألا يقع كثير من الناس في هذا الخلق الذميم .. ألا فلنحذر التكبر من أن يكون في قلوبنا، ولنحذر من مظاهره .. والله لا يجب المخيلة.

(١) "أقول مأثورة" ٢/ ٢٥٩.

(٢) أوردته المنذري ٣/ ٢٣٠ وقال: رواه الطبراني ورواته إلى نصيح ثقات، وقد حسن هذا الحديث أبو عمرو النمرى. وركب قال البغوي: لا أدري سمع من النبي أم لا. وقال ابن منده: لا نعرف له صحة. وذكر عندها أن له صحة ولا أعرف له غير هذا الحديث.



ولو نظر الإنسان إلى نفسه بعين الإنصاف أنه لا ينبغي له أن يتكبر أبداً، فأوله نطفة خرجت من مخرج البول. قال الأحنف بن قيس: عجبت لابن آدم يتكبر وقد جرى من مجرى البول مرتين.^(١) وهو ضعيف، ولولا أن هياً الله له أبوين يعطفان عليه ويلبسانه ويرضعانه ويتعهدانه لمات سريعاً.

نعم .. وهو ضعيف عندما يكبر ويقوى؛ فجرثومة أو فايروس لا يرى يهلكه ويجعله أثراً بعد عين.

ثم لو أبصر عاقبة أمره بعد الحياة الدنيا، وحاله في موقف الحساب عندما يُسأل ويواجهه بكتابه ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ كَوَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

إن العوامل التي كانت تغريه بالتكبر تذهب في ذاك اليوم فلا المال نفعه، ولا السلطان نصره، ولا النسب أفاده، ولا القوة أغنت عنه، ولا العلم أنجاه .. إذاً علام يتكبر على أمور لا تبقى ﴿فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۖ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةُ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

والتكبر يسد على نفسه باب التعلم، فهو لا يسأل عن أمر من أمور

العلم؛ لثلا ينكشف أنه جاهل، ويسد على نفسه باب الانتفاع بالموعظة؛ لأنه في ظنه أنه خير ممن يقدم له الموعظة وأعلم منه. والناس مهما أوتوا من العلم فهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً.

* * *

(١) "أقوال مأثورة" ٢/ ٢٥٩ عن "إحياء علوم الدين" ٣/ ٣٢٩، و"شرح نهج البلاغة" ٧/ ١١.

حسن الخلق

ومن التوجيهات التربوية في حديث جابر بن سليم الهجيمي رضي الله عنه قوله ﷺ:
«... وإن أمرء شتمك وعيّرَكَ بأمر ليس هو فيك فلا تعيّرهُ بأمر هو فيه ودعه، يكون وبالهِ عليه وأجرهُ لك، ولا تسبَّ أحدًا».

إنّ هذه الوصايا النبوية الكريمة توجيهات تربوية محكمة، وهي كلها تندرج تحت عنوان (حسن الخلق). وقد دعا كتاب الله وسنة رسوله إلى التخلق بالأخلاق الحسنة، والترفع عن المستويات الهابطة في المعاملة والسلوك، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة:

○ فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم.

○ ولما أنزل الله ﷻ على نبيه الآية: ﴿حُذِرَ الْعَفْوَ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. قال ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. (١)

○ وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كرم المؤمن دينه، وحسبه حسن خلقه. (٢)

○ وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير الآية. وقال الحافظ العراقي ٤٨/٣: [رواه ابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان].

(٢) "إحياء علوم الدين" ٤٩/٣.



المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.^(١)

○ وقال الحسن البصري: حسن الخلق بسط الوجه، وبذل الندى، وكفّ الأذى.^(٢)

يقول الرسول ﷺ: «وإن امرء شتمك وعيرك بأمر ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه».

في الناس سفهاء، ولا تنطق ألسنتهم إلا بالسوء، فهم يشتمون الناس، ويعيرونهم بأمور ليست فيهم، يعمدون إلى الكذب والافتراء.. فإذا عرض لك واحد من هؤلاء بذلك فلا تنزل إلى مستواهم.

إذا شتمك هذا الكذاب السفيف المفتري فلا تشتمه، وإذا عيرك بأمر ليس هو فيك، وأنت تعرف فيه أموراً خسيئة سيئة فلا تعيره بها، وترفع عن مستوى ذاك السفيف الكذاب.

إنك إن أعرضت عنه وترفعت عن مستواه كان الوبال عليه وحده، وكان لك أجر المسلم الصابر العف اللسان.

إن المسلم ليس بالشتام ولا السبّاب.. لا يسبّ إنساناً بعينه ولا دابة ولا شجرة ولا شيئاً من الأشياء.. إن لسانه عفّ نظيف، لا يؤذي أحداً من الناس.

○ وإنه ليؤسفني أنّ فريقاً من الناس رضوا لأنفسهم أن يكونوا من المخالفين لهذا الخلق الإسلامي الكريم، فأطلقوا لألسنتهم العنان يسبون ويشتمون ويعيرون، ونسوا أنهم مسؤولون عما تقوله ألسنتهم، وأن كلامهم مسجل ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ [ق: ١٨].

(١) "إحياء علوم الدين" ٥٢ / ٣.

(٢) "إحياء علوم الدين" ٥٢ / ٣.

- إن هؤلاء وأمثالهم ينبغي أن يسمعوها هذه الوصية النبوية التربوية .. إنهم بذلك ينجون من الوبال والإثم، ويكون الإثم كله على المعتدين.
- هذا وإن الذي يجاري السفه فيرد عليه الشتيمة ويعيره يكون قد نزل إلى المستوى المنحدر وسقط السقوط الذريع، والله درّ أبي تمام حيث يقول:
- إذا جاريت في خلق ذنباً فأنت ومن تجاربه سواء
رأيت الحرّ يجتنب المخازي ويحميه عن الغدر الوفاء
وما من شدة إلا سيأتي لها من بعد شدتها رخاء
- والكلمة السيئة تتبعها كلمات، وفي المثل: (من لم يصبر على كلمة سمع كلمات).
- وماذا تصنع الشتائم؟ .. إنها في كثير من الأحيان سلاح العاجز على نحو ما جاء في المثل العربي: (أوسعتهم شتماً وأودوا بالإبل) قالها شاب كان يرعى الإبل، فمرّ لصوص فاستاقوا الإبل ومضوا بها، فلما بعدوا سبّهم.
- والشتائم بعد ذلك تربي العداوة بين أفراد الأمة الواحدة .. وقد تؤدي إلى جريمة .. فكم من أرواح أزهقت بسبب شتيمة.
- ومن أجل ذلك فقد عظم رسول الله ﷺ أمر الشتم واللعن فجعل لعن المؤمن كقتله: فعن ثابت بن الضحاك الأنصاري رضي الله عنه - وهو من أهل بيعة الرضوان - قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر فيما لا يملكه، ولعن المؤمن كقتله»^(١).
- واللعانون لا يكونون شفعاء يوم القيامة: فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) رواه البخاري (٦٠٤٧)، ومسلم (١١٠).



الله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة».(١)

ويقرر رسول الله ﷺ أنه ليس من صفات المسلم أن يكون طعاناً في الآخرين، ولا لعاناً لهم، ولا بذيء اللسان: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحشن ولا البذيء».(٢)

بل إن رسول الله ﷺ نهى عن لعن الدواب كالناقة والديك، ونهى عن لعن الريح، والحمى. وغير ذلك، لكيلا يتعود لسان المرء على السب والشتم؛ لأن ذلك يورث العداوة ويدمر المودة والتحاب بين المسلمين وقد يكون سبباً في وقوع الجرائم، ويوقع في سخط الله.

ونود أن نورد بعض الأحاديث الدالة على ذلك:

○ عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت المرأة، فلعتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها، ودعوها فإنها ملعونة». قال عمران: فكأنني أراها الآن تمشي في الناس ما يتعرض لها أحد.(٣)

ويبدو من هذا الحديث أن الناقة التي كانت تركبها المرأة الأنصارية كانت بطيئة جداً وكانت صعبة الانقياد، وأن المرأة عانت كثيراً من قيادتها ومن بطئها، فلما ضجرت لعتها، فلما سمع رسول الله ﷺ ذلك أمر بأن تترك ويؤخذ ما عليها، وهذا الأمر عقوبة مالية ليست قليلة، فلقد امثل الصحابة أمر النبي ﷺ،

(١) رواه مسلم (٢٥٩٨)، وأبو داود (٤٩٠٧).

(٢) رواه الترمذي (١٩٧٧)، والحاكم وابن حبان.

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٥).

وتركوها تمشي في الناس، وقد تحامها الناس فما كان يتعرض لها أحد. هذه حادثة وهناك حادثة أخرى لامرأة أيضاً:

○ عن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه أنه قال: بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم، إذ بصرت بالنبِيِّ صلى الله عليه وسلم وتضايق بهم الجبل، فقالت: حَلْ. اللهم عنها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لاتصاحبنا ناقة عليها لعنة». (١)

○ وعن يزيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة». (٢)

وفي الحديث لفت النظر إلى بعض الجوانب الإيجابية في الديك، فهو يوقظ للصلاة، وعلى هذا فهو لا يستحق السب، وهذا جانب تربوي مهم جداً.. إن كثيراً من الأمور التي قد تسوء فئة من الناس فيها بعض الجوانب التي لا تخلو من فائدة.. وإن إدراك هذه الحقيقة يخفف من الشعور بالجوانب المسيئة، والشواهد على صحة هذه الفكرة كثيرة جداً، وما يتذكر إلا ألو الألباب.

○ ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً عن سب الحمى:

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب، فقال: «ما لك - يا أم السائب - تزمين؟» قالت: الحمى لا بارك الله فيها. فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تسب الحمى؛ فإنها تذهب خطايا ابن آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد». (٣)

(١) رواه مسلم (٢٥٩٦). وحَلْ: كلمة لزجر الأبل. وهذا ما يدعونه اسم صوت. وأساء الأصوات على نوعين: نوع يخاطب به ما لا يعقل من الحيوان ك(هُس) للغنم و(حَلْ) للأبل، ونوع يُحكى به صوت ك(غاق) لصوت الغراب. وأساء الأصوات كلها سماعية.

(٢) رواه أبو داود (٥١٠١) بإسناد صحيح.

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٥).



وكذلك فقد ذكر في الحمى جانباً إيجابياً وهو تكفير الخطايا، وهذا أمر عظيم عند المسلم الذي يشعر بالذنب الذي صدر منه كأنه جبل يريد أن يقع عليه، فهذه الحمى تُذهب خطايا ابن آدم .. وجاء ﷺ بصورة فنية بيانية رائعة وهي قوله ﷺ: «كما يُذهب الكير خبث الحديد»، فالحرارة التي في الكير تُذهب خبث الحديد، وكذلك الحرارة التي تكون في الحمى تُذهب خطايا بني آدم. فإدراك هذه الحقيقة تخفف على المريض إحساسه بالمرض، وقد يكون ذلك سبباً لتسريع الشفاء بإذن الله.

○ ونهى رسول الله ﷺ عن سبِّ الريح:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما أُمرت به».^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من رُوح الله تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوا، وسلوا الله خيرها واستعينوا بالله من شرها».^(٢) وقد ذكر الجانب في الريح وهي أنها تبشر بالمطر قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، وذكر الجانب السلبي للريح، وذلك عندما تكون للعذاب كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۖ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧). قال الإمام النووي في "رياض الصالحين" ص

٦٢٥: [قوله ﷺ: من روح الله هو بفتح الراء: أي رحمته بعباده].

وأرشد ﷺ إلى اللجوء إلى الله عند الخوف من هذه الرياح ودعائه وسؤاله خيرها والإعازة من شرها.

○ ونهى رسول الله ﷺ عن سبّ الأموات:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا الأموات؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا^(١).

ويا لها من مزية في هذا الدين العظيم الذي يحافظ على كرامة الإنسان حياً وميتاً. فسبّ الأموات العاديين محذور، فكيف إذا كانوا علماء أو أئمة .. وكيف إذا كانوا من الصحابة؟! رأيت كتاباً ألفه باحث تناول فيه عالماً من أكبر علماء الحديث في عصرنا ولكنه لم ينشره في حياة ذاك العالم؛ فلما مات العالم نشره بعد وفاته. دلّ على ذلك تاريخ المقدمة وتاريخ الطبع وبينهما سبع سنوات. وسمح لنفسه بأن يصف العالم بالجهل والتخليط وغير ذلك من الألفاظ. إنَّ هؤلاء الأموات أفضوا إلى ربهم، والميت لا يستطيع أن يرد عن نفسه الافتراء والالتهام. إنَّ المسلمين بحاجة إلى العمل بهذه التوجيهات التربوية ليصلح حالهم ويقوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

لقد نهى رسوله الله ﷺ عن الشتم والتعير لو تعرض المرء إلى ظلم يبيِّن من سفيه بشتمه وعيِّره بأمر ليس فيه، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه رواه جابر بن سليم الهجري رضي الله عنه.

إن تحقيق هذا - عند كثير من الناس - صعب جداً، فليس من السهل على نفس الإنسان أن يتقبل هذا، ولكن المسلم الذي رباه الإسلام إنسان قوي الإرادة يتغلب على نفسه ونوازعها، وينقاد لأمر الله ورسوله، وهو إن شُتم أو عيِّر يتلقى

(١) رواه البخاري (١٣٩٣ - ٦٥١٦)، وأبو داود (٤٨٩٩).



ذلك بهدوء فلا يغضب ولا يطيش، بل يبقى مسيطراً على أعصابه، فيكظم غيظه، ولا يتصرف التصرف الذي يندم عليه فيما بعد، ولذلك عدَّ رسول الله ﷺ الرجل الذي يملك نفسه عند الغضب هو القوي الصَّرعَة الذي لا تغلبه الرجال. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».(١)

ومن الحكم الرائعة قول القائل: (لا تغضب؛ فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فَرَدَّ الغضب بالكظم، وسكَّنه بالتؤدة، وإياك والعجلة، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك، وكن سهلاً ليناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً).(٢)

وإذا عَيَّرَكَ سفيه بما ليس فيك، وأنت تعلم عيوباً قبيحة فيه، واستطعت أن تضبط تصرفاتك، فأعرضت عنه ولم تعيِّره بالعيوب التي فيه، كان لك أجر الصبر على الإساءة، وكان الوزر عليه.

وإذا عَوَّدْتَ نفسك على ذلك، وعَوَّدْتَ لسانك على العفة والصيانة نجوت - بإذن الله - من مصائب الدنيا ومتاعبها، ومن الإثم الذي يورث العقاب والعذاب الأليم يوم القيامة.

وفي أخبار الصالحين مواقف كثيرة كانوا يتعرضون فيها إلى ظروف من هذا القبيل، فلا تستثيرهم إساءة مسيء، بل يبقون محافظين على مستواهم الأخلاقي الرفيع، وينجحون في الإمتحان أمثل نجاح، ويقدمون الأمثلة الرائعة التي تصلح أن تكون نماذج يقتدى بها من بعدهم.

فمن ذلك أن رجلاً من قريش أغلظ لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه القول، وهو

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) "إحياء علوم الدين" ٣/ ١٦٢.

أمير المؤمنين الذي كان يحكم معظم العالم المتحضر في ذاك الزمان، فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال: أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأناك منك اليوم ما تناله مني غداً. وأعرض عنه ولم يزد في القول على ذلك.

إنّ الإنسان ليتألم عندما يشتم ويقال فيه ما ليس فيه، ولكنّ عمر رضي الله عنه عرف أنّ ذلك الرجل قد يحجره إلى قول يؤاخذ عليه يوم القيامة. وعمر في ذاك الموقف أمير المؤمنين الذي يستطيع ان ينكل بهذا الذي أغلظ له القول أعظم التنكيل، ولكنه لم يفعل وأعرض بهذه الكلمة الحاسمة.

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم عظم معصية الشتم في الحديث الصحيح المتفق عليه وهو: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(١).

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه لا يجوز أن نلعن العاصي، بل علينا أن نأخذ بيده إلى الطاعة، وأن نعينه على إصلاح نفسه، لا أن نكون عوناً للشيطان عليه. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب، فقال صلى الله عليه وسلم: «اضربوه». قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه. فلما انصرف قال بعض القوم: أخزأك الله. فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا هذا، لا تعينوا عليه الشيطان»^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يُلقَّبُ حماراً، وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به، فجلد. فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤)، والترمذي (١٩٨٤).

(٢) رواه البخاري (٦٧٧٧).



يُؤْتِي بِهِ. فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت، أنه يحبُّ الله ورسوله»^(١).

ودلّ هذا الحديث الصحيح على أنّ المسلم الذي يحبُّ الله ورسوله معرّض للزلل، فلا يجوز أن نتخذ منه موقفاً عدائياً نُعين عليه الشيطان، بل علينا أن ننصحه ونوثق صلتنا به، ونبين له خطأه بالأسلوب الحكيم الذي يوصل إلى النتيجة.

إذا كان العاصي لا يجوز أن نسبه، فما بالنّا بالعلماء والدعاة والصالحين من المسلمين، إنّ الجرم يكون أشنع وأكبر.

وهكذا نرى الرسول ﷺ علمنا بأسلوبه التربوي الحكيم أن نصون ألسنتنا عن السب والشتم ومقابلة المسيء بالإساءة.

إنّ المجتمع الإسلامي مجتمع راق لا يُسب فيه إنسان ولا حيوان ولا شيء.

لقد عنيّ الرسول العظيم ﷺ بتربية أتباعه في شؤونهم كلها، وفي أحوالهم الخاصة والعامة، فأنت ترى في الحديث النبويّ توجيهات تربوية سامية، تُربي المسلم في خلوته وجلوته، وتصوغه صياغة متكاملة حتى تجعل منه إنساناً خيراً، يبيّن ولا يهدم، ويحسن ولا يُسيئ، فهو في أسرته ملتزم بمبادئ الإسلام وأحكامه وأخلاقه في نفسه، ومرتبّ لأفراد أسرته على تلك المبادئ والأحكام والأخلاق، وهو في المجتمع إنسان فاضل يدعو إلى الفضيلة بلسانه وسلوكه.

ولا يوجد نظام تربوي ولا دين سهاوي عنيّ بهذا الشمول في تربية أتباعه .. أجل لقد أرشد الإسلام المسلم إلى ما يفعله آناء الليل وأطراف النهار، يرشده ماذا يفعل وماذا يقول عندما يقوم من النوم .. وعندما يخرج من بيته، وعندما يدخل المسجد، وعندما يخرج منه، وعندما يدخل السوق، وعندما يلقي أخاه المسلم

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).

في الطريق، وعندما يعود إلى بيته، وعندما يعاشر أهله، وعندما يأوي إلى فراشه .. وهكذا.

ولقد أثمرت هذه التربية النبوية جيلاً مثالياً ما عرف التاريخ له نظيراً قط. ولن تجد أروع في وصف هذا الجيل من قول الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٌ أَخْرَجَ شَطْلُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال صاحب الظلال:

[إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. ولقطة تصور هيتهم في عبادتهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويحش بها: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سميتهم وسحتهم وسماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ .. ذلك مثلهم في التوراة، وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل .. ﴿كَرَجَجٌ أَخْرَجَ شَطْلُهُ .. فَتَازَرَهُ .. فَاسْتَعْلَظَ .. فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ .. يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ .. لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾

والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصلية في هذه الحياة، وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة .. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتشيت الملامح والسمات التي تصورها ..



إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم (أشداء على الكفار رحماء بينهم) أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوانهم وذو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً. رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء. وهم يُقيمون عواطفهم ومشاعرهم كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوانهم فيها. قد تجردوا من الأنانية والهوى ..

إرادة التكريم واضحة، وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة ﴿تَرَهُمْ زُكَّاءً سُجَّدًا﴾ .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حينما رآهم؛ وذلك أنّ هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكانهم يقضون زمانهم ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ فهذه صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه، ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملاحظتهم .. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ .. سيماهم في وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية .. وليست هذه السیما هي النكتة المعروفة كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله ﴿مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختيار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل

مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً. وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه الصفات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يحييوا إليها.

ومثلهم في الإنجيل .. أنهم كزرع أخرج شطأه .. فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده (فآزره). أو أنّ العود آزر فرخه فشده. (فاستغلظ) الزرع وضخمت ساقه وامتلات (فاستوى على سوقه) لا معوجاً ولا محنياً، ولكن مستقيماً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، والعارفين بالنامي منه والذابل، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب (يعجب الزراع) .. وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكمد (ليغيظ بهم الكفار) .. وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثم ورد ذكره

قبل أن يحيى محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يحيئون ...^(١).

إنّ التربية النبوية التي نعرض نماذج منها وردت في الحديث النبوي هي التي أثرت هذا الجيل الذي وصفه الله تعالى بهذه الصفات الكريمة التي ذكرناها.

لقد كان ذلك الجيل يسارع إلى تنفيذ ما يتلقى من توجيه الرسول ﷺ. فما أجدر المسلمين اليوم أن يحرصوا على الأخذ بتلك التربية النبوية الكريمة لعلهم

(١) "في ظلال القرآن" ٦ / ٣٣٣١-٣٣٣٣.



يفوزون بالمغفرة والأجر العظيم ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

إنَّ المجتمع الإسلامي الذي ربّاه رسول الله ﷺ مجتمع متعاون على البر والتقوى، مجتمع متماسك يشعر كلُّ فرد من أفرادِه أنّه عضو في أسرة كبيرة هي أمة الإسلام، فهم جسد واحد، يشارك كل فرد إخوانه المسلمين مآسيهم وأفراحهم.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

إنَّ علينا أن نعمل ما بوسعنا لنصل إلى هذا المستوى الكريم الرفيع، لاسيما والمسلمون اليوم مستهدفون في كل مكان، يكيد لهم أعداء الله، كيداً مادياً فيقتلون ويعذبون، ويكيدون لهم كيداً معنوياً، فينالون من دينهم وكتابهم ونيهم .. ينبغي أن نشعر بالآم التي تصيبهم وأن نعمل على إزالتها .. أولم يأتكم نبأ ما يفعل اليهود، الذين يعمدون إلى ضرب المسلمين بالقنابل من الطائرات والدبابات في فلسطين، ويعمدون إلى تهديم بيوتهم وإخراجهم إلى العراء في هذا الفصل البارد، وينكلون بالرجال والنساء والأطفال والشيخوخة قتلاً وسجناً وتعذيباً وإهانة .. يجب أن يؤلمنا هذا الواقع الذي نراه ونسمع خبره، ويجب أن نعمل على تغييره ما استطعنا .. ومما نستطيع الدعاء. يجب أن نربي أنفسنا ونساءنا وأولادنا بنين وبنات وتلاميذنا على هذا المبدأ السامي الذي عبّر عنه الحديث الجميل. أن المسلمين جسد واحد.

إنَّ المسلمين يجب أن يحب بعضهم بعضاً، تدفعهم إلى هذه المحبة الرغبة في الجنة، لقوله ﷺ: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أولا

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»^(١).

وقد تحقق هذا المستوى الرفيع في أيام الإسلام الأولى، فكان الواحد منهم يؤثر أخاه على نفسه ولو كانت به حاجة. وقصة الصحابي الذي أخذ معه الضيف فقدم له طعام الأولاد، وبات هو وزوجته وأولاده طاوين معروفة مشهورة. ولا بأس بالتذكير بها. لقد نزل بهذه القصة قرآن يتلى، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٢) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩-٨﴾ [الحشر: ٨-٩].

إنَّ ذاك الجيل العظيم من الصحابة المهاجرين لقي في سبيل الله الأذى والتعذيب، والاستهزاء والتنكيل، فتركوا ديارهم وأموالهم إلى دار الهجرة، فلقوا من إخوانهم النصار الإيواء والإطعام، والإيثار والحنان، وحسن الجوار.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله. ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. قال صلى الله عليه وسلم: «لا. ما أثنتم عليهم ودعوتم لهم»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار أن يُقَطَّعَ لهم البحرين. قالوا: لا. إلاَّ أن يُقَطَّعَ لإخواننا المهاجرين مثلها.

(١) رواه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، وابن ماجه (٣٦٩٢)، والترمذي (٢٦٨٨).

(٢) رواه أحمد ٢٠٠/٣.



قال: «أَمَّا لَا، فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثره»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا رجل يضيِّقه هذه الليلة يرحمه الله».

فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخريه شيئاً. قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهن، وتعالى فأطفئ السراج، ونطوي بطوننا الليلة. ففعلت.

ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لقد عجب الله وعجل - أو ضحك - من فلان وفلانة» فأنزل الله وعجل ﴿وَوُثِّرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢) [الحشر: ٩].

إننا في حاجة إلى أن نعيد في مجتمعنا سيرة السلف الصالح في تعامل بعضنا مع بعض .. نُسرّ لسرور إخواننا المسلمين، ونألم ونحزن لضرر أصحابهم، ونمسح بأيدينا جراحهم، ونواسي البائسين منهم، ونمد بما نستطيع محتاجهم. فلينفق ذو سعة من سعته. ولا ينبغي أن نمتنع عن فعل الخير لقلة ما في أيدينا. ولو نظرنا في كتاب الله لوجدنا آيات كثيرة تحضّ على إطعام الطعام والإنفاق في سبيل الله.

إنّ إعطاء الرجل الذي لا يستطيع أن يعطي إلا القليل تمرين له على الإنفاق، حتى إذا أيسر في مقبل الأيام وملك الكثير سهّل عليه إنفاق الكثير، ذلك لأنّ الأنفس أحضرت الشح، ولا بُدّ من أن يعود المرء نفسه على الإنفاق.

(١) رواه البخاري (٣٧٩٤).

(٢) رواه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤)، والترمذي (٣٣٠٤).

إنَّ سيطرة النزعة المادية على كثير من الناس تجعلنا نلح على التذكير بالإنفاق مهما كان وضع الإنسان المادي، وفي زكاة الفطر درسٌ بليغ، فالشرع يوجب على من ملك طعام العيد أن يخرج زكاة الفطر، فترى بعضهم يخرج الزكاة ويتلقى الزكاة. وهذا مظهر تعاواني عظيم.

إنَّ الشرع لم يلزم المرء بأن يؤثر أخاه على نفسه ولو كان به خصاصة، ولكنَّه رغب المسلم بهذه المنزلة العالية، وهذه سمة من سمات الدين .. إنه دين واقعي .. إنه يقول إبدأ بنفسك وبمن تعول .. ولكن هناك مستوى أعلى وهو أن يتحلَّى بالإيثار.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»^(١)، وفي رواية للشيخين: «إذا نظر أحدكم إلى مَنْ فَضَّلَ عليه في المال والخلق، فليُنظر إلى من هو أسفل منه ممن قُضِلَ عليه»^(٢).

إنَّ المسلم الذي تربَّى في مدرسة الإسلام، وارتقى في مدارج مبادئه وتوجيهاته العظيمة، ووعى واستوعب ما بلغه من كتاب الله وسنة رسوله هو الإنسان المثالي الذي يسعد في نفسه ويسعد غيره، ولا يمكن أن يكون بائساً ولا كئيماً ولا ضجراً ساخطاً؛ ذلك لأنَّه يعتقد أن كلَّ شيء بتقدير الله سبحانه، وأنَّ فيما قدَّره الله له الخبر كله، زمن كان كذلك كان في غاية السعادة والطمأنينة. وكان يقظاً لعمله ولسانه، مراقباً نفسه أتمَّ المراقبة يخشى أن يصيبه مكروه بسبب ما قد يقع منه من زلة أو معصية لله ﻋَظِمْ. وهذه اليقظة وتلك المراقبة تجعلان تصرفات المسلم موزونة خيرة نافعة. إنك لتراه دائم الاستغفار والتوبة، شديد الخشية لله تعالى .. إذا داهمه المرض، أو أساء إليه إنسان ردَّ ذلك إلى تقصيره ووقوعه في مخالفة أمر الله .. يقول: هذا تأديب

(١) رواه مسلم (٢٩٦٣).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣).



لي من الله وعقوبة منه ويستشهد بقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] .. ولذلك فإن الأحداث تربيه وتقوم عوجه وتصلح خطاه، وكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون.

وهذا هو الذي تربى عليه الصحابة، فالهزيمة التي كانت في غزوة أحد إنما كانت بسبب مخالفة نفر منهم أمر النبي ﷺ. ولما سألوا: أنى هذا، من أين لنا هذا الذي حدث ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ نزل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن هذه التربية الربانية لتجعل المرء الذي تمثلها ودعاها إنساناً يحاسب نفسه ويحمد الله على ما أولاه من النعم، ويوازن بينه وبين من هو أسفل منه في المال والخلق فسيرى عظمة نعمة الله عليه.

كم من النعم التي أكرمنا الله بها وينساها كثير منا .. إنها - والله - لا تحصى. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ماذا عسانا أن نذكر من النعم .. وأجلها نعمة الإيمان .. أليس في الأرض ناس مثلنا في الصفات والمواهب ولكنهم لم يهتدوا إلى الخالق الذي هدانا الله له. وما أجمل كلمة أصحاب الجنة إذ يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومن النعم الجليلة الخلقة السوية التي خلقنا الله عليها. قال الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا سَاءَ رُكَّبَكَ ۝﴾ [الانفطار: ٦-٨]. أليس هناك ناس ولدوا دون بعض الأعضاء .. قرأت أن فتاة خلقت بلا يدين ولكن الله تبارك وتعالى وهبها مهارة باهرة، فكانت

تستعمل رجلها وأصابعها فيما نستعمل نحن أيدينا، تكتب وتطرز وتصنع أشياء كثيرة.

جاء رجل إلى يونس بن عبيد، فشكا له ضيقاً من حاله ومعاشه واغتماماً منه بذلك. فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذا الذي تبصر به مائة ألف؟ قال: لا. قال يونس: فسمعك هذا الذي تسمع به مائة ألف؟ قال: لا. قال يونس: فلسانك هذا الذي تنطق به مائة ألف؟ قال: لا. قال يونس: ففؤادك الذي تعقل به مائة ألف؟ قال: لا. قال يونس: فيداك اللتان تبطش بهما أيسرك بهما مائة ألف؟ قال: لا. قال يونس: فرجلاك اللتان تمشي بهما أيسرك بهما مائة ألف؟ قال: لا. وما زال يونس يذكره بنعم الله عليه ..

ثم أقبل عليه يونس قائلاً: أرى لك مئين ألفاً وأنت تشكو الحاجة؟^(١)

فلا يجوز للمرء المسلم أن يشعر نفسه بالتعاسة بسبب أمور صغيرة تكون في البيت أو في مكان العمل .. ولتذكر دائماً قول الرسول الكريم ﷺ: «انظروا - أي في أمور الدنيا - إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم» فهو أحرى أن لا تزدروا نعمة الله عليكم.

إن الذين ينسون نعم الله عليهم، ويجردون أنفسهم من تلك النعم الكثيرة التي أكرمهم الله بها، ويجردون من يعاشرون من الزوجات والأولاد يجردونهم من المزايا الكثيرة التي فيهم، ولا ينظرون إلا إلى عيوبهم ويضخمون تلك العيوب أشقياء .. جرّوا الشقاء لأنفسهم بأيديهم، ولنضرب على ذلك مثلاً: بكاء الأطفال وشجارهم وصياحهم أمرٌ مزعج حقاً، لكنه أمر لا فكاك منه .. إذاً فلنحمل أنفسنا على قبوله ولنصبر على ذلك، ولنعدّ هذا شيئاً لا حيلة لنا فيه، كالرعود وضجيج الطائرات والسيارات.

(١) انظر "وقفات مع الأبرار" ص ٣٠، و"حلية الأولياء" ٢٢/٣.



ومن الحكم الرائعة قولهم: (إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون) لابدّ لنا من أن نوطن أنفسنا على ألفة الضوضاء التي تكون من الأولاد، ولا يجوز أن نزيد هذه الضوضاء بصياحنا إن رأينا أمراً يسيراً لا نوافق عليه.

إن متابعتنا للأمور الصغيرة وانفعالنا وهياجنا بشأنها يجلب الشقاء والنكد لنا ولمن حولنا، ويجلب لنا الأمراض النفسية والجسمية .. مثل ضغط الدم والصداع واضطراب الجهاز الهضمي كالتهاب القولون والإصابة بالقرحة وغير ذلك.

ويا ليت الغضب والانفعال يحلّ مشاكلنا .. إذن لهان الأمر .. ولكن المشاكل تبقى كما هي دون تغيير ونصاب نحن بما ذكرنا.

فلننظر في أمور الدنيا إلى الآخرين الذين لم يؤثروا مثل ما أوتينا نسعد ونحمد ربنا ونتبين عظيم نعمه علينا.



التداوي

يقول رسول الله ﷺ: «تداواوا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غير داءٍ واحد: الهرم».(١)

إنّ هذا الدين يسر. عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ هذا الدين يسر، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه».(٢)

وإنّ هذا الدين ليحترم كرامة الإنسان وإرادته فيصونها، ويرعى حاجاته وضروراته فيوفرها له على أحسن وجه .. نلمس ذلك في آيات الكتاب الكريم، وفي أحاديث النبي الكريم ﷺ. ومن ذلك هذا الحديث الذي نحن في صدد دراسة التوجيه التربوي الذي تضمنه، فللمريض أن يتداوى إذا حلّ به مرض، فالمسلم لا ينهار ولا ييأس من الشفاء، لأنه يعلم أنّ الذي وضع الداء وضع له الدواء ﷻ، هذا الدواء عرفه من عرفه وجهله من جهله. نعم هناك داء واحد لا دواء له وهو: الهرم .. فلا يمكن أن يعود الشيخ شاباً يتخلص من آثار الهرم وضعفه ومتاعبه .. إنّ هذا محال .. ولكن يمكن له أن يأخذ مقويات ومسكّنات للألم، وأن يتناول أدوية تحول دون تدهور حالته الصحية .. هذا كل ما تستطيع أن تفعله الجهود الطبية على مرّ الزمان.

إنّ في هذا الحديث توجيهاً تربوياً عظيماً، وهو أن على المرء ألا ييأس، فالمريض إذا وُفّق لاستعمال دواء المرض شفاه الله ما دام أجله لم يحن ولم يأت بعد. واليأس يقتل في الإنسان كل عوامل النبوغ والإبداع والعطاء، وكل أسباب المسرة والسعادة،

(١) رواه أحمد ٢٧٨/٤، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، والنسائي في الكبرى ٤/ برقم: ٧٥٥٣، وابن حبان (٦٠٦١)، والحاكم ٤/ ٣٩٩، وقال الألباني صحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٩).



وتعجبني تلك الكلمة التي تقول: (لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس) وفي كتاب الله ﷻ وَصَفَ الْكُفَّارُ بِأَنَّهُمْ يَأْسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْسِبُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وجاء في سورة يوسف على لسان يعقوب مخاطباً أبناءه: ﴿وَلَا تَأْسَوْا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]

ونهى عباده الذين أسرفوا على أنفسهم من اليأس فقال: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

والحالة النفسية المشرقة المتأملّة قد يكون لها دور في تحسّن المريض وشفائه، وهي بكل تأكيد تُفيض على حياته لوناً من السعادة والهناء، لأنّ السعادة كامنة في الرضا بما قدّر الله وفي الأمل بالغد الأفضل، وتجعله مستمراً في عطائه وإبداعه ومرحه وإدخاله السرور على نفسه، وعلى من حوله، وفي ممارسة حياته العادية.

وفي هذا الحديث حصّ للطبيب ولعالم الأدوية على البحث والتجربة لاكتشاف أدوية لأمراض لم يعرف لها دواء شافٍ حتى الآن. وفيه نصح للمرضى ليتداووا إن أرادوا وليس ذلك متعارضاً مع التوكل على الله^(١)، فلقد تداوى ﷺ وهو سيد المتوكلين.

وهذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ فلقد رأينا أنّ العلماء اكتشفوا أدوية عدة لأمراض لم يكن يعرف لها دواء.

(١) رواه الطبراني، وقال الألباني في "صحيح الجامع الصغير" (٢٩٢٩): حسن.

ولقد أوصى ببعض الأدوية:

○ فمن ذلك أنه أوصى بالتداوي بألبان البقر، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تداووا بألبان البقر فإني أرجو أن يجعل الله فيها شفاءً؛ فإنها تأكل من كل الشجر». ^(١)

○ ومن ذلك أنه أوصى بالحبة السوداء. عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام». قلت: وما السام؟ قال: «الموت». ^(٢)

○ ومن ذلك أنه أوصى بالعسل. عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه. فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه الثانية فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه فقال: فعلت. فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً». فسقاه فبرأ. ^(٣)

○ ومن ذلك أنه أوصى بالكمأة. عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «الكمأة من المنِّ وماؤها شفاءً للعين». ^(٤)

○ ومن ذلك أنه أوصى بالحجامة ونهى عن الكي. عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الشفاء في ثلاثة، في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي». ^(٥)

(١) انظر "نيل الأوطار" للشوكاني.

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٧).

(٣) رواه البخاري (٥٦٨٤).

(٤) رواه البخاري (٥٧٠٨).

(٥) رواه البخاري (٥٦٨١).



إنَّ عددًا من أئمة الحديث عقدوا كتباً في مصنفاتهم للطب: منهم الإمام البخاري في "صحيحه" الذي هو أصحَّ كتاب عند المسلمين بعد القرآن، والإمام النسائي في "السنن الكبرى"، والإمام الترمذي في "جامعه"، والإمام ابن ماجه في "سننه"، والإمام أبو داود في "سننه"، والإمام ابن القيم في "زاد المعاد".

وفي هذه الكتب كثير من التوجيهات التربوية في حفظ الصحة وعلاج الأمراض، هذا وقد قامت دراسات^(١) متخصصة حديثة اعتمدت التحليل والفحص المخبري والتجربة، وانتهت بأن ما قررته هذه الأحاديث وارد ومطابق للحقيقة والمصلحة.

والذي نرجحه أن الآراء الطبية التي تقررها هذه الأحاديث من الوحي. وهناك رأي يخالف^(٢) ما رجحناه. والله أعلم.

* * *

(١) منها دراسة الدكتور الدقر عن العسل، وهي عندي، ودراسة عن الحبة السوداء.

(٢) سمعت أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي يقرر أنها ليست من الوحي بل هي أقوال شخصية، وبنحو هذا سمعت الشيخ الأشقر يقول.

الزهد في الدنيا

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار»^(١) والدرهم، وعبد الخميصة والقطيفة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإن شيك فلا انتقش. طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفع»^(٢).
والقطيفة والخميصة نوعان من الثياب، أما القطيفة فهي الثوب الذي له خمل، وأما الخميصة فهي الثوب المربع.

أسلوب تربوي رائع للمسلمين ليعطوا الدنيا حقها دون شطط أو مبالغة، وتحذير من الانصراف الكلي إليها؛ لأن في ذلك إساءة إلى الكرامة الربانية التي اختص الله بها بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ودعوة إلى الترفع عن العبودية لغير الله، فالمسلم محرر من كل أنواع العبودية. ومنها العبودية للمال، والمال فتنة كما قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]. كان ذلك من خلال هذا العرض البليغ الذي عرض فيه رسول الله ﷺ لوحتين لرجلين من الناس:

(١) جاء في "فتح الباري": [عبد الدينار أي طالبه الحريص على جمعه، القائم على حفظه، فكأنه لذلك خادمه وعبد] انتهى.

قلت: والمراد بالدرهم والدينار المال، وهو شيء زين لبني آدم ﴿يُؤْتِي النَّاسَ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْثِ﴾.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد في باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦-٢٨٨٧)، وأورده أيضاً في كتاب الرقاق في باب ما يتقي من فتنة المال وقول الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (٦٤٣٥)، وابن ماجه (٤١٣٥-٤١٣٦).



أما أولهما فرجلٌ همُّه الدنيا .. فهو يسعى لاهتاً وراءها، يبذل ماء وجهه من أجلها، ويرضى بالذلِّ والمهانة للحصول على بعض منافعتها، لا يفكر في مثلٍ عليا من الخير والبر والإحسان، ولا في حمل رسالة تهدي الضال، وتأخذ بيد سالك سبيل الرشاد، وتغيث الملهوف، وتعين الضعيق والعاجز .. بل همه الأوحـد جمع الدراهم والدنانير، واقتناء الملابس الفاخرة حتى أضـحى عبداً لذلك كله .. عبداً للدرهم والدينار .. عبداً للقطيفة والخميسة. رضاه مرتبط بالعطاء .. فإن أعطي رضي، وإن لم يُعطَ كان من الساخطين، هذا خُلِقَ المنافقين الذين ذكرهم الله في محكم كتابه فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

إنه في حقيقة أمره شقي تعيس؛ ذلك لأنَّ أمور الدنيا لا تأتي دائماً وفق رغبات طالبيها .. فكلما صادف عبد الدراهم والخميسة شيئاً من العقبات والنكبات سخط وتألم وصاح وناح، وبكى حظه العاثر، وحلَّت به الكآبة، فلا يعرف الابتسام طريقاً إلى شفـتيه، وصبَّ جام غضبه على الضعفاء ممن يعاشر من أطفال وخدم وناس عاجزين عن مواجهته.

إنه في تعب دائم، لا يهدأ له بال، ولا يسعد بحال، إن رأى تجارة رابحة لغيره ركه الغم: كيف لا تكون تلك التجارة له حسداً من عند نفسه. وإن فاته أمر كان يرجو تحصيله عرته الكآبة وأصابه الصـداع، وضاق صدره وعبس وتجهم .. وهكذا تمضي أيامه ..

وما دام قد رضي أن يكون كذلك فإنَّ رسول الله ﷺ دعا عليه، ودعاء الأنبياء مستجاب .. دعا عليه أن يزيده الله تعاسة وانتكاساً، وتحقق الدعوة فتقلب أموره رأساً على عقب، وتقلب السعادة المؤقتة التي كان يحلم بها إلى شقاء دائم، وينقلب الربح إلى خسارة، والعزُّ الموهوم الذي حصل عليه بالمال إلى ذلٍّ محقق عندما حلَّ به الفقر، واحترام الناس له إلى احتقار يلقاه من كل من يعامله.

وفي العبارة النبوية (تعس وانتكس) صورة بيانية متحركة معبرة عن المعنى المراد تقريره أتم تعبير، وفيل أن أعرض هذه الصورة البيانية أود أن أذكر أن الفعل (تعس) فيه لغتان: أولاهما أن الفعل من باب (نَفَع) أي تَعَسَ يتَعَسَ، والأخرى أن الفعل من باب (تَعِب) أي تَعَسَ يتَعَسَ.

فاللغة الأولى تَعَسَ يتَعَسَ يكون الفعل لازماً ويكون متعدياً، يقال: تعسه الله، ويتعدى أيضاً بالهمزة فيقال: أتعسه الله.

واللغة الثانية تَعَسَ يتَعَسَ يكون الفعل لازماً فقط.

ويقال في الدعاء: (تعس فلان) وتعساً له.

و(تَعَسَ) دعاء عليه بأن يكبه الله على وجهه.

و(انتكس) دعاء عليه بأن لا يستقل بعد سقطته حتى يسقط ثانية، وهي أشد من الأولى .. وهكذا.

إنه مشهد يمكن أن يقع كثيراً، ويراه الناس.

هذا رجل يختر لوجهه ثم يقوم بعد محاولات عديدة وجهه .. فلا يلبث إلا قليلاً حتى يعاود السقوط.

مسكين هذا الرجل .. عبد الدرهم والدينار .. لقد اختار لنفسه هذه الحالة المزرية الموحجة .. إنه في سقوط دائم .. كلما حاول أن يتماسك ويقف وقع وسقط .. فيشج وجهه ويصاب ببعض الكسور.

ولو أنه كان عبداً لله لكان في غنى عن هذا المصير البائس التعيس. وهناك في الحديث دعوة أخرى عليه تعرض من خلال صورة أخرى بيانية متحركة بليغة .. يدعو رسول الله ﷺ على هذا الرجل الذي يؤثر الحياة الدنيا فيرضى أن يكون عبداً لها .. يدعو عليه إذا أصابته شوكة في يده أو أي موضع من جسده، أن تبقى هذه الشوكة في موضعها الذي حلت فيه، وأن لا تنتزع مهما بذل من جهد لانتزاعها ..



(٢) ولا يمانع الشرع من كسب المال للقيام بالضرورات، ولإنفاقه فيما ينفع المسلمين ولكن الخطورة أن يكون ذلك هو الهدف والغاية التي يسعى إليها ولا شيء سواه، وأن يكون حب المال وجمعه أحب شيء للإنسان هذا ما يتوجه إليه التهديد من الله. قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٩٠﴾.

قال البخاري: طُوبَى فَعَلَى من كل شيء طيب، وهي ياء حولت إلى واو، وهو من يطيب.

وجاء في "مختار الصحاح": وطوبى فعلى من الطيب قلبت الياء واواً لضممة ما قبلها. يقال: طُوبَى لك، وطوباك أيضاً. وطوبى اسم شجرة في الجنة. وجاء في "المصباح المنير": وطُوبَى لهم: قيل: من الطيب، والمعنى [لهم] العيش الطيب، وقيل: حسنى لهم، وقيل: خيرٌ لهم. وأصلها (طُيْبَى) فقلبت الياء واواً لمجانسة الضمة.

وجاء في "فتح الباري": [...] المراد الدعاء له بالجنة لأنّ (طوبى) أشهر شجرها وأطيبه، فدعا له أن ينالها، ودخول الجنة ملزوم قبلها].

وكل هذه المعاني المتقاربة واردة في معنى الحديث، فلهذا العبد الصالح المجاهد العيش الطيب والخير الوفير وله الحياة الحسنى وله الجنة.

إنّ هذا العبد الصالح يمارس كل أنواع الجهاد .. فحيناً يكون في الحراسة إن رأى أنّ مصلحة الجيش في الحراسة، وحيناً يكون في ساقية الجيش وهي مؤخره إن كانت المصلحة تقتضي كونه هناك، ولا يهتم أن يُعرف، ولا يريد أن يشار إليه بالبنان، لا يقصد السمو ولا التفاخر.

وقد ورد في فضل الحراسة أحاديث عدة:

- منها عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من حرس من وراء المسلمين متطوعاً لم ير النار بعينه إلاّ نَحَلَّةَ القسم»^(١).
- ومنها عن أبي ریحانة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «حُرمت النار على عينٍ سهرت في سبيل الله»^(٢).

(١) رواه أحمد ٤٣٨/٣.

(٢) رواه النسائي (٣١١٧).



- ومنها عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله». (١)

والحراسة أمرها جليل في الجيوش، وأهميتها عظيمة، فهي تحمي الجند، وتنذرهم بالخطر، وقد أورد الإمام البخاري هذا الحديث في (باب الحراسة في الغزو في سبيل الله).

وكان لهذا العبد الصالح هذه الدعوة من الرسول ﷺ أن يكون له العيش الطيب، وأن يحظى بالخير العميم في دخول الجنة .. كان له هذا الدعاء لأنه كان مخلصاً في جهاده لا يريد إلا رضوان الله وإعلاء كلمته في الأرض، أما مظهره فقد كان مظهر الإنسان المسافر المرتحل على فرسه .. فكان أشعث الرأس، مغبرّ القدمين.

ما أحوج الأمة التي تريد النهوض والسيادة في كل عصر إلى رجالٍ فاضلين صالحين، يعملون لإعلاء كلمة الله .. رجال يحرسون على أن يبقوا جنوداً مجهولين وعلى أن لا يُذكروا ولا يُشكروا، ولسان حالهم يردد مقولة الأنبياء الكرام: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقد كان في أمتنا جنود مجهولون يعملون ويكرهون أن يُعرفوا أو يُذكروا.

وتحضرني قصة رائعة، وهي معروفة ألا وهي قصة صاحب النقب كان مسلمة بن عبد الملك أمير جيش للمسلمين انطلق لنشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، فواجتهم مدينة بادأتهم جنودها بالقتال .. ثم دخلت المقاتلة إلى داخل السور وتحصّنت، وشرعت ترميهم بالسهم من على السور، فحاصروا تلك البلدة الحصينة .. وطال الحصار، وكاد يدخل اليأس على الجند، وإذا برجل بطل يحفر نقباً في السور .. ويدخل ويدخل معه الجند، ويفتح الله على المسلمين ويفتحون المدينة، ثم يغيب هذا

(١) رواه الترمذي (١٦٣٩)، وأبو يعلى (٤٣٤٦).

البطل في سواد الناس .. وقد حَرَصَ القائدُ مسلمة على معرفة هذا الرجل، فنَادَى من يدل على صاحب النقب فله مكافأة جزيلة .. فلم يأت أحد .. ومَرَّت أيام .. فجاء إلى مقر الأمير رجل ملثم واستأذن في الدخول على الأمير، فسأله الحاجب عن حاجته، فقال: أريد أن أدلّ الأمير على صاحب النقب، فسارع الحاجب إلى إخبار الأمير. فأذن له، فلما دخل عليه قال الأمير: أنت تعرف صاحب النقب؟ قال: نعم. قال: فمن هو؟ قال: أيها الأمير أنا أدلك عليه بشروط ثلاثة: أما أولها: فأن لا تسألني عن اسمي واسم أبي. وأما ثانيها: فأن لا تعطيني المكافأة التي أعلنت. وأما ثالثها: فأن تأذن لي بالمسير حيث شئت في بلاد الله. قال الأمير: عليّ ذلك. فمن هو؟ قال: أنا أيها الأمير. ثم انصرف وأغدَّ في السير حتى غاب عن الأنظار .. ولم يُعرف اسمه حتى الآن^(١). قالوا: فكان مسلمة بن عبد الملك إذا دعا سأل الله أن يحشره مع صاحب النقب.

* * *

(١) القصة ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار.



إطعام الطعام

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال ﷺ: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(١).
في هذا الحديث توجيهان تربويان كريمان مهمان تعود فائدة الأخذ بهما بالخير العميم والسعادة التامة، والأمن المستقر على الفرد والمجتمع.
أما التوجيه الأول فهو إطعام الطعام، وأما التوجيه الآخر فهو إفشاء السلام على الناس كافة من المسلمين.

وقول السائل للرسول ﷺ: (أي الإسلام خير) يريد: أي خصال الإسلام وأعماله أفضل وأكثر نفعاً؟ فذكر له الرسول ﷺ إطعام الطعام وإفشاء السلام. وقد جعل الرسول ﷺ هاتين الخصلتين خير خصال الإسلام. وقد كان الجيل المثالي جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - حريصين على الخير، فيسأل أحدهم عن خصال الخير، فينتفع هو ويتنفع الجميع بجوابه، ذلك أنهم كانوا عندما يسمعون الجواب ويعونه يسارعون إلى تنفيذه وتحقيقه .. لأنهم لم يكونوا يتلكؤن عن فعل الخير وتحصيل الثواب.



أما إطعام الطعام فخصلة كريمة حَضَّ عليها الكتاب الكريم، وحَضَّتْ عليها السنة المطهرة، وهذا متصل بالسخاء والإنفاق .. والسخيُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس، والبخيل بعيدٌ من الله بعيدٌ من الناس. وإطعام الطعام أمرٌ طيب، وأحسن ما يكون إذا كان المُطْعَمُونَ من الفقراء والمساكين.

(١) رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، وأبو داود (٥١٩٤)، وابن ماجه (٣٢٥٣)، والنسائي (٥٠٠٠).

ومما يدل على أن الإسلام عني بموضوع إطعام الطعام عنايةً كبرى أن الشرع المطهر جعل إطعام الطعام كفارة لعدة حالات:

○ فمن ذلك أن الرجل المسن الذي لا يستطيع الصيام، والمرأة المرضع، والمرأة الحامل لهم أن يفتروا ويخرجوا فدية وهي إطعام عدد من المساكين. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

○ ومن ذلك أن الذي ظاهر من زوجته بأن قال لها: أنت عليّ كظهر أمي - وهذا منكر من القول وزور - لا يحلّ له أن يمسه زوجته إلا بعد أن يكفر عن قوله الآثمة، وكفارته أن يعتق رقبة من قبل أن يتامسًا، فمن لم يجد رقبة فصيام شهرين متتابعين، فمن لم يستطع فعليه أن يطعم ستين مسكينًا. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤].

○ ومن ذلك أن الذي يحنث في يمينه يجب عليه أن يكفر عن يمينه بإطعام عشرة مساكين. قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من يطعمون المساكين واليتامى والأسرى فقال وَعَلَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرِبُ بِهَا عَبْدًا اللَّهِ يَقْفِرُ بِهَا تَقْفِيرًا ۝ يُوَفُّونَ بِالْأَنْدَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا



وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ۝ ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ [الإنسان: ١١-١٥].

○ وذكر ربُّنا سبحانه أن من أسباب دخول جهنم عدم إطعام المساكين، فهاهم أصحاب اليمين يوجهون سؤالاً إلى المجرمين: ما الذي جاء بكم إلى جهنم، فذكروا أنهم لم يكونوا يصلون، ولم يكونوا يطعمون المساكين. قال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۝ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۝ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنْ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۝ وَكُنَّا نَحُضُّ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ۝ [المدر: ٣٩-٤٦].

○ ومعلوم أن من النسك في حج القارن والمتمتع تقديم الهدى وإطعام المساكين. قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ۝ [الحج: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۝ [الحج: ٣٦]. أي فإذا نحرنا الهدايا من الأنعام فكلوا منها وأطعموا الذي يقنع بما يُعطى ولا يسأل، وأطعموا السائل أيضاً.

○ ويدعو الله عبده إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة .. والعقبة فك الرقاب من العبودية بعتقها، وإطعام الطعام في يوم المجاعة اليتيم القريب والمساكين المحتاج. قال الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝ [البلد: ١١-١٦].

هذا كتاب الله يدعونا بهذه الطرائق إلى إطعام الطعام .. فلنسارع إلى التحلي بهذه الخصلة الكريمة التي يقوى عليها كثير من الناس إن لم يتكلفوا؛ ذلك لأن

(١) أي: شديداً في ذلك.

التكلف يمنع من تحقيق هذه الخصلة ويقطع سبيل استمرارها.

إننا مدعوون إلى سلوك هذا السبيل العظيم ولو لم يكن مع الواحد منا إلا ثمرة واحدة فليتنق الله بشق ثمرة .. فإن لم يكن معه شيء أبداً فليأمر بإطعام الطعام والحض عليه؛ فذلك الحض من الأمر بالمعروف. إن المسلمين مجتمع واحد وإطعام الطعام يزيد المودة بين أفرادهم.

ما أروع هذا التوجيه التربوي العظيم وفقنا الله إلى العمل به.

وأودّ أن أقرر إن إطعام الطعام ليس وقفاً على الموسرين الأغنياء، بل هو مطلوب من كل من ملك زاداً. فرسول الله ﷺ يدعونا إلى أن نتقي النار ولو يشق ثمرة:

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق ثمرة، فمن لم يجد فكلمة طيبة»^(١).

ذلك أن طعام الرجل يكفي رجلين: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طعام الإثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طعام الواحد يكفي الإثنين، وطعام الإثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية»^(٣).

(١) رواه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٢)، ومسلم (٢٠٥٨)، والترمذي (١٨١٩)، وأحمد ٢/ ٢٤٤، ومالك في "الموطأ" ٢/ ٩٢٨.

(٣) رواه مسلم (٢٠٥٩)، والترمذي (١٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢٥٤).



ذلك لأن الواحد من الناس يأكل أكثر مما يحتاج إليه عادة، فإذا شاركه في طعامه مشارك أخذ كل منهما ما يحتاجه. وقد ورد الترغيب في الإقلال من الطعام وأن المرء تكفيه لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يكتف بتلك اللقيمات فليأكل ما يملأ ثلث معدته، ويترك للشراب ثلثاً وللنفس ثلثاً.

عن المقداد بن معديكرب^(١) رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».^(٢)

وعلى هذا مضى الأشعريون من أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا يقتسمون طعامهم القليل فيما بينهم .. فإذا كانوا في سفر أو غزوة وقل طعامهم فعلوا ذلك، وكذلك كانوا في الحضر يفعلون.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».^(٣)

إن صنيعهم هذا جعل رسول الله ﷺ يشني عليهم ويقول: «فهم مني وأنا منهم».

(١) رواه أبو كريمة الكندي وهو غير المقداد بن الأسود (بن عمرو)، قدم أبو كريمة في صباه من اليمن مع وفد كندة على النبي ﷺ وسكن الشام بعد ذلك ومات بحمص وهو ابن ٩١ سنة توفي سنة ٨٧هـ.

(٢) رواه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والترمذي (٢٣٨٠) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم ٣٣١/٤.

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٦).

عرفنا أنّ رسول الله ﷺ يرغب من كان لا يملك إلا ثمرة أن يتصدق بنصفها ليقى نفسه من النار، وما أعظمها من مكافأة جزيلة على عمل يسير، فإن لم يكن معه شيء فإنّ معه لسانه، فليستعمله في حصّ الآخرين على الإطعام، وقد ذكر ربنا أنّ الذي يكذب بالدين أي: بالجزاء والحساب يوم القيامة، هو الذي يدفع اليتيم بعنف عن حقه، ولا يحضّ غيره على إطعام المساكين.

إنّ هذا الحصّ لا يُعفى منه ناطق يعرف الكلام .. والدال على الخير كفاعله إن شاء الله تعالى.

إنّ كثيراً من بلاد المسلمين يسود فيها ما يشبه المجاعة، فعلى الأغنياء أن يطعموا، وعلى الناس أغنياء وفقراء أن يدعوا إلى إطعام الطعام ويحضوا على ذلك.

وأما ما جاء في السنة في الترغيب في إطعام الطعام فكثير جداً:

○ فمن ذلك الدعوة إلى إقامة وليمة بمناسبة العرس، فعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عندما علم أنه تزوج: «أولم ولو بشاة»^(١).

والوليمة بشاة أو أكثر أمر طيب، ولكن ليس شرطاً فيها أن تكون بشاة، بل يمكن أن تكون بأقلّ من ذلك، فقد روى البخاري بسنده إلى أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ أعتق صفيّة وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، وأولم عليها بحيس^(٢).

وروى البخاري أيضاً عن صفيّة بنت شيبة^(٣) قالت: أولم النبي ﷺ على بعض

(١) رواه البخاري (٢٠٤٩ - ٥٠٧٢)، ومسلم (١٤٢٧)، وأبو داود (٢١٠٩)، وابن ماجه (١٩٠٧)، والنسائي (٣٣٥١)، وأحمد ١٦٥/٣ و ١٩٠، ومالك في "الموطأ" ٢/٢٤٥، والدارمي ١٤٣/٢.

(٢) جاء في "المختار" الحيس: تمر يخلط بسمن وأقط.

(٣) صفيّة بنت شيبة اختلف فيها فقيل: إنها تابعة، وقيل إنها صحابية. وانظر تفصيل ذلك في "فتح الباري".



نسائه بمدّين من شعير.^(١)

وليمة العرس سنّة مؤكدة جداً، وذهب بعض أهل العلم من الشافعية إلى أنها واجبة، وهو قول أهل الظاهر.^(٢)

و(لو) في قوله ﷺ: أولم ولو بشاة ليست (لو) الامتناعية، وإنما هي للتقليل، وهذا في حقّ الموسر، والمستحب أن تكون الوليمة على قدر حال الزوج، ولينفق ذو سعة من سعته، والتكلف لا خير فيه فالموسر يكثر الذبائح وألوان الطعام ولكن بشرط أن يعلم أنها ستؤكل، أما ما يفعله بعض الناس من إلقاء ما يزيد في القمامة فهذا لا يجوز.. وليس هذا العمل من شكر النعمة. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وينبغي أن يدعى إلى هذه الوليمة - وليمة العرس - وإلى كلّ وليمة غيرها الأغنياء والفقراء. فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ كان يقول: «شرّ الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله». ^(٣)

وفي رواية ثابت الأعرج: «يمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأبأها».

ووقع في رواية للطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «بُسّ الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الشبعان، ويحبس عنه الجيعان». ^(٤)

(٣١) رواه البخاري (٥١٧٢).

(٢) "فتح الباري" ٩/ ٢٣٠.

(٣) رواه البخاري (٥١٧٧).

(٤) أورده ابن حجر في "فتح الباري" في شرحه للحديث المذكور، ولما رجعت إلى كتب اللغة لم أجد (الجيعان) بل وجدت (الجوعان) فتأمل.

ومعنى قوله: «ومن ترك الدعوة» أي: ترك إجابة الدعوة، وفي رواية ابن عمر المذكورة: «ومن دعي فلم يجب....».

وقوله: فقد عصى الله ورسوله هذا دليل على وجوب الإجابة، لأنّ العصيان لا يطلق إلا على ترك الواجب. ووقع في رواية لابن عمر عند أبي عوانة: «من دعي إلى وليمة فلم يأتها فقد عصى الله ورسوله».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا خُصَّ الغني وتُرك الفقير أمرنا أن لا نجيب»^(١).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «أنتم العاصون في الدعوة: تدعون من لا يأتي، وتدعون من يأتي»^(٢).

والمشهور من أقوال العلماء وجوب إجابة دعوة الوليمة، وشرط وجوبها:

١ - أن يكون الداعي مسلماً، مكلفاً، حرّاً، رشيداً.

٢ - أن لا يخصّ الأغنياء دون الفقراء.

٣ - أن لا يكون هناك منكر.

٤ - أن لا يكون هناك عذر يمنع المدعوّ من الحضور.

٥ - أن لا يسبق الداعي، فمن سبق تعينت إجابته.

ويدل على وجوبها أيضاً حديث ابن عمر المتقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا دعي أحدكم إلى وليمة فليجب».

وحديث أبي هريرة المتقدم. وهناك أحاديث عديدة وردت بإجابة الداعي مطلقة. من نحو حديث أبي موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «فكوا العاني، وأجيوا

(١) "فتح الباري" ٩ / ٢٤٥.

(٢) "فتح الباري" ٩ / ٢٤٥.



الداعي، وعودوا المريض»^(١).

وحديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «أمرنا النبي بسبع ونهانا عن سبع: أمرنا بعبادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإجابة الداعي. ونهانا عن خواتيم الذهب، وعن آنية الفضة، وعن الميآثر، والقسيّة، والاستبرق، والديباج»^(٢).

○ ومن ذلك الدعوة إلى إقامة وليمة يقيمها الأب بمناسبة ولادة ولد له ذكراً كان أو أنثى. وهذه الوليمة تسمى (العقيقة)، وهي سنة دلت عليها الأحاديث الصحيحة.

○ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قيل: يا رسول الله. ينسك أحدنا عن ولده؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «من أحب منكم أن ينسك عن ولده فليفعل، عن الغلام شاتان، وعن الجارية شاة»^(٣).

○ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم: «عن الغلام شاتان مكافئتان، وعن الجارية شاة»^(٤).

○ وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الغلام مرتين بعقيقته يذبح عنه يوم السابع، ويسمى، ويخلق رأسه»^(٥).

(١) رواه البخاري (٥١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٥١٧٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" برقم: ٧٩٦١، وأحمد ١٨٢/٢، وأبو داود (٢٨٤٢).

(٤) رواه الترمذي (١٥١٣)، وابن ماجه (٣١٦٣).

(٥) رواه الترمذي (١٥٢٢)، وأبو داود (٢٨٣٧)، وابن ماجه (٣١٦٥).

وقوله ﷺ: (مرتهنٌ) أي: أنَّ العقيقة لا بُدَّ منها. قال الإمام أحمد: (١)
معناه أنه محبوس عن الشفاعة في أبويه.

قال ابن القيم: [وظاهر الحديث أنه رهينة في نفسه، ممنوع محبوس عن خير يراد به، ولا يلزم من ذلك أن يعاقب على ذلك في الآخرة، وإن حُبس بترك أبويه العقيقة هما يناله مَنْ عَقَّ عنه أبواه، وقد يفوت الولد خيرٌ بسبب تفريط الأبوين وإن لم يكن من كسبه، كما أنه عند الجماع إذا سَمَّى أبوه لم يضرَّ الشيطان ولده، وإذا ترك التسمية لم يحصل للولد هذا الخط، وأيضاً فإنَّ هذا إنما يدلُّ على أنها لازمة لا بُدَّ منها، فشبه لزومها وعدم انفكاك المولود عنها بالرهن، وقد يستدل بهذا من يرى وجوبها كالليث بن سعد والحسن البصري وأهل الظاهر. والله أعلم]. (٢)
وفي إقامة هذه السنة إطعام الطعام، وهذا متصل بالكرم والسخاء والبذل، ولقد كان سلفنا الصالح في ذلك مثلاً أعلى.

ذكروا أن الحسن والحسين ﷺ قالا لعبد الله بن جعفر: إنك أسرفت في بذل المال. فقال: بأبي وأمي أنتما. إنَّ الله قد عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني. (٣)

وقال أبو مسلم الخولاني:

إنَّ المكارم كُلُّها حسن
والبذلُّ أحسن ذلك الحسن
إني لحر المال ممتهنٌ
ولحر عرضي غير ممتهن (٤)

(١) "زاد المعاد" ٢/ ٣٢٦.

(٢) "زاد المعاد" ٢/ ٣٢٦.

(٣) "العقد الفريد" ١/ ٢٢٥.

(٤) "العقد الفريد" ١/ ٢٢٩.



لقد تعهد رسول الله ﷺ أمته بالتربية حتى غدت أمة البذل والإنفاق وإطعام الطعام .. إذا كانت دعوة للتبرع تبرع بعضهم بماله كله، وبعضهم بنصف ماله. وإذا نزل بأحدهم ضيف أثره على نفسه وزوجته وأولاده، فباتوا طاويين وقدموا ما عندهم من الطعام له.

والإنسان بطبيعته مجبول على الشح. قال الله تعالى: ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

فكانت التربية النبوية سالكة سبيل الترغيب بالثواب العظيم في الآخرة للمنفقين، وبالخلف في الدنيا.

وسبيل التهيب بالعقوبة في الآخرة للممسك والتلف في الدنيا. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً»،^(١) ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً.

وسبيل القدوة الحسنة، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ **وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا** ﴿[الأحزاب: ٢١].

وأنشأت تلك التربية عاطفة الحنان في نفس المسلم على أخيه .. ليعود نفسه على الجود .. واستمر خلق السخاء والبذل والعطاء في هذه الأمة حتى يومنا هذا بشرط أن تتوافر الثقة بطالب العون .. ولقد رأينا نماذج رائعة من السخاء والبذل تمثلت في رجال صالحين ونساء صالحات يجودون بما يملكون، أو بالكثير مما يملكون لإخوانهم المنكوبين.

ومما يدل على مكانة موضوع إطعام الطعام وأهميته في الإسلام أن الأمر به كان وارداً في الخطبة الأولى التي ألقاها الرسول العظيم ﷺ يوم أن قدم المدينة.

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ. قدم رسول الله ﷺ. قدم رسول الله ﷺ، فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستبته عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(١).

وروى معنى هذا الحديث عن النبي ﷺ عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٢).

وروى معناه أيضاً عن النبي ﷺ أبو هريرة الذي قال: قلت: يا رسول الله! إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء.

قال ﷺ: «كل شيء خلق من الماء».

فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة.

قال ﷺ: «أطعم الطعام، وأفش السلام، وصل الأرحام، وصل بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام»^(٣).

أحب - وإن كان موضوعنا هو إطعام الطعام الوارد في الحديث - أحب أن أتأمل قول أبي هريرة رضي الله عنه للرسول ﷺ: «يا رسول الله! إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني» إن هذا القول يدل على الحب العميق الشديد للرسول ﷺ، وإن هذا

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤ - ٣٢٥١)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الترمذي (١٨٥٥) وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد ٣/٣٢٣، وابن حبان في صحيحه ٦/برقم: ٢٥٥٩، والحاكم ٤/١٢٩، وقال: صحيح الإسناد.



الذي عبّر عنه أبو هريرة بهذه الكلمة هو لسان حال أولئك الصحب الكرام، الذين لم يعرف التاريخ لهم نظيراً.. فرويته ﷺ سعادة وسرور، وطمأنينة للنفس، وحق لهم أن يكونوا كذلك، وهنيئاً لهم تلك السعادة وذاك السرور.. ثم ذكر أبو هريرة بعد ذلك سؤالين، والذي يتصل بموضوعنا هو السؤال الثاني. قال أبو هريرة: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة.

الجنة هي التي تشغل بالهم، وهي موضع اهتمامهم.. الجنة والوسيلة الموصلة إليها، فكثير من الصحابة كانوا يسألون هذا السؤال: ما الذي يدخلهم الجنة ويباعدهم من النار، وكان رسول الله ﷺ يجيبهم. فذكر رسول الله ﷺ لأبي هريرة أموراً أربعة إذا عملها دخل الجنة وهي:

- ١- إطعام الطعام.
- ٢- وإفشاء السلام.
- ٣- وصلة الأرحام.
- ٤- وقيام الليل.

وأودُّ أن أهمس همسة خفيفة في آذان الأخوات الفاضلات فأقول: أيتها الأخوات الفاضلات أعنّ أزواجكنّ وآباءكنّ على إطعام الفقراء والمساكين، فكثير من الرجال يشكون من معارضة بعضكنّ لهذا العمل، والله يثيبكنّ على تعبكنّ، إنكنّ إن أعنتنّهم كتتنّ شريكات الرجال في دخول الجنة إن شاء الله، ويا لها من سعادة عظيمة.

لقد ذكر رسول الله ﷺ أموراً أربعة لدخول الجنة، وإنها لأمر عظيم، وإنها ليسيرة على من يسرها الله عليه، وأول هذه الأمور إطعام الطعام.

وقرن ﷺ هذه الفضيلة وهي إطعام الطعام بفضائل جليلة وهي صلة الأرحام، وإفشاء السلام، وقيام الليل.

وذكر رسول الله ﷺ أن لمن يقوم بهذه الخصلة منزلة رفيعة في الجنة. فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا».

فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله ؟

قال ﷺ: «لِمَنِ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَبَاتَ قَائِمًا وَالنَّاسُ نِيَامٌ»^(١).

الكلمة الطيبة صدقة، والمسلم الصادق لا يفارقها وإذا خاطبه الجاهل قال: سلام عليك. فمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام كان محبوباً من الله، موسعاً عليه في الرزق، هذا في الدنيا، وله في الآخرة هاتيك الغرف في الجنة.

وقد وضع الإمام البخاري العنوان الآتي في أول كتاب الإيمان من صحيحه وذلك العنوان هو: (إطعام الطعام من الإسلام) وهذا يدل على أهمية هذا الأمر وعلى صلته بأمور الإيمان .. هذا وإنّ جزاء السخاء وإطعام الطعام في الدنيا جزاء كبير، ولثواب الآخرة أعظم بكثير.

إنك لترى الناس يحبّون السخيّ ولم يكن من الصالحين، وهذا سلاح يستخدمه الطواغيت أئمة الضلال .. فتراهم يعطون الناس العطايا، ويقدمون لهم المساعدات مهما كلفهم ذلك من المال والجهد، ليكسبوا ولاءهم وطاعتهم ودخولهم في مذاهبهم.

بلغني أنّ طبيباً منحرفاً في بلد من بلاد المسلمين يحمل فكرة معادية للإسلام

(١) رواه الطبراني في "الكبير" ٣/ ٣٠١ بإسناد حسن، والحاكم ١/ ٨٠ وقال: صحيح على شرط الشيخين.



كان يفتح باب عيادته للفقراء والمساكين، يعالجهم بالمجان، وقد يعطيهم الدواء إن كان عنده أو المال ليشتروه إن لم يكن عنده، ويبالغ في إكرامهم .. فكان ذلك سبباً في انتشار ضلالته ودعوته الهدامة. ومن المعروف أنَّ المنصرين (المبشرين) يستخدمون هذه الوسيلة في نشر ضلالهم والتشكيك في دين الإسلام دين الأمة التي يقيمون في بلادها، وهم - وا أسفاه - منتشرون في كثير من بلاد المسلمين وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وترى الناس يكرهون البخيل ولو كان من الصالحين.

وهذه فكرة جديرة بأن يهتم بها الدعاة إلى الله .. عليهم أن يكونوا أسخياء إن كانوا يريدون لدعوتهم القبول والنجاح .. أن يكونوا أسخياء وفق إمكانياتهم وبما يستطيعون .. ينبغي أن تكون أبواب بيوتهم مفتوحة للناس يتلقونهم بالبشاشة ويحلون مشاكلهم، ويبدلون لهم النصيح، ويحييون على أسئلتهم، ويحتملون ما قد يتعرضون إليه من المضايقة ويكرمونه.

قال يحيى بن معاذ: (تابى القلوبُ للأسخياء إلا حباً وإن كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغضاً وإن كانوا أبراراً).^(١)

أقول: فلماذا نهمل هذا السلاح الماضي والأسلوب الناجح .. في حياتنا الدعوية وفي حياتنا الأسرية؟

وقد قيل: (جود الرجل يحبّه إلى أضداده، وبخله يبغضه إلى أولاده)^(٢) وهذا أمر مشاهد ملموس.

هناك رجلٌ غني غنى كبيراً، ولكنه بخيل بخلاً كبيراً، يحرم أولاده وزوجه ونفسه من كثير من الطيبات التي أحلها الله من لباس وطعام ومسكن ومركب،

(١) "أدب الدنيا والدين" ١٦٩، و"أقوال مأثورة" ٢٧٩/١ - ٢٨٠.

(٢) رواه الطبراني في "الكبير" بإسناد حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

ويعيش عيش الفقراء، وهو يملك الملايين، فصار أولاده يكرهونه ويكرهون حياته،
ويستظرون موته بفارغ الصبر .. وعندما علموا بوفاته فرحوا أن جاءهم الفرج،
واغتبطوا أن هيئت لهم وسيلة العيش السعيد، وكانوا كأنهم في عيد.

إنّ الإسلام يريد أن يرسّخ أسباب المحبة بين المسلمين، ومن أجل ذلك دعا إلى
الإنفاق وإطعام الطعام .. دعا الناس كلهم غيهم وفقيرهم.

ولماذا يكسب المال؟ هل يكسب إلّا لسدّ حاجات الأهل والأقربين
والتوسعة عليهم، ولإنفاقه في سبيل دعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة المنجية لهم
من عذاب الله ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق؟

والسخاء إذا رُبي عليه الإنسان يصبح سجية لازمة له في حالتي الغنى والفقر.
حدثني صديق أنه زار بلداً من بلاد المسلمين، يغلب على أهله الفقر بسبب ما
ابتلاههم الله بالإشترابية المفقرة، فوجد من أهلها الكرم المدهش على قلة ما بأيديهم،
وهذا أثر من آثار التربية الإسلامية التي نشأ عليها الناس حتى غدت عرفاً من
أعرافهم، وعادة من عاداتهم.

والسخاء بأنواعه - ومنها إطعام الطعام - يغطي عيوب المرء مهما كانت
كثيرة، بينما البخل يظهر تلك العيوب بل يضخمها، والله درّ صالح بن عبد
القدوس الذي يقول:

ويظهر عيب المرء في النفس بخله ويستتره عنهم جميعاً سخاؤه
تغطّ بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب والسخاء غطاؤه^(١)

ومن هنا قيل: الجود حارس الأعراض.
والعرض هو موضع المدح والذم من الإنسان .. فالجواد يقيم من جوده حارساً
على عرضه ويجعل الناس يلهجون بالثناء عليه وذكره بالخير.

(١) "أدب الدنيا والدين" ١٦٩، و"أقوال مأثورة" ٢٧٩/١.



وسيدنا رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في السخاء وإطعام الطعام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن. فإن رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود من الريح المرسلة»^(١)

وعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سئل النبي ﷺ عن شيء قط فقال: لا»^(٢)

* * *

(١) رواه البخاري (٦- ١٩٠٢ - ٣٢٢٠ - ٣٥٥٤ - ٤٩٨٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٤).

الاطعام في رمضان

وقد حَضَّ الشارع الحكيم على إطعام الطعام أيضا بمناسبات عامة تتعلق بالشهور والأوقات التي تكون فيها عبادة من العبادات، فقد سبق أن ذكرنا أنَّ الحاج في بعض الحالات يجب عليه أن يذبح النسك ويطعمه الفقراء والمساكين، وكذلك فقد دعا رسول الله (ﷺ) إلى إطعام الطعام في رمضان، وذلك بتفطير الصائمين عندما يحين وقت الإفطار:

عن زيد بن خالد (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) أنه قال: «مَنْ فَطَّرَ صَائِماً كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْءٌ» (١).

وسارع المسلمون إلى كسب الثواب والأجر في تفطير الصائمين، وما تزال عادة تفطير الصائمين قائمة ومنتشرة في كثير من بلاد المسلمين؛ فالدعوات العامة التي يدعى إليها العشرات من الصائمين من الفقراء والمساكين والأغنياء كثيرة في رمضان، بل إنك لترى في بعض البلاد ناساً طيبين يقفون عند مفارق الطرق وعند إشارات المرور ساعة الإفطار يحملون بأيديهم أكياساً في كل منها تمرات و طعام طيب وفيها الماء البارد والشراب العذب، يوزعونها على الناس الذين أدركهم موعد الإفطار وهم في الطريق .. إنهم يقتدون في ذلك برسول الله (ﷺ) الذي كان أجود ما يكون في رمضان:

عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنَّ رسول الله (ﷺ) كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة (٢).

(١) رواه البخاري (٦٠٣٤).

(٢) رواه الترمذي (٨٠٧) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١٧٤٦).

(٣) رواه البخاري (١٩٠٢)، ومسلم (٢٣٠٧).



وكون رسول الله ﷺ أجود الناس، هذه حقيقة تؤيدها الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي تحكي الوقائع العديدة في حياته الشريفة ﷺ.

وقد ألفت كتب في شمائله المباركة. ومن هذه الشمائل جوده ﷺ. ومن هذه الأحاديث ما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقالت: أكسوك هذه؟ قال: «نعم». قالت: نسجتها بيدي فجئت لأكسوكها. فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فلبسها. فرآها عليه رجل من الصحابة. فقال: يا رسول الله. ما أحسن هذه ! فكسنيها. فقال ﷺ: «نعم».

فلما قام النبي ﷺ لام الرجل أصحاب النبي ﷺ قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها، ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يُسأل شيئاً فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلني أكفن فيها. قال سهل: فكانت كفنه. (١)

وفي هذا الحديث لفتات تربوية كثيرة، ففي هذا الحديث ما يدل على إشفاق الصحابة على الرسول ﷺ، والحرص على أن تتحقق رغباته ويكفى من أمور الدنيا، وهذا واضح من المرأة التي أدركت حاجة النبي ﷺ إلى بردة فنسجتها ثم قدمتها له، وكذلك هذا واضح من الصحابة الذين لاموا ذاك الرجل الذي طلب تلك البردة مع حاجة النبي ﷺ إليها.

وفي الحديث ما يدل على أنه ﷺ لا يُسأل شيئاً عنده فيمنعه من طالبه ولو كان بحاجة إليه، وهذا أعلى درجات الكرم، فلقد أعطى الرجل تلك البردة التي لم يلبسها

(١) رواه البخاري (١٢٧٧-٥٨١٠-٦٠٣٦).

إلا لحظات مع شدة حاجته إليها. وهكذا كان شأنه حتى وصفه صحابي بأنه كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

عن أنس رضي الله عنه قال: ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه. قال: فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة. (وفي رواية: عطاءً ما يخاف الفقر)^(١).

وفي الحديث ما يدل على محبة الصحابة للرسول ﷺ ورغبتهم في التبرك بآثاره وملابسه محبتهم له رجالاً ونساءً، فهذه المرأة التي نسجت له البردة، وكذلك الذي أراد أن يتكفن بها، وكذلك الرجال الذين لاموا ذاك السائل .. ومحبتهم ﷺ من الإيمان .. وقد بلغ الصحابة المستوى الأعلى في الإتيان بها.

وفي الحديث ما يدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يطلب شيئاً يحتاج إليه المسؤول، فقد يكون المسؤول أشدّ حاجة من السائل. إنّ السؤال في هذه الحالة قد يوقع السائل والمسؤول أو أحدهما في حرج هو في غنى عنه.

إنّ الرسول ﷺ قدوة لنا، فقد كان يطعم الطعام، فعلينا أن نتأسى به ﷺ وقد يتعذر أحياناً على المرء أن يدعو الناس إلى منزله، فعليه أن يستعين بالمطاعم، وهي الآن متوفرة في مستويات متعددة، فالدعوة إليها من إطعام الطعام الذي يترتب عليه دخول الجنة، وما أعظمها من مكافأة. «أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

ذكرنا خبر الصحابي الذي حمّل ضيف رسول الله ﷺ إلى بيته فلم يجد عند أهله إلا عشاء الأطفال .. فاتفق مع زوجته أن ينوموا الأطفال .. ثم يقدموا

(١) رواه مسلم (٢٣١٢).



الطعام، واتفق مع زوجته على أن تتظاهر بأنها تريد إصلاح السراج وتطفئه، فقامت بذلك كله، وجلسا معه يوهمانه أنها يأكلان، واستأثر الضيف بالطعام كله. ويحسن أن نورد نصّ الحديث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلُ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد - أي: الجوع والمشقة - فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا. وفي رواية للبخاري: [أنهن قلن: ما معنا إلا الماء].

وفي رواية لمسلم: [فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فأرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء]. فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يضيفه هذه الليلة؟ فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ لا تدخره شيئا. قالت: والله ما عندي إلا قوت الأولاد. فقال: هبي طعامك، وأصباحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته، فجعل يريانه كأنها يأكلان، فباتا طاويين. فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ضحك الله الليلة - أو عجب - من فعالكما. فأنزل الله: ﴿وَوُثِّرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].^(١)

لقد كان من نتيجة التزام سواد المسلمين بهذا الخلق الكريم تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس.

إنَّ المراد من الترغيب في إطعام الطعام أن لا يكون في المجتمع الإسلامي جائع ولا محروم، وقد دلَّت الأحاديث الصحيحة على أنه يحرم على الجار الغني أن يدع

(١) رواه البخاري (٣٧٩٨ - ٤٨٩٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

جيرانه جائعين وهو يتمتع بأكل ألوان الطعام الطيبة الشهية.

يجب على المسلم الغني - إذا علم أنّ جاره جائع - أن يقدم إليه ما يحتاج من الطعام والشراب.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم به»^(٢).

فقد نفى الرسول ﷺ الإيمان عن هذا الإنسان الذي قسا قلبه فهو كالحجر أو أشدّ قسوة.. فهو متبلد الحسّ، وذلك عندما يعلم أنّ جاره يتلوى من الجوع وهو شبعان ويشكو من التخمة. وهذا هو الذي رواه عن رسول الله ﷺ كل من ابن عباس وأنس رضي الله عنهما كما ذكرنا.

إنّ هذا التكافل والتعاون قد تحقق في عصر دولة النبي ﷺ كما دلّ على ذلك حديث الأشعرين الذي رواه البخاري ومسلم^(٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الأشعرين إذا أرمलो في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بإناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

(١) رواه البخاري في "الأدب المفرد" (١١٢)، والحاكم ١٦٧/٤.

(٢) رواه الطبراني، والبزار، وقال الهيثمي في "المجمع" ١٦٧/٨: وإسناد البزار حسن، وأورده الألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٤٦).

(٣) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).



وتحقق كذلك في عصر دولة الخلفاء الراشدين المهديين، وفي حقب عديدة من عصر الدولة الإسلامية التي امتدت قروناً وقروناً إلى العصر الحديث.

وبذلك نرى أنّ الإسلام العظيم سبق دعاوى معاصرة لم تتجاوز القول إلى العمل، إنّ هذه الدعاوى عندما قامت عليها دول أبقت الفقير فقيراً وجعلت الغني فقيراً، وملأت صدور الناس بالحقد، يحقد بعضهم على بعض.

إنّ المجتمع الإسلامي مجتمّع متعاون متكافل .. إنه كالجسد الواحد كما قرر ذلك رسول الله ص، ولو طبقت أحكامه وحُققَت كلها لما رأيت محتاجةً ولا جائعاً، ولا عارياً ولا مشرداً، ولا محروماً ولا مظلوماً. أو لم يأتكم النبأ المشهور أنّ الرخاء عمّ الوجود يوم أن حكم الإسلام وأنّ رجال الدولة لم يجدوا من يأخذ الزكاة.

إنّ الإنسانية بحاجة إلى الأخذ بهذا التوجيه التربوي وهو (إطعام الطعام) .. وإننا بحاجة ماسة في وقتنا هذا إلى سماع هذا التوجيه النبوي والإصغاء إليه والعمل بمقتضاه. إن هذا الزمان غلبت فيه الحضارة المادية المتطرفة على الدنيا وهيمنت على كثير من الناس.

إننا إن فعلنا ذلك وقينا أنفسنا ومجتمعنا من الفتن ومن الهزات المتعددة، ومن انتشار المبادئ الهدامة التي تجد في هذه الأوساط الجائعة أرضاً خصبة لقبول مبادئها، ومجالاً رحباً لنمو دعوتها التي يقبل عليها المنحرفون والمغرر بهم من الناس.

إنّ إطعام الطعام الذي دعا إليه الكتاب والسنة ممّا يؤكد المحبة بين المسلمين ويوثق عرى المودة بينهم، ويحقق التقارب الفكري والاجتماعي بينهم.

وهو ثمرة لاتصاف المرء بالسخاء، والإنفاق في ذلك وغيره مضمون له الخلف. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وقد ورد في الصحيح أنّ الملائكة تدعو للمنفق بأن يعطيه الله الخلف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(١).

وهذا مشاهد ملموس، فالكريم مرزوق، والبخيل مضيق عليه. فعلى المسلم أن يتوكل على الله وأن يثق بما وعد الله، ووعد الله حق لا يتخلف. قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. وعلى المسلم أن يعرض عن وسوسة الشيطان ويستعين بالله من ذلك، فقد أخبرنا ربنا تقدست أسماؤه بأن الشيطان يخوف المنفق من الفقر، والله سبحانه يعد المنفق بالخلف - كما ذكرنا آنفاً - قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقد يعتمد بعض الأولاد وبعض الزوجات إلى لوم المنفق وتحذيره من أن الإنفاق سيجعل أولاده فقراء.. وهذا التصرف غير صحيح، وعلينا مواجهته بالتوعية والتصحيح.. علينا أن نبين لهم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن ما بأيدينا من المال إنما هو من عند الله، وأن من فضل الله أنه سبحانه يثيب المنفق مع أن الذي ينفقه هو مما رزقه الله إياه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وأن نبين لهم أن ما ينفقه المسلم إن كان زكاة فهو واجب، وأن هذا المال المدفوع للفقراء ليس لنا بل هو حق للفقراء والمساكين. وإن كان غير زكاة فهو أمر مندوب دعا إليه الشرع وحض عليه، وهو من شكر الله على نعمه، وأن فاعل هذا رابح في الدنيا والآخرة.

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠)، وأحمد ١٩٧/٥.



وفي الشعر العربي القديم ذكرٌ للوم الزوجات أزواجهنَّ على الإنفاق، وفيه أنَّ الكرام لا يُصْغُونَ إلى ذاك اللوم، بل يمضون في طريق الجود ولإنفاق. وجدير بالنساء الصالحات أن يترفعن عن هذا وأن يكنَّ معيناتٍ لأزواجهنَّ على الخير.

قال الشاعر^(١):

ملأت يدي من الدنيا مراراً وما طمع العواذل في اقتصادي
وما وجبت عليّ زكاة مالٍ وهل تجب الزكاة على الجواد

قال أبو داود، قال قتبية: كان الليث بن سعد رحمته الله يستغلّ عشرين ألف دينار في كل سنة وقال: ما وجبت عليّ زكاة قط. ^(٢)

وقال عبد الله بن صالح: صحبت الليث عشرين سنة، لا يتغدى ولا يتعشى إلا مع الناس. ^(٣)

وأعرف عالماً جواداً كان لا يأتي عليه اليوم الرابع أو الخامس من الشهر حتى يكون قد أنفق الراتب، ويستدين باقي الشهر.

وقال سودة اليربوعي^(٤):

ألا بكرتُ ميَّ عليٍّ تلومني تقول ألا أهلك من أنت عائله
ذريني فإن البخل لا يُخلد الفتى ولا يهلك المعروف من هو فاعله

أجل إن البخل لا يجعل صاحبه خالداً لا في الحياة الدنيوية المعروفة، ولا في الحياة المعنوية. وكذلك فإن الجود لا يهلك الفتى بل يحييه معنوياً ويُبقي ذكره بعد موته.

(١) "العقد الفريد" ١/ ٢٣٣.

(٢) "سير أعلام النبلاء" ٨/ ١٣٣.

(٣) "سير أعلام النبلاء" ٨/ ١٣٤.

(٤) "الحماسة" لأبي تمام (عسيلان) ٢/ ٣٥٦.

وقال يزيد بن الجهم الهلالي^(١):

لقد أمرت بالبخل أم محمد
فقلت لها: حُثِّي على البخل أحمدًا
فإني امرؤ عودت نفسي عادة
وكل امرئ جارٍ على ما تعودا
يقول لزوجته لا تتعبي نفسك فأنا على الجود مقيم، وحُثِّي على البخل غيري،
فلقد عودت نفسي عادة وما أنا بمغبر عادي في البذل والعطاء.

وقال رجل من آل حرب^(٢):

باتت تلوم وتلحاني على خلقي
بانت تلوم وتلحاني على خلقي
قلت: أراك بما أنفقت ذا سرف
فيما فعلت فهلاً فيك تصريد
قلت: اتركيني أبغ مالي بمكرمة
يَبْقَى ثنائي بها ما أورد العود
إنّا إذا ما أتينا أمر مكرمة
قلت لنا أنفس حربية: عودوا
يشير الشاعر في خطابه لزوجته إلى حقيقة مهمّة وهي: أنّ المرء على ما عود نفسه، وقد
أحضرت الأنفس الشح، فإذا عود نفسه على الجود أضحي جواداً، وشرع يبين
لزوجته مزايا الإنفاق والجود في الحياة الدنيا.

وقال حاتم الطائي^(٣):

وعاذلة قامت عليّ تلومني
كأني إذا أعطيت مالي أضيئها
أعاذل أنّ الجود ليس بمهلكي
ولا مغلد النفس الشحيحة لومها
وتذكر أخلاق الفتى وعظامه
مغيّة في اللحد بال رسيمها
ومن يتدع ما ليس من ضيم نفسه
يدعّه ويغلبه على النفس ضيمها

(١) "الحماسة" لأبي تمام (عسيلان) ٣٥٤/٢.

(٢) "الحماسة" لأبي تمام (عسيلان) ٣٤٥/٢.

(٣) "الحماسة" لأبي تمام (عسيلان) ٣٤٢/٢، وضيم النفس: طبيعتها. وهناك أبيات كثيرة في هذا المعنى. انظر على سبيل المثال ما جاء في "الحماسة" الجزء الثاني الصفحات: ٢٥٩، ٣٠٥، ٣٢٤، ٣٢١، ٣١٦، ٣٠٩.



أقول: وهكذا فإنّ الأجواد لا يستمعون لتشيط المثبتين والمثبطات، ويؤمنون لهم عزمهم على الاستمرار في البذل والجود، ويذكرون لهم محاسن هذا السلوك.

ألا فلننفق في سبيل الله، ولنحي سنة إطعام الطعام ما استطعنا.

إنّ إطعام الطعام الذي رغب فيه رسول الله ﷺ ينبغي أن يكون خالصاً لله، لا تشوبه شائبة من الشوائب، فلا يكون من أجل السمعة فهذا من الرياء، ولا يكون من المجاملة ولا للخوف من العقاب .. شأن المسلم في ذلك شأنه في كلّ أعماله وأحواله، فالمسلم يقول: إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، يقول ذلك بلسانه، ويطبّقه في حياته وتصرفاته.

والإنفاق عندما يكون خالصاً لله لا يلمس المرء فيه لونا من المنّ ولا الترفع والاستعلاء على من ينفق عليهم، ويترك عندئذ الأثر الطيب من التوادّ والتحابّ، ويكون لفاعله الثواب الكبير.

وقد أعجبني تصرف عالم من أساتذتنا .. كان تصرفه جريئاً وصريحاً .. فقد جاءه رجل يطلب منه ومن آخرين كانوا معه جاء يطلب تبرعاً لجهة لم يسترح إليها ذلك العالم. فقال: أعتذر .. لا أريد أن أعطيك؛ لأنني إنّ أعطيتك لم يكن عطائي خالصاً لله، بل يكون للمجاملة وخوفاً من أوصف بالبخل، فأنا لم أسترح إلى موضوع التبرع وقل عني ما شئت .. إنني لا أريد أن أخسر الثواب وأخسر مالي .. أما الآخرون الذين كانوا معه فقد أعطوه مجاملة وهم غير مقتنعين.

قال صالح بن عبد القدوس^(١):

لا تجبّ بالعطاء في غير حق	ليس في منع غير ذي الحق بخل
إنّما الجود أن تجود على من	هو للجود والندی منك أهل

(١) "أدب الدنيا والدين" ص ١٨٢، و"نهاية الأرب" ٨٢/٣، و"أقوال مأثورة" ٢٩٤/١.

لماذا لا نملك الجرأة في الحق والصراحة في قوله ؟ إنَّ الناس في كثير من تصرفاتهم أسرى عادات وأعراف لم يأت بها الشرع.

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١).

حدثني أحد الدعاة قال: كنت معلماً وكان معنا زميل فاسق مجاهر بفسقه، فطلب مني مرة أن يتغذى عندي، فغلبني الحياء واستجبت لطلبه، وحددت موعداً لدعوته، وكان لي درس يومي في المسجد بعد صلاة الفجر أشرح فيه عدداً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا الحديث لا يأكل طعامك إلا تقي موضوع الدرس، فشرحت الحديث للناس وبيّنت معناه، ولما رجعت إلى البيت نظرت في أمري: كيف يكون موقعي أمام الله إن أنا خالفت ما أقول للناس، فقررت أن أضرب بكل الاعتبار عُرْضَ الحائط^(٢) واعتذرت من الرجل والحمد لله. فاستحسنتم عمله؛ ذلك لأنَّ توثيق الصلة بالفساق قد يقود إلى مجاراتهم وارتكاب ما يرتكبون من المعاصي والعياذ بالله تعالى. ولهذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل طعامنا أناس غير أتقياء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المرء - وفي رواية الرجل - على دين خليله، فلينظر أحكم من يخال»^(٣).

لا بُدَّ في العمل ليكون مقبولاً عند الله من أن يكون خالصاً لله، والله تبارك وتعالى يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو العليم الخبير.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥).

(٢) "لسان العرب" ١٧٦/٧.

(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٩٥)، وانظر "مختصر المقاصد الحسنة" ٩٣٤.



ورسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤمنٍ أطعم مؤمناً على جوع، أطعمه الله من ثمار الجنة. وأيما مؤمنٍ سقا مؤمناً على ظمأ، سقاه الله من يوم القيامة من الرحيق المختوم. وأيما مؤمنٍ كسا مؤمناً على عري، كساه الله يوم القيامة من حلل الجنة»^(١).

هذا الحديث ضعيف مرفوعاً، قوي موقوفاً، وهو يقرر معنى صحيحاً وهو أن العمل الخالص لله هو الذي يثاب عليه المرء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه:

- رجل استشهد، فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استشهدت فيك.

قال: كذبت، ولكن قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

(١) رواه أبو داود (١٦٨٢)، والترمذي (٢٤٤٩) واللفظ له، وقال الترمذي: [حديث غريب] أي: ضعيف. ثم قال: [وقد روي هذا عن عطية عن أبي سعيد الخدري موقوفاً، وهو أصح عندنا وأشبه]. ونقل المنذري كلام الترمذي في "الترغيب والترهيب" ٢/٤-٥ وقال: [وروي موقوفاً عن أبي سعيد وهو أصح وأشبه، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب "اصطناع المعروف" موقوفاً على أبي سعيد ولفظه: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظماً ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن كسا الله ﷻ كساه الله، ومن أطعم الله ﷻ أطعمه الله، ومن سقا الله ﷻ سقاه الله، ومن عمل لله أغناه الله...»].

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

- ورجل تعلّم العلم وعلمّه، وقرأ القرآن، فعرفه نعمه فعرّفها.
قال: فما عملت فيها؟
قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن.
قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.
- ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرّفها.
قال: فما عملت فيها؟
قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك.
قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»^(١).
- والعاقل هو الذي يبتغي الأجر والثواب في الإنفاق، أما السمعة وثناء الناس فهذا أمر موقوت، سرعان ما ينسى الناس الفعل وفاعله ويضيع عليه ماله دون فائدة باقية. أما إذا أثنى الناس على عمل إنسان وحمدوه على فعله - وهذا متحقق غالباً عند الإخلاص - فليطب بذلك نفساً، ولا يحمل ذلك الثناء الذي لم يتطلع إليه على الشك في إخلاص عمله.
- عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ! رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟
قال صلى الله عليه وسلم: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٢).

* * *

(١) رواه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٣)، والنسائي (٣١٣٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٤٢).



آداب الطعام

تحدثنا عن قوله ﷺ: «أطعموا الطعام». وكان حديثنا يدور حول المُطعم، وعمّا أعدّ الله لمن يحيي هذه السنة من الأجر والثواب.

ونودّ أن نتحدّث عن الأكل بصورة عامّة سواءً كان داعياً أم مدعوّاً، وسيقودنا هذا إلى ذكر آداب الطعام .. والرسول الكريم ﷺ الذي أدّب أمته وعلمّها ما ينفعها في دينها ودنياها علّمها كثيراً من الآداب التي ينبغي أن يأتي بها المسلم فيما يتصل من أمور الطعام.

• من هذه الآداب التي علمناها رسول الله ﷺ في شأن الطعام أن نسمي الله عند البدء بالطعام.

- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء. وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»^(١).

وقد حذرنا الله ورسوله من الشيطان، وهاهو ذا رسول الله ﷺ يهلمنا الوسيلة التي تحقق لنا إبعاد الشيطان عن بيوتنا ومطاعمنا. وما أسهلها من وسيلة، ألا وهي أن نقول: بسم الله عند دخول البيت وعند البدء بالطعام.

- وعن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وقد أكلت يوماً مع رسول الله ﷺ طعاماً، وكانت يدي تطيش في الصحيفة - وفي رواية: فجعلت أكل من نواحي الصحيفة - فقال لي رسول الله ﷺ:

(١) رواه مسلم (٢٨٨)، وأبو داود (٣٧٦٥)، وابن ماجه (٣٨٨٧).

«يا غلام. سمّ الله وكلّ يمينك وكلّ مما يليك»^(١).

في هذا الحديث فوائد تربوية كثيرة:

- منها أنه ينبغي أن يُنبه الطفل على الغلط الذي يقع منه فوراً، ويكون التنبيه بأسلوب لطيف محبب.
- ومنها أنه لا مانع من أن يأكل الأطفال مع الكبار لتنمية شخصياتهم واحترامها ولإسداء النصح والتوجيه إليهم.
- ومنها أن الحديث فيه توجيهات أخرى غير التسمية التي هي موضوع حديثنا، وسنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله، وهي الأكل باليمين، والأكل مما يلي الإنسان.

- عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً لم يضع أحدنا يده - أي: في الطعام - حتى يبدأ رسول الله ﷺ وإنا حضرنا معه طعاماً، فجاء أعرابي كأنما يُدفع، فذهب ليضع يده في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده. ثم جاءت جارية كأنما تُدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها. وقال: «إن الشيطانَ ليستحلّ الطعامَ الذي لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذا الأعرابي يستحل به، فأخذت بيده، وجاء بهذه الجارية يستحل بها فأخذت بيدها، فوالذي نفسي بيده إن يده لفي يدي مع أيديهما»^(٢).
- وفي هذا الحديث ما يدل على أدب الصحابة مع النبي ﷺ فما كان أحد يمدّ يده إلى الطعام حتى يبدأ رسول الله ﷺ. وهذا الأدب أدب عظيم ينبغي أن نعمل

(١) رواه البخاري (٥٤٣٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، وأبو داود (٣٧٧٧)، والترمذي (١٨٥٧)، وابن ماجه (٣٢٦٥).

(٢) رواه مسلم (٢٠١٧)، وأبو داود (٣٧٦٦).



به في دعواتنا وفي بيوتنا، فلا يبدأ أحد بالطعام حتى يبدأ كبير القوم أو الإمام - إذا كان موجوداً - أو العالم.

وفيه التحذير من أن يشاركنا الشيطان في أمر من أمورنا.

- وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره». ^(١)
وفي هذا الأدب - وهو التسمية - فوائد تربوية كثيرة:

١ - منها تذكير المسلم بالتزامه بالإسلام في شؤون حياته كلها، لأن المرء قد يعتريه نسيان أو غفلة فتأتي هذه الأذكار فتذكره بعبوديته لله وحاجته للاستعانة به واللجوء إليه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

٢ - ومنها ما يحصل له من الثواب والعز. أما الثواب فمعروف أن الذكر دعاء يثاب عليه فاعله، وأما العز فهو الذي يقرره الحديث القدسي الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم». ^(٢)

أي عزّ يمكن أن يكون أكبر من هذا العز؟ الله تبارك وتعالى يذكرك في نفسه وفي ملأ إن أنت ذكرته.

٣ - ومنها الحذر من الشيطان، وهذا المعنى مهم جداً، قذكر الله يبعد الشيطان واجتناب الشيطان يحقق البركة للإنسان فيما يأكل. وقد حذرنا الله في كتابه من

(١) رواه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، وابن ماجه (٣٢٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

الشیطان ومن اتباع خطواته.

٤ - ومنها أداؤه التسمية عند كل طعام يجعل لسانه رطباً بذكر الله، ويعوّده على الذكر دائماً، ويذكره بأنه متميز عن الآخرين الذين لا يذكرون اسم الله أبداً، ويجعله هذا الأداء للتسمية يربط بين الطعام الذي هو ضرورة يومية بالدين، وقد أدركت نفرّاً من الكبار في أسرتي من الرجال والنساء إذا أقبلوا على الطعام نتوا التقوي على طاعة الله، وسنذكر - إن شاء الله - أنّ الأعمال المباحة تنقلب بالنية الصالحة إلى طاعات.

• من هذه الآداب حمد الله عند الإنتهاء من الطعام:

- عن أنس رضي الله عنه أنّ النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(١).
- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله إذا أكل أو شرب قال: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربّنا». وفي رواية: «لك الحمد ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى»^(٢).
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت أنا وخالد بن الوليد على ميمونة فجاءتنا بإناء من لبن، فشرب رسول الله صلّى الله عليه وآله وأنا على يمينه، وخالد على شماله. فقال لي: «الشربة لك، فإن شئت آثرت بها خالداً». فقلت: ما كنت أوثر على سؤرك أحداً. ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من أطعمه الله الطعام فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه. ومن سقاه الله لبناً قليلاً: اللهم بارك لنا فيه وزدنا

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٤٥٨ - ٥٤٥٩)، والترمذي (٣٤٥٦)، وأبو داود (٣٨٤٩)، وابن ماجه

(٣٢٨٤)، والدارمي (٢٠٢٩).



منه». وقال رسول الله ﷺ: «ليس شيء يجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن». (١)

- وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غفر له ما تقدم من ذنبه». (٢)

• من الآداب التي جاء بها الشرع المطهر في موضوع الطعام والتي ينبغي أن يلتزم بها كُلُّ أَكَلٍ سواء كان مدعوّاً أم كان رجلاً يأكل في بيته .. هذا الأدب هو أن لا يذمّ طعاماً قدّم إليه .. إنه بذلك يكون مقتدياً بسيدنا رسول الله ﷺ الذي كان لا يذم طعاماً قط.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه. (٣)

وهذه خصلة كريمة تدل على فضل صاحبها وحسن خلقه وعلى ذوقه الرفيع. أيها السادة .. لتتصور قبح ذمّ الطعام المقدم إلى الإنسان نورد هذا العرض المتخيل .. تصوروا أنّ رجلاً دعا جماعة على طعام أنفق في إعدادهِ المال الكثير، والجهد الوفير. وتصوروا أن أحد المدعوين قام في أثناء تناول الناس الطعام يذم هذا الطعام بصوت عال.

(١) رواه الترمذي (٣٤٥٥).

(٢) رواه الترمذي (٣٤٥٨)، وأبو داود (٤٠٢٣)، وابن ماجه (٣٢٨٥).

(٣) رواه البخاري (٥٤٠٩)، ومسلم (٢٠٦٤)، والترمذي (٢٠٣١)، وأبو داود (٣٧٦٣)، وابن

ماجه (٣٢٥٩).

أقول كيف يكون وقع هذا الكلام على الداعي؟ إن وقع عليه سيكون مؤلماً جداً.. أليس من المحتمل أن يكون كلامه سبباً في انقطاع الخير والإطعام؟ وقد يكون كلامه سبباً لنشوء عداوة لدودة. ومهما يكن من أمر فإن هذا الموقف يدل على وقاحة وقلة أدب، ولو ادّعى قائله أنه كان يمزح.

إنّ على المدعو أن يلتزم بأداب الإسلام، فلا يتكلم بكلام مؤذ، ولا يتصرف تصرفاً محرّجاً لصاحب الدعوة.. هناك ناس يتدخلون فيما لا يعينهم فينتقدون، ويقدمون هذا ويؤخرون ذاك ويطلبون مطالب لا يقوى الداعي على تحقيقها، والرسول ﷺ يقول: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١).

والنهي عن ذم الطعام له صلة وثيقة بتربية الأطفال وأفراد الأسرة، فالطفل قد يدّعي أنّ الطعام الذي قدم له غير طيب، ويذمه من أجل أن يشتري له أبوه شيئاً من الوجبات السريعة التي قرر الأطباء أن الإكثار منها ضار ومؤذ. وقد يدعي الطفل أن هذا الطعام لا يحبه، يريد بذلك إثبات قوة شخصيته وأنه أضحى كبيراً يميز بين الطيب وغير الطيب من الطعام.

فما ينبغي لوالديه أن يستجيبا له، ويقرّاه على موقفه، بل عليهما أن ينبهاه على أن هذا أمر مذموم.. وبيّنا له أنّ هذا الطعام نعمة من الله أفاضها علينا، ولا يقدم له بديلاً.. إنه إذا ما عبّاه الجوع يقبل على ذاك الطعام راضياً. وعندما يكبر يكون إنساناً سوياً، لا يكره أكلة من الأكلات فلا يقع في حرج أمام الآخرين.

- أعرف رجلاً ذا مكانة كبيرة، وسمعة واسعة، لا يستطيع أن يأكل الجبن ولا أن يراه، ولا أن يسمع باسمه.. بل إن سمع أحداً يردد هذه الكلمة غضب وثار.. وإذا قُدّم له من قبل ناسٍ لا يعرفون كراهيته له صرخ لرؤية طبقه وخرج عن

(١) رواه أحمد ١/ ٢٠١، والترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).



طوره .. يفعل هذا دون شعور منه ولا تكلف. وكانت في بيته - بسبب ذلك - مشكلة، فهو لا يأتي بهذا الطعام إلى بيته ولا يسمح لأحد من أهله أن يأتي به، فكان أولاده إذا اشتهوا أن يأكلوه أتوا بشيء منه سرّاً وخبئاً وأخفوه عنه، فإن لم يستطيعوا إحضاره كانت في أنفسهم غصة وحسرة.

- وأعرف آخر لا يستطيع أن يأكل السمك ولا أن يراه، ودُعي مرة إلى طعام مع ناس في حفل كبير وكان على المائدة سمك فما كان منه إلا أن قام وجلس بعيداً، وترك الناس يستغربون موقفه ويظنون الظنون في تفسيره.

- وأعرف ثالثاً لا يأكل اللحم ولا يستطيع أن يأكل الرز إذا كان إلى جانبه.

- وأعرف رابعاً يكره معظم ما يعرف الناس من ألوان الطعام .. فأعرض عن الطعام الطيب، وأقبل على لون من الطعام جعله سميناً جداً، وكان أهله منه في عناء.

وأثر هؤلاء في الأسرة سئ، فقد يقتدي بهم أطفالهم.

قد يكون هناك حادثة حدثت لهذا الإنسان عندما كان صغيراً مرتبطة بهذا الطعام فشكلت عنده عقدة تهاون أهله في علاجها وسايروه في تحقيق رغباته حتى تكون عنده مزاج منحرف.

إنّ للإنسان أن يأكل ما يشتهي ويمتنع عما لا يحب ولكن لا يذمه حتى لا تكون عنده ولا عند أولاده عقدة نفسية. والأهل مسؤولون عن أولادهم في هذا المجال. والله أعلم.

أيها السادة .. إنّ كثيراً من الناس يتمنون أن يجدوا هذا الطعام الذي يذمه بعضنا .. فلنحمد الله على ما أعطانا ولنربّ أولادنا على ذلك.

- ومن الآداب أن يجتمع أهل الدار على الطعام، وكذا الرفقة في السفر.
- فقد روى أبو داود وابن ماجه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله! إنا نأكل ولا نشبع.
- قال ﷺ: «فلعلكم تفرقون؟».
- قالوا: نعم.
- قال ﷺ: «فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يبارك لكم فيه».(١)
- وهو أدب يتصل بعاداتنا، ويكون تناول الطعام فرصة للقاء وتبادل الآراء، وتوثيق الود .. هذا ما كانت عليه أسرنا إلى عهد قريب. أما أن يأكل كل فرد من أفراد الأسرة وحده فهذا شيء طارئ علينا، والتنظيم يحل كل مشكلة تحول بين الأسرة والاجتماع.
- إن كثيراً من الأسر لا يلتقي أفرادها على الطعام إلا في رمضان. ورسول الله ﷺ يقول: «اجتمعوا على طعامكم».
- إن أي عمل من المباحات يصبح من الطاعات بالنية الصالحة، فمن أكل ناوياً التقوي على طاعة الله كان أكله عبادة يثاب عليها.
- فلنجتمع على طعامنا ولننوبأكلنا التقوي على طاعة الله يبارك لنا في طعامنا ونكسب الثواب الجزيل.
- ومن آداب الطعام ما ذكره الإمام أبو داود^(٢) قال: (إذا كنت في وليمة فوضع

(١) رواه أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦).

(٢) قال ذلك عقب إيراده الحديث رقم ٣٧٦٤ وفيه: «فاجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه».



العشاء، فلا تأكل حتى يأذن لك صاحب الدار). وهذا أدب مهم جداً؛ لأنّ المسارعة إلى تناول الطعام قبل الإذن يدل على الجشع، وهو خلق ممقوت. قال الشاعر^(١):

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أبشع القوم أعجل
• ومن الآداب التي ينبغي أن مراعاتها الجلسة على الطعام، فلا يليق أن يأكل المسلم متكئاً أبداً، ولا سمياً إذا كان بين الناس.

- عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أكل متكئاً»^(٢).
- وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: ما رئي رسول الله ﷺ يأكل متكئاً قط، ولا يطاء عقبه رجلاً^(٣).

وقوله: (لا يطاء عقبه رجلاً) أي: لا يسير خلفه رجلاً، كما يفعل أصحاب الجاه والرياسة. ترى الواحد منهم يحرص على أن يسير خلفه عدد من الأتباع والخدم ونحو ذلك.

لقد كان رسول الله ﷺ بعيداً عن أوصاف المتكبرين، ومراد سيدنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان متواضعاً فلا يأكل متكئاً ولا يجعل الناس يمشون وراءه. وهذه الجلسة تدل على التكبر المقيت، وهي من الناحية الصحية في حالة الأكل غير حسنة ولها مضاعفات غير محمودة؛ ذلك لأن تسهيل نزول الطعام في حالة انتصاب الجسم يكون أيسر بسبب الجاذبية، وهناك نسبة

(١) هو الشنفرى، وهو شاعر جاهلي والبيت من قصيدة له تبلغ ٦٨ بيتاً وعرفت بلامية العرب، وقد شرحها كثيرون.

(٢) رواه البخاري (٥٣٩٨)، وأبو داود (٣٧٦٩)، وابن ماجه (٣٢٦٢)، والترمذي (١٨٣٠)

(٣) رواه أبو داود (٣٧٧١)، وابن ماجه (٢٤٤).

عالية من الناس عندهم خرق في الحجاب الحاجز، فهؤلاء يعانون أكثر من الأكل في هذه الجلسة.

• ومن الآداب التي يجب أن يراعيها المسلم الأكل باليمين:

وهذا الأدب أمر به رسول الله ﷺ وكان يحبه ويفعله .. بل كان يحب التيمن في شأنه كله:

روى البخاري^(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان النبي ﷺ يحب التيمن في طهوره وتنعله وترجله .. وفي شأنه كله.

والأحاديث التي جاء فيها الأمر بالأكل باليمين كثيرة نورد منها ما يأتي:

- عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا غلام سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك»^(٢).

- وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال: «كل بيمينك». فقال: لا أستطيع. قال ﷺ: «لا استطعت». ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه.^(٣)

- وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأكلوا بالشمال؛ فإن الشيطان يأكل بالشمال».^(٤)

(١) رواه البخاري (١٦٨ - ٥٣٨٠).

(٢) رواه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، وأبو داود (٣٧٧٧)، والترمذي (١٨٥٧)، وابن ماجه (٣٢٦٥).

(٣) رواه مسلم (٢٠٢١).

(٤) رواه مسلم (٢٠١٩).



- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله». (١)

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الأكل باليمين. وذكر ابن حجر ^(٢) أن الإمام الشافعي نصّ في الرسالة وفي موضع آخر من الأم على وجوب الأكل باليمين. ولكن الجمهور على أنها سنة مؤكدة جداً لثبوت الأمر بها والنهي عن الأكل بالشمال كما مرّ معنا في الأحاديث التي أوردناها.

في هذه الأحاديث النبوية الصحيحة توجيه تربوي كريم وهو الحُصّ على الأكل والشرب باليمين وكذلك كل أخذ وعطاء .. وهذا إن لم يكن عند الإنسان عذر من مرض أو جراحة، فإن كان شيء من ذلك فلا كراهة، لأن كل فرض يسقط عند العجز والمستحب من باب أولى.

إننا إن امتثلنا أمر الرسول ﷺ في هذا الأدب الإسلامي حققنا مخالفتنا للشيطان ومخالفتنا للكفار المعاصرين لنا، فهم يأكلون بالشمال، وقد أمرنا بمخالفة الفريقين. وقد غدا هذا الأدب الإسلامي عرفاً اجتماعياً في بلاد المسلمين، فترى الناس في مجتمعاتنا الإسلامية يستنكرون الأكل بالشمال وكذا استعمال الشمال مع الآخرين في التعامل.

والمسلمون أمة متميزة هن الأمم الأخرى، لهم آدابهم الخاصة في الطعام والشراب وفي شؤون الحياة كلها.

(١) رواه مسلم (٢٠٢٠)، والترمذي (١٧٩٩)، وأبو داود (٣٧٧٦).

(٢) "فتح الباري" ٥٢٢/٩.

- ومن الآداب التي ينبغي مراعاتها في الطعام أن يأكل المرء مما يليه، وأن لا تطيش يده في الصفحة فيأكل من نواحيها من هنا ومن هناك.
- وهذا أدب رفيع من آداب المائدة، والتزامه يدل على بعد المرء عن الجشع والنهم وعلى بعد المرء عن أخذ حق الآخرين، ويدل على اجتناب الأثرة (الأنانية). وفيه مراعاة للآخرين فقد تسقذر النفس الأكل مما خاضت فيه الأيدي.
- دلّ على هذا الأدب حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه المتقدم وفيه: كل مما يليك.
- وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا أكل أحدكم طعاماً فلا يأكل من أعلى الصفحة، ولكن ليأكل من أسفلها، فإن البركة تنزل من أعلاها»^(١).
- وفي رواية لابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «البركة تنزل وسط الطعام، فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه».
- ومن التوجيهات التربوية الرائعة التي تتصل بالطعام أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن لا يملأ المرء معدته .. بل حسبه لقيمات يقمن صلبه ويوفرن الحركة والنشاط؛ فإن كان مصمماً على الإكثار فثلث من معدته للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس .. وهذا من الإكثار.
- عن أبي كريمة المقداد بن معديكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٢).
- وهكذا كان آل النبي صلى الله عليه وسلم كما ورد في الأحاديث الصحيحة:

(١) رواه أبو داود (٣٧٧٢)، والترمذي (١٨٠٥)، وابن ماجه (٣٢٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨١) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وأحمد



- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما شبع آل محمد صلوات الله عليهم من طعام ثلاثة أيام حتى قبض. (١)

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد صلوات الله عليهم منذ قدم المدينة من طعام البرّ ثلاث ليال تباعاً حتى قبض. (٢)

وهذه صفة المؤمنين:

- عن نافع رضي الله عنه قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما لا يأكل حتى يؤتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلاً يأكل معه، فأكل كثيراً. فقال: يا نافع لا تدخل هذا عليّ. سمعت رسول الله صلوات الله عليه يقول: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». (٣)

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلاً كان يأكل أكلاً كثيراً، فأسلم فكان يأكل أكلاً قليلاً فذكر ذلك للنبي صلوات الله عليه فقال: «إنّ المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء». (٤)

ولفظه أنّ رسول الله صلوات الله عليه ضافه ضيف كافر، فأمر له رسول الله صلوات الله عليه بشاة فحلبت، فشرب، ثمّ أخرى فحلبت فشربه، ثمّ أخرى فشربه، حتى شرب حلاب سبع شياه. ثم أصبح من الغد فأسلم فأمر له رسول الله صلوات الله عليه بشاة

(١) رواه البخاري (٥٣٧٤).

(٢) رواه البخاري (٥٤١٦).

(٣) رواه البخاري (٥٣٩٣).

(٤) رواه البخاري (٥٣٩٦ - ٥٣٩٧)، ومسلم (٢٠٦٣)، وابن ماجه (٣٢٥٦)، والترمذي

(١٨١٩).

فحلبت فشرب حلاهما، ثم أمر له بأخرى فلم يستتمها. فقال رسول الله ﷺ: «المؤمن يشرب في معي واحد والكافر يشرب في سبعة أمعاء».
والعالم اليوم يشكو من انتشار البدانة، وينبري المختصون في بيان مخاطر السمن، ويقولون أن البدانة ترهق القلب، وتكون سبباً في تصلب الشرايين، وتقود إلى أمراض كثيرة خطيرة.^(١)

وقد قرأت تحقيقاً علمياً يثبت أن البدانة مرض فتاك يأتي في فتنه بعد (الأيدز) كما تدلّ على ذلك الإحصائيات.

والبدنين حمّال بصورة مستمرة، لا يضع حملة ليستريح .. بل هو حامل كمية كبيرة من الوزن ليلاً ونهاراً. والحمّال يأخذ أجرة على حملة بينما البدنين يدفع من صحته وسلامته الشيء الكثير.

والتوجيه النبوي يدلّ على الطريق الصحيح السليم في اجتناب البدانة .. وهو أن لا يملأ المرء معدته .. فإن ملأها ملأها بشر كبير.

إنك ترى كثيراً من الشباب والشابات والكبار يسرفون في الإكثار من الطعام .. إنك لا تراهم إلا آكلين؛ فهم يتناولون بعد الطعام الفواكه وأنواع الحلوى ثم يكرعون القوارير من المشروبات الغازية المحلاة ليهضموا ما أكلوا بزعمهم، ثم يتناولون النقول من الفستق واللوز والبندق والكاجو وما إلى ذلك، فلا يكف حنكهم عن المضغ أبداً حتى يغلبهم النوم !! ويتبع ذلك زيادة في الوزن يوماً بعد يوم حتى تحلّ بهم الأمراض وأسفاه.

(١) ومن آثار الإكثار من الطعام أن يصاب المرء بالتخمة وهي تسبب اختلالاً في وظيفة الهضم تنتج عنه آلام شديدة.



إِنَّ من المهلكات شهوة البطن، بها أُخرج آدم عليه السلام وحواء من الجنة؛ إذ تُهْمَا عن الشجرة فغلبتهما شهوة الطعام فأكلَا منها .. وكان ما كان.

وإذا عظمت هذه الشهوة واستولت على الإنسان فمن المحتمل أن تقوده إلى ارتكاب المحرمات من السرقة والاختلاس والرشوة والغش والخيانة والكذب ليحصل على المال الذي يوفر له ما يريد من الطعام والشراب.

الطعام ضرورة ولذة؛ فالعاقِل من أكل مستجيباً لداعي الضرورة، وكان مالكاَ زمام أمره بالنسبة إلى اللذة فلا ينساق وراءها. وإذا استطاع المرء أن يملك نفسه ولم يستجب لدواعي الشهوة من الاستكثار من الطعام الحلال كان أكثر ملكاً لنفسه في المعاصي والمحرمات.

قال سهل التستري: ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى. ^(١)

إِنَّ عُمُرَ الإنسان هو رأس ماله في هذه الحياة؛ فلننظر كم من الأوقات يُضيّعها المكثرون فقد يستغرق العشاء عند بعضهم ثلاث ساعات أو أربعاً.

وكم من الأوقات تضيع في جلب موادّ الطبخ من السوق ثم إعدادها وطبخها؟ وكذلك الحلويات.

العمر أثنى من أن نضيعه في ذلك.

قال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطن؛ فإنها ثِقْلٌ في الحياة ونَتْنٌ في الممات. ^(٢)

وقال لقمان لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. ^(٣)

(١) "إحياء علوم الدين" ٨١ / ٣.

(٢) "إحياء علوم الدين" ٨٠ / ٣.

(٣) "إحياء علوم الدين" ٨٠ / ٣.

وقال طبيب العرب الحارث بن كَلْدَة: المعدة بيت الداء والحمية والحمية رأس كل دواء.^(١)

وقال بعض الحكماء: الدواء الذي لا داء فيه أن لا تأكل حتى تشتهيه، وأن ترفع يَدَكَ عنه وأنت تشتهيه.^(٢)

هذا وإن كثرة الأكل تقسي القلب وتجعل هم الإنسان في الحياة أن يأكل، وهذا نزول بالإنسان إلى منزلة الحيوان .. إن الحيوان يعيش ليأكل ويستفاد من لحمه، أما الإنسان فإنه يأكل ليعيش، إنه يحمل أمانة أشقت منها الأرض والسموات والجبال.

• من التوجيهات التربوية التي وردت عن المربي الأعظم ﷺ في موضوع الطعام توصيته أن يُطعم المسلم الخادم الذي أعد له الطعام .. أن يطعمه منه كفايته أو لقمًا منه إن كان الطعام قليلاً .. وهذا التوجيه منتهى الذوق ومراعاة شعور الآخرين.

فهذا الخادم وقف وراء النار ساعة أو ساعات، وعانى من حرارتها ودخانها ما عانى، ثم عندما نضج الطعام شم رائحة الطعام الشهية .. أفلا يستحق بعد ذلك أن يأكل منه شيئاً وهو طازج؟ إن من البخل والظلم أن لا يذوق منه شيئاً.

إن الأدب الإسلامي الذي ربى رسول الله ﷺ عليه أتباعه أن يقعد الرجلُ خادمه معه ويطلب إليه أن يشاركه في الأكل.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلةً أو أكلتين أو لقمة أو لقتين، فإنه ولي حره

(١) "المقاصد الحسنة" ص ٣٨٩.

(٢) "إحياء علوم الدين" ٣/ ٨٤.



- وعلاجه». رواه البخاري وهذا لفظه^(١).
- ورواه مسلم ولفظه: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه، ثم جاءه به، وقد ولي حره ودخانه، فليقعه معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده أكلة أو أكلتين»^(٢).
- ورواه الترمذي وهذا لفظه: «إذا كفى أحدكم خادمه طعامه: حره ودخانه، فليأخذ بيده فليقعه معه، فإن أباي فليأخذ لقمةً فليطعمها إياه»^(٣).
- أقول: ولا يكفي أن يدعو لتناول الطعام معه، بل عليه أن يشكره على ما بذل من جهد في إعداده، ويشني على صنيعه، فهذا الشكر يجبر قلب الخادم ويشجعه على الاستمرار في إجادة صنع ما يكلف به.
- وشكر الناس على ما يعملون من الأعمال الطيبة مما حَضَّ عليه الرسول ﷺ:
- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٤).
- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً فوجد فليَجْزِ به، فإن لم يجد فليشئ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»^(٥).

* * *

(١) رواه البخاري (٥٤٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٦٦٣). والمشفوه: القليل؛ لأن الشفاه كثرت عليه حتى صار قليلاً.

(٣) رواه الترمذي (١٨٥٣)، وابن ماجه (٣٢٨٩ - ٣٢٩٠).

(٤) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد ٢/ ٢٩٥.

(٥) رواه أبو داود (٤٨١٣)، والترمذي (٢٠٣٤).

الإحسان إلى الخدم

أيها السادة .. إنَّ الخادم - ويطلق لغة على الذكر والأنثى - إنسان مثلنا، له الكرامة التي أثبتها الله سبحانه لبني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] .. وهذا الفريق من الناس اضطرتهم ظروفهم إلى أن يكونوا خدماً، فلنحمد الله أن عافانا من أن نكون مثلهم .. يجب أن نشكر الله على ذلك وعلى أن سخرهم لنا يقومون بشؤوننا من طبخ وتنظيف ورعاية للأولاد والحديقة وما إلى ذلك، وما يدري أحدٌ ماذا يكون حاله في مستقبل الأيام .. فشكر النعم يديمها، وكفرها يكون سبباً في زوالها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] ..

هؤلاء الخدم الذين أقبلوا من بلاد بعيدة وتركوا أهليهم وأولادهم وجاءوا ليتغون الرزق الحلال أناسٌ يستحقون منا الرعاية والرحمة، والعناية والشفقة، والإحسان .. فما ينبغي أن نقسوا عليهم .. لنذكر - إن ملكنا القدرة عليهم - قدرة الله علينا .. لنعاملهم كما لو كنّا نعامل ولداً من أولادنا، هل نكلفه بما لا يطيق؟ وعلينا أن نعنى بطعامهم، فإن كانوا يُسيغون طعامنا فلنطعمهم ممّا نأكل، وإن كانوا لا يُسيغونه فلندعهم يصنعون الطعام الذي يروق لهم. وعلينا العناية بمنامهم ولنتركهم حتى يأخذوا حظهم من النوم. وعلينا العناية بصحتهم، فإن مرضوا أعفيناهم من العمل وعالجناهم.

إنَّ هذا كله مستوحى من حديث رسول الله ﷺ المتقدم، فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبيّ الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ..

إنَّ علينا أن نرحمهم ليرحمنا ربنا. قال ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارحموا ترحموا،



واغفروا يغفر لكم»^(١).

ومن مظاهر رحمة المرء لخدامه العفو عنه إن أخطأ .. فهو بشر، ومن طبيعة البشر الوقوع في الخطأ. فإن لم يرد المرء أن يغفر له خطيئته فليصرفه ولا يعاقبه عقوبة مالية ولا جسدية ولا نفسية. يقول رسول الله ﷺ: «أرقاؤكم. أرقاؤكم. فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، وإن جاؤوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم»^(٢).

إنَّ هذا الخادم وهذه الخادمة - والخادم تطلق على الذكر والأنثى كما ذكرنا آنفاً - .. هذا الخادم الذي جعله الله تحت أيديكم، إن كان مسلماً فهو أخ لكم، قرر الله تبارك وتعالى أخوته في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقررها رسول الله ﷺ في قوله: «إخوانكم خولكم» وهذه الجملة قطعة من حديث صحيح يحسن بي أن أورد نص الحديث مع قصته:

روى البخاري ومسلم عن المعرور بن سويد رضي الله عنه أنه قال: لقيت أبا ذرٍ بالربذة، وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حُلَّةٌ - وفي رواية البخاري: رأيت عليه برداً وعلى غلامه برداً. لو أخذت هذا فلبسته كانت حُلَّةٌ، وأعطيته ثوباً آخر - فقال: سابيت رجلاً كان بيني وبينه كلام، وكانت أمه أعجمية، فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر! أعيرته بأمه؟». قلت: نعم. قال: «إنك أمرؤ فيك جاهلية». قلت على ساعتني: هذه من كبر السن؟ قال: «نعم» - وفي رواية مسلم: قلت: يا رسول الله! مَنْ سَبَّ الرجال سَبُّوا أباه وأمه. فقال ﷺ: «يا أبا ذر إنك أمرؤ فيك

(١) رواه أحمد ١٦٥/٢، والبخاري في "الأدب المفرد" (٣٨٠)، والبيهقي في "الشعب" (٦٨٤٤) وهو حديث صحيح، وانظر "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٤٨٢)، و"صحيح الجامع الصغير" (٨٩٧).

(٢) انظر "صحيح الجامع الصغير" (٩٠٥)، وقال: حسن. وانظر "مجمع الزوائد" ٢٣٦/٤.

جاهلية» - «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^(١).

وحديث أبي ذر هذا فيه وقفات تربوية كثيرة لكن الذي أردت من إيراد هنا قوله ﷺ: «إخوانكم خولكم» والخول:^(٢) الخدم والأرقاء. إذن هذه الخادمة التي عندك أختٌ لك أيتها الأخت الفاضلة، والخدام أخٌ لك أيها الأخ الكريم، فلتراعوا حق هذه الأخوة، وإن حقها الكبير.

ولقد امثل سيدنا أبو ذر رضي الله عنه أمر الرسول ﷺ فألبسه ممّا يلبس، ويبدو أن لباس كل من أبي ذر وخدامه كان نصف حلة - كما تدلّ على ذلك بعض الروايات التي أوردناها، وفيها أنّ أبا ذر لم يرض أن يأخذ ما على الخادم ليكون ما يلبسه حلة كاملة ويعطيه ثوباً آخر، رغبةً منه في المساواة التي فهمها من قوله ﷺ: «وليلبسه مما يلبس».

وأن كان هذا الخادم غير مسلم - وهذا لا ننصح به - فهو على أية حال إنسانٌ مكرمٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فأنت يا أخي وأنت يا أختي مدعوّان لعرض الإسلام عليه أو عليها، لا باللسان فقط بل باللسان والفعل والسلوك.

إنها فرصة لك أيها الأخ الكريم وفرصة لك أيتها الأخت الكريمة فرصة لتدعواهم إلى الإسلام، وذلك بأن تكون معاملتكم لهؤلاء الخدم وفق ما أوصى به

(١) رواه البخاري (٣٠-٢٥-٤٥-٦٠٥١)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) جاء في المختار: [وخول الرجل: حشمه. الواحد خائل، وقد يكون الحول واحداً، وهو اسم يقع على العبد والأمة... وهو مأخوذ من التخويل وهو التمليك].



رسول الله ﷺ.

إنَّ هؤلاء الخدم مساكين، يعيش كثير منهم في بلادهم مظالم عدّة، فإذا رأوا العدل والمعاملة الحسنة منكم مالوا إلى الدخول في الإسلام، وبعد قليل قد يصبحون مسلمين، وبذلك تنالون منزلة كبيرة عند الله، وتكونون ممن عناهم رسول الله ﷺ في قوله لسيدنا عمر رضي الله عنه: «... ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من تكون لك حمر النعم»^(١) إنه ليؤسفني أن تكون معاملة بعض المسلمين لهؤلاء الخدم منفرة من الإسلام، مباحدة لهم من الخير.

لقد فتح آباؤنا شطراً من الدنيا بأخلاقهم ومعاملتهم الحسنة، فدخل الناس الذين يعاشرونهم في دين الله أفواجاً.. أن أقطاراً عدة في آسيا وأفريقيا دخل أهلها في الإسلام دون أن تدخلها جيوش ودون أن يكون فيها قتال.

ورسول الله ﷺ في الحديث الذي أوردناه آنفاً يأمر المرء أن يمسك يد الخادم الذي أحضر الطعام ويجلسه معه ويطلب إليه أن يأكل معه؛ لأنّ هذا الخادم كفى المرء عناء الوقوف أمام النار والدخان، وأتاه بهذا الطعام.. فإن أبى الجلوس فليسكب له لقمًا منه.

- ومن الأمور التي يجب أن نراعيها في الخدم الذين جعلهم الله تحت أيدينا العناية بأمورهم الروحية، فنذكّرهم بما أوجب الله عليهم من الصلاة، وبالحجاب بالنسبة للنساء، وعلينا ألا نكلفهم شيء يصرفهم عن صلاتهم أو يشغلهم عنها.

عمل شاب صالح أجيراً عند تاجر فصار يقوم بخدمته في شؤونه الخاصة،

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢ - ٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

ويساعده في شؤون تجارته، فرآه التاجر - وكان من الصالحين - إذا نادى المؤذن يتغير لونه ويتطلع إلى الذهاب إلى المسجد وكان كأنها يقف على جمر، فأدرك التاجر ذلك منه، فناده وقال: اسمع يا بني، إذا أذن المؤذن فاذهب إلى المسجد فوراً دون أن تستأذني ولو كان بين يديك أي شغل، اسبقني وأنا ألحق بك، فسري عن الفتى وكاد يطبر فرحاً، وصار يذهب إلى المسجد أول الوقت، ويبقى في المسجد مردداً الأذكار الواردة ومؤديا السنن الرواتب المطلوبة .. وكان التاجر مسروراً أن عمل عنده أجير صالح .. وكان الناس في كثير من البلدان إذا رأوا الأجير أميناً صالحاً اتخذوه شريكاً لهم، ويكون بعد ذلك من أهل الثراء. هكذا كان آباؤنا وأجدادنا في معاملة الأجير والخادم.

وإذا لاحظنا أن الخادم غفل عن أداء الصلاة بسبب استغراقه في عمله كان علينا أن ننبه ونذكره ونطلب منه ترك العمل ليؤدي ما أوجب الله عليه.

- ومن الأمور التي يجب أن نراعيها في معاملتنا للخدم أن لا نقيم واحداً منهم عن طعامه .. بل ندعه في هذا الوقت يكمل طعامه .. وهذا أمر قد تغفل عنه بعض السيدات .. فلا تقيم لهذا الأمر وزناً .. وترى أن تنفيذ أمرها وإنجاز طلبها أهم .. وتقول يمكن أن يأكل فيما بعد .. وهذا القول غير سديد.

- ومن الأمور التي يجب أن نراعيها في معاملتنا للخدم ألا ننغص على أحد منهم نومه .. فلا يجوز أن نوقظه لأتفه الأسباب .. بل علينا أن ندعه يأخذ حظه من الراحة، فلا نوقظه إلا إلى الصلاة: صلاة الفجر.

- ومن الأمور التي يحسن أن نراعيها في تعاملنا مع الخدم إننا القول لهم، والتلطف في مخاطبتهم والتزام الأدب الإسلامي في الحديث معهم، فما يجوز أن نستعمل البذاءة معهم ولا مع غيرهم؛ لأنها ليست من صفات المؤمن كما ذكر



ذلك سيدنا رسول الله ﷺ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش البذيء»^(١).

والإنسان معرض للخطأ، والخادم إنسان، فما ينبغي أن يكون منا إساءة له، بل يجب أن نخاطبه بالكلمة الطيبة. والكلمة الطيبة لها تأثير كبير على من نعاشر من الزوجات والأولاد والزملاء والجيران والخدم والمراجعين، ويُنال بالرفق والود ما لا يُنال بالعنف والتجهم .. هذا ولنا - مع ذلك - أجر في استعمالنا الكلمة الطيبة التي عدها رسول الله ﷺ صدقة.

○ قال رسول الله ﷺ: «... والكلمة الطيبة صدقة»^(٢).

والكلمة الطيبة تقي صاحبها من النار.

○ فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرَةٍ فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^(٣).

○ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليُبغِضُ الفاحش البذيء»^(٤).

ما أحوجنا يا أيها السادة إلى ما يُثقل ميزاننا يوم القيامة ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٥) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾^(٦) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾^(٧) نَارُ حَامِيَةٍ ﴿[القارة: ٦ - ١١].

وعلينا أن ننأى بأنفسنا عن كل ما يجلب غضب الله علينا وبغضه لنا.

(١) رواه الترمذي (١٩٧٧) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) رواه البخاري (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٢) وقال: حديث حسن صحيح، وأبو داود (٤٧٩٩). والبذيء: هو

الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام.

إنَّ الكلمة البذيئة تؤذي صاحبها كما تؤذي من توجه إليه، وأي إيذاء للمرء أكبر من ييغض الله قائلها.

وإذا لم يوفق الإنسان إلى الكلمة الطيبة يقولها لمن حوله فليست فهذا أسلم له وأصون لسمعته.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيقل خيراً أو ليصمت»^(١).

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من أجم فاه بلجام^(٢)

ومن مصلحة العبد أن يحاسب نفسه ويراقبها عندما يخاطب الآخرين، لاسيما إن كانوا دونه في المكانة والوجاهة ..

تأملوا معي الحادثة الآتية: قال أبو بكر رضي الله عنه كلمة يسيرة لسلمان وصهيب وبلال يعظهم بها، فخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون أغضبهم وخوفه من ذلك، فخاف أبو بكر وذهب مسرعاً إليهم يسترضيهم، وإليكم الخبر كما جاء في صحيح مسلم: قال أبو بكر رضي الله عنه لسلمان وصهيب وبلال عندما بلغه أنهم قالوا كلمة شديدة لأبي سفيان رضي الله عنه جميعاً قال: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بالخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم؟ لئن أغضبتهم لقد أغضبت ربك». فأتاهم فقال: يا إخوانه أغضبتكم؟ قالوا: لا ويغفر الله لك يا أخي.^(٣)

(١) رواه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

(٢) "وقفات مع الأبرار" ص ٧٥.

(٣) رواه مسلم (٢٥٠٤).



نعم لقد خشي رسول الله ﷺ أن تكون تلك الكلمة التي قالها أبو بكر لهؤلاء
النفر من الصحابة آذتهم، مع أن كلمة أبي بكر لا شيء فيها، وهي حق، فأبو سفيان
شيخ قریش وسيدهم، فسارع أبو بكر إليهم وسألهم: هل أغضبتكم يا إخوانه؟
فأجابوا: لا والله ما أغضبتنا، ويغفر الله لك.

إنه تحذير خفيف .. من أغضب إخوانه المسلمين غضب الله عليه .. إن المسلم لا
يغضب إخوانه سواء كانوا من الضعفاء أم من الأقوياء، فعلينا أن نراقب أنفسنا مع
الخدم وغيرهم وأن نحميها من الوقوع في غضب الله.

○ يقول مصعب بن سعد بن أبي وقاص: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال
النبي ﷺ: «هل تنصرون إلا بضعفائكم». (١)

○ وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما تنصرون
وترزقون بضعفائكم». (٢)

والخدم من الضعفاء. فلا يجوز أن يرى المرء لنفسه فضلاً عليهم، فقد يقوده
ذلك إلى التكبر عليهم.

● هذا وإذا أراد الإنسان أن يتصدق فليجعل بعض صدقته إلى خادمه لأنه في الغالب
يستحق الصدقة فلو كان موسراً ما امتهن الخدمة في بلاد الغرب، وقد أدرك هذا
المعنى بعض الصالحين فلقد بلغني أنه اشترى لكل خادمة تعمل عنده أرضاً في
بلدها لتبنيها وتسكن فيها.

(١) رواه البخاري (٢٨٩٦)، وقال النووي في "رياض الصالحين" ح ٢٧٧: رواه البخاري هكذا
مرسلاً فإن مصعب بن سعد تابعي، ورواه الحافظ البرقاني في "صحيحه" متصلاً عن
مصعب عن أبيه.

(٢) رواه أبو داود (٢٥٩٤).

- وقد ورد النهي عن ضرب الخادم والرقيق.
- فعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضرب مملوكاً ظلماً أُقيد»^(١) منه يوم القيامة»^(٢).
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله.^(٣)
- ومن المستحسن أن يتغاضى الإنسان عن بعض الأغلاط التي يقع فيها الخادم، وعن بعض التقصير، وليقتد في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان متسامحاً مع خادمه.
- عن أنس رضي الله عنه قال: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قطّ أطيب من رائحة رسول الله ﷺ. ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أفن ولا قال لشيء فعلته: لم فعلتهن ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا.^(٤)



(١) في المجمع أقيـل. وهو تحريف.

(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات. المجمع ٢٣٨/٤.

(٣) رواه مسلم (٢٣٢٨).

(٤) رواه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩).



حفظ النعمة

من التوجيهات التربوية التي نقف عليها في الأحاديث الصحيحة حفظ النعمة وشكرها، وقد نصَّ كتاب الله الكريم على الأمر بشكر النعمة في آيات كثيرة، وحفظ النعمة من شكرها ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤]، فربطت الآية بين الشكر وإفراد الله بالعبادة.

ومن شكر النعمة أن يذكر المرء فضل الله عليه بهذه النعم الكثيرة التي لا تحصى ﴿وَأَنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [ابراهيم: ٣٤]، ولذلك نجد الأمر بأن نذكر نعم الله علينا. قال الله تعالى: ﴿ وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٦-٧]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. ونعمته سبحانه بعضها مادي ملموس، وبعضها معنوي مدرك، وكلا النوعين من النعم مطلوب شكره وذكره وحفظه. ولقد ذكر القرآن الإنسان الصالح الذي سأل ربه عندما بلغ أربعين سنة أن يلهمه شكر نعمته وأن يوفقه لعمل الصالحات، ووُفِّق لذلك .. فكان جزاء هذا الإنسان أن تقبل الله عنه أحسن ما عمل وأن كان من أهل الجنة. قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

إنَّ شكر الله على نعمته المحافظة عليها .. وإنَّ امتنانها والتهاون في حفظها كفرٌ بها، وقد يكون ذلك سبباً لضياعها وحرمان العبد منها.

قال أبو الحسن علي بن زريق البغدادي:

ومن غدا لا بساً ثوب النعيم شكرٍ عليه فإن الله ينزعه^(١)

وإن شكرها مستدع زيادتها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

إن حفظ النعمة مطلب شرعي .. وسأورد ثلاثة أعمال في حفظ النعمة أشارت إليها توجيهات الرسول ﷺ التربوية في الطعام.

ثلاثة تدل دلالة واضحة على المبالغة في حفظ النعمة كان رسول الله ﷺ يفعلها ويأمر بها .. وهناك غيرها .. وهذه الأعمال هي: لعق الأصابع، ورفع ما يقع على الأرض من الطعام وإمالة ما عليه من الأذى ثم أكله، ومسح الصحن حتى لا يبقى فيه شيء.

وإليك الأحاديث الواردة في ذلك:

- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث وقال: «إذا وقعت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان». وأمرنا أن نسلط الصفحة وقال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة»^(٢).
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليلعق أصابعه؛ فإنه لا يدري في أيتهن البركة»^(٣).

(١) "الوافي بالوفيات" ١١٢/٢، و"طبقات الشافعية" ٣٠٨-٣١١، و"ثمرات الأوراق" ص

١٩٢، و"أحلى ٢٠ قصيدة حب" لفاروق شوشة.

(٢) رواه مسلم (٢٠٣٤)، وأبو داود (٣٨٤٥)، والترمذي (١٨٠٣).

(٣) رواه مسلم (٢٠٣٥)، والترمذي (١٨٠١).



- وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم طعاماً فسقطت لقمة فليُمِطْ ما رابه منها ثم ليَطْعَمْهَا ولا يدْعُهَا للشيطان». (١)

(١) أما لعق الأصابع التي علق بها الطعام من رز وزيت وسمن وخضار وما إلى ذلك فهو مظهر من المظاهر الدالة على حفظ النعمة وعلى الحذر من إلقاءه في الأرض أو المغسلة.

فإذا كان المرء يحرص على ما علق بأصابعه من الطعام فما القول باللحم الناضج والرز الطيب الكثير؟ إنَّ المحافظة عليهما ينبغي أن تكون أكثر وأوفر.

(٢) وكذلك فإنَّ رفع ما يقع على الأرض من الطعام وإمالة ما عليه من الأذى ثمَّ أكْلُهُ يدل على حفظ النعمة وعدم التهاون بها.

إنه توحيه نبوي كريم .. فإذا وقعت منك ثمرة على الأرض وعلق بها شيء من التراب، فارفعها واغسلها وأمط عنها ما رابك منها ثم كلها هنيئاً مريئاً وإياك أن تتركها .. إنك إن تركتها تكن قد تركتها للشيطان - كما قال ذلك سيدنا رسول الله ﷺ - وهذا لا يليق بالمسلم.

(٣) ومسح الصحن حتى لا يبقى فيه شيء من الطعام حفظاً للنعمة والتماساً للبركة التي هي مطلب المسلم كما قرر ذلك رسول الله ﷺ.

وقد قرأت تحقيقاً قامن بعض المؤسسات الاجتماعية عن المطاعم، ونشرته وفيه: أن الذي يتبقى من الطعام في صحن مطاعم بلد من البلدان يكفي لإطعام الآلاف من الجائعين.

ومن المفاهيم الخاطئة الدخيلة علينا أن نترك شيء في الصحن يدل على تعفف المرء وبعده عن النهم، وعلى أن المرء من مستوى عال .. وهذا غير صحيح ومعارض

(١) رواه مسلم (٢٠٣٣-١٣٥)، والترمذي (١٨٠٢)، وابن ماجه (٣٢٧٩).

لما ثبت في السنة .

حدثني رجل كبير وهو ينتقد نفسه وينتقد هذا التصرف الآتي قال: كنت مسافراً في جماعة فنزلنا بيتاً في إحدى الدول الأوربية، فكانت صاحبة البيت تقدم لنا الطعام، فكنا نترك شيئاً في الصحون على عادتنا .. وفوجئنا بعد أيام أن المرأة نقصت الكمية التي كانت تقدمها، فلما سألناها عن ذلك قالت: إنكم تبقون نصيباً من الطعام غير قليل في الصحون، فدلني ذلك على أن ما كنت أقدمه أكثر من حاجتكم فنقصته، قال: فصرنا لا نبقي شيئاً خشية أن تنقص الطعام مرة أخرى .. فأعطتهم بذلك درساً عملياً في حفظ النعمة.

أيها السادة .. لقد درجت أمتنا على تعظيم النعمة حتى أصبح ذلك عادة ثابتة في أبناء هذه الأمة، فلا يمكن أن يرى رجل أو امرأة أو صبي من الأجيال الماضية كسرة خبز ملقاة على الأرض ثم يتركها ويمضي .. بل سرعان ما يرفعها ويضعها في مكان يمكن أن يستفيد منها إنسان أو طير أو هر أو كلب أو غيرها.

إن إلقاء ما يزيد من الطعام الطيب الطازج في القمامة أمر غريب عن عاداتنا وهو لا يجوز شرعاً.

لقد أدركنا الناس إذا فضل من طعامهم شيء أرسلوه إلى جيرانهم الفقراء، بل كان بعضهم يقدرون ما يكفيهم من الطعام فيرفعونه قبل أن يأكلوا ويرسلون الباقي إلى جيرانهم فيصل إليهم الطعام ساخناً، وبذلك لا يبقى من الطعام شيء يمكن أن يتعرض للفساد .. إذ لم تكن في تلك الأيام ثلاثيات.

وكانت هناك عادة طيبة بين الجيران وهي التهادي، فترى الجار يهدي جاره شيئاً من الطبخ ويقابله الآخر بالمثل، وهذه العادة أوصى بها رسول الله ﷺ:

○ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم شيئاً من المعروف، وإن لم يجد فليلق أخاه بوجه طليق. وإن اشترت لحماً أو طبخت قدراً فأكثر



مرقته واغرف لجارك منه»^(١).

ألا فلنُحْيِ هذه العادة فإنَّها من وصايا الرسول ﷺ.

وهناك أحاديث ضعيفة تحذر من امتهان النعم أوردُها مع الإشارة إلى ضعفها لأنَّ معناها يندرج مع ما تأمر به الشريعة في هذا الأمر:

○ عن أنس مرفوعاً: «أحسنوا جوار نعم الله جلَّ وعلا، ولا تنفروها؛ فإنه قلما زالت عن قوم فعادت إليهم»^(٢).

○ وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها فرأى كسرة ملقاة، فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: «يا عائشة. إكرمي كريماً، فإنها ما نفرت عن قوم قط فعادت إليهم»^(٣).

إنَّ آداب الطعام والشراب التي أوصى بها النبي ﷺ أتباعه كثيرة، وهي تدخل في التوجيهات التربوية النبوية .. وهذه الآداب وغيرها تسهم في تميز أمة الإسلام عن غيرها.

يكفي أن تشاهد إنساناً يأكل لتعرف إن كان من الملتزمين بآداب الإسلام من المسلمين أم كان من غيرهم ممن يقلد غير المسلمين.

فللشراب آداب سواء كان يشرب الإنسان الماء أو الحليب أو أي شراب مباح، وهذه الآداب تراعي النواحي الصحية والذوقية أعظم المراعاة .. فلننظر في هذه الآداب ولنعمل بها.

(١) رواه الترمذي (١٨٣٣) وهذا لفظه، وروى مسلم بنحوه (٢٦٢٥)، وابن ماجه (٣٣٦٢).

(٢) رواه أبو يعلى (٣٤٠٥).

(٣) رواه ابن ماجه (٣٣٥٣)، وابن أبي الدنيا في كتاب "الشكر" له بنحوه، ولفظه: «أحسني جوار

نعم الله عليك ...»، وانظر "إرواء الغليل" ٧/ ٢٠ - ٢١.

- ١ - فمن هذه الآداب التسمية عند الشرب.
 - ٢ - ومنها الشرب باليمين وقد سبق أن ذكرنا ما ورد في شأنها.
 - ٣ - ومنها أن لا يتنفس الشارب في الإناء.
 - ٤ - ومنها أن لا ينفخ في الشراب.
- فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه. (١)
- فقد يخرج شيء من ريق النافخ في الماء، فيشرب منه آخر فتصيبه العدوى إن كان النافخ مريضاً، أو يتقزز الآخرون من الشرب إن كان سليماً فيعزفون عن الشرب ولو كانوا بحاجة إليه.
- فالتنفس خارج الإناء سنة واردة عن رسول الله ﷺ.
- ٥ - ومنها أن يكون شربه على ثلاث دفعات يتنفس بين الشربة والأخرى.
- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا شرب تنفس ثلاثاً وقال: «هو أهناً، وأمرأ، وأبرأ». (٢)
- وهذا أمر مشاهد ملموس، فالشرب ثلاثاً والتنفس بين الشربات خارج الإناء يروي العطشان بكمية قليلة من الماء ويهناً بشربه.
- ٦ - ومنها أن لا يشرب المرء من ثلثة القدح.
- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من ثلثة القدح وأن يُنفخ في الشراب. (٣)

(١) رواه أبو داود (٣٧٢٨)، والترمذي (١٨٨٨)، وابن ماجه (٣٢٨٨).

(٢) رواه مسلم (٢٠٢٨)، وأبو داود (٣٧٢٧)، والترمذي (١٨٨٤).

(٣) رواه أبو داود (٣٧٢٢)، والترمذي (١٨٨٧).



إنَّ ثُلْمَةَ القَدَحِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُنْظَفَ وَلَا أَنْ يُزَالَ مَا فِيهَا مِنْ أَوْسَاحٍ وَجَرَائِمٍ،
فَالشَّرْبُ مِنْهَا يَعْرِضُ الشَّارِبَ إِلَى مَخَاطِرِ صَحْيَةٍ أَوْ إِلَى نَقْزِ يَعْتَرِي النَفْسَ، وَالشَّرْبُ
مِنْهَا يَأْبَاهُ الذَّوْقُ السَّلِيمُ وَتَأْبَاهُ النِّظَافَةُ.

إِذْنٌ فَيَحْسَنُ إِلَّا يَسْتَعْمَلُ الْكَأْسَ الَّذِي فِيهِ ثُلْمَةٌ لِلشَّرْبِ، يَلِ يَسْتَعْمَلُ لَأُمُورٍ
أُخْرَى، كَأَن تَوْضَعُ فِيهِ الْأَقْلَامُ أَوْ الْمَسَامِيرُ أَوْ مَا إِلَى ذَلِكَ، وَتَبْقَى الْكَؤُوسُ السَّلِيمَةُ
الَّتِي يُمْكِنُ تَنْظِيفُهَا لِلشَّرْبِ. وَقَدْ يَكُونُ الشَّرْبُ مِنْ ثُلْمَةِ الْإِنَاءِ سَبَبًا فِي أَنْ يَصِيبَ
الشَّارِبَ جَرْحٌ.

٧- ومنها أن لا يشرب المرء من فم الإناء.

○ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن الشرب من فم السقاء. ^(١)

○ وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن اختناث الأسقية. ^(٢)

وذلك خشية أن يكون في داخل فم الإبريق حشرة مؤذية أو وسخ. وقد
حدثني رجل قال: شربت من فم إبريق فيه شاي بارد، فما أن وضعت فم
الإبريق في فمي وأردت الشرب حتى لسعني زنبور كان في فم الإبريق،
فرفعت الإبريق عن فمي وإذا وجهي قد تورم كله حتى تغيرت ملامحي،
فأردت أن أدخل إلى أهلي فاستحييت أن أواجههم بهذه الصورة، فتلثمت ثم
دخلت، ولمت نفسي وقلت: هذا جزاء من يخالف توجيه توجيه النبي ﷺ ولا
ينتهي عما نهى عنه.

(١) رواه البخاري (٥٦٢٩)، والترمذي (١٨٨٤)، وابن ماجه (٣٤٢١)، وروى البخاري أيضاً
الحديث عن أبي هريرة (٥٦٢٨).

(٢) رواه البخاري (٥٦٢٦)، ومسلم (٢٠٢٣)، والترمذي (١٨٩٠)، وابن ماجه (٣٤١٨).
واختناث الأسقية أن تكسر أفواهها فيُشرب منها. أي: الشرب من أفواهها.

فعلى المرء أن يصب من السقاء أو الإبريق في كأس ويشرب ما يريد أن يشرب. ففي ذلك امتثال لنهي النبي ﷺ يؤجر عليه وصيانة له من أن تلسعه حشرة مخبئة في فم الإبريق.

٨- وأما الشرب قائماً فمكروه كراهة تنزيهية، ويجوز في بعض الأحيان دون كراهة جمعاً بين الأدلة.

- فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يشرب الرجل قائماً. (١)
- وعن النزال بن سبرة أن علياً رضي الله عنه دعا بماء فشربه وهو قائم ثم قال: إن رجلاً يكره أحدهم أن يفعل هذا، وقد رأيت رسول الله ﷺ يفعل مثلما رأيتموني أفعله. (٢)

وهكذا يتبين لنا أن الرسول الكريم ربى أمته على الخير في الأمور كلها صغيرها وكبيرها، وأن توجيهاته التربوية تصون المسلم من الأذى، وتبرز شخصيته الإسلامية واضحة، وتربط حياته بالدين الذي في الاستمساك به سعادته في الدنيا والآخرة. إن للمسلمين عاداتهم في الطعام والشراب والأفراح وفي سائر المناسبات، ومعظم هذه العادات معتمدة على أصل ديني من الكتاب والسنة.

فإذا كان القوم في دعوة على طعام، أو كانوا في مجلس تهنئة، أو كانوا في زيارة، أو نحو ذلك كان من الأمور الواجبة عرفاً أن يُقدّم لهم القرى، مهما كان نوع القرى، وهذا يختلف من بلد إلى بلد، ومن زمن إلى زمن. وتقديم القهوة أمرٌ لازمٌ شائع في كل ذلك، وقد يكون معها التمر، وكذلك فقد يقوم الشاي وأنواع الشراب شراب الفواكه.. فكيف تدار القهوة والشاي واللبن والشراب؟

(١) رواه مسلم (٢٠٢٤)، وأبو داود (٣٧١٧)، والترمذي (١٨٧٩)، وابن ماجه (٣٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٥٦١٥)، وأبو دود (٣٧١٨)، والنسائي (١٣٠).



لقد علمنا رسول الله ﷺ كيف يكون ذلك.

إنَّ على الساقى أن يبدأ بكبير القوم ثم يستقي من كان على يمينه ويمضي هذا الساقى مقدماً الأيمن فالأيمن حتى يأتي على القوم كلهم.

○ عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ أتى بلبنٍ قد شيب بهاء، وعن يمينه أعرابيٌّ وعن يساره أبو بكر، فشرب ثم أعطى الأعرابي وقال: «الأيمن فالأيمن»^(١).

وفي رواية للبخاري عن أنس رضي الله عنه أنَّه حُلبت لرسول الله ﷺ شاةٌ داجن وهو في دار أنس بن مالك، وشيب لبنها بهاءً من البئر التي في دار أنس، فأعطى رسول الله ﷺ القدح فشرب منه، حتى إذا نزع القدح عن فيه وعلى يساره أبو بكر، وعن يمينه أعرابي. فقال عمر - وخاف أن يعطيه الأعرابي -: أعطِ أبا بكر يا رسول الله عندك. فأعطاه الأعرابي ثم قال: «الأيمن فالأيمن»^(٢).

وفي رواية للبخاري: «الأيمنون الأيمنون، ألا فيمّنوا».

قال أنس: فهي سنة، فهي سنة ثلاث مرات. هذا لفظ البخاري.

وقد تكرر حدوث مثل هذه الواقعة في مجالس عدة للرسول ﷺ يكون على يمينه شباب صغار أو أعراب .. ويكون على يساره ناس كبار وأشياخ فلا يُعطي إلا من كان على يمينه.

○ فقد روى البخاري ومسلم^(٣) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ أتى بشراب، فشرب منه، وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ. فقال ﷺ للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟»

(١) رواه البخاري (٥٦١٩)، ومسلم (٢٠٢٩)، وأبو داود (٣٧٢٦)، وابن ماجه (٣٤٢٥).

(٢) رواه البخاري (٢٣٥٢).

(٣) رواه البخاري (٥٦٢٠)، ومسلم (٢٠٣٠).

قال: لا والله، لا أوتر بنصبي منك أحداً. فتله رسول الله ﷺ في يده.
ولنقف قليلاً عند قوله ﷺ للغلام: «أتأذن؟» الله أكبر! سيد الخلق، وخاتم
النبيين، وحبيب رب العالمين، يقول لغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء الأسياف قبلك؟
أي لطفٍ مثل هذا اللطف؟ وأي إكرام للصغار مثل هذا الإكرام؟ وأي رفع
لمعنويات الغلمان مثل هذا الرفع؟ وأي احترام لشخصية الصغير يعدل هذا
الاحترام؟ إن ذلك كله سيجعل تعلق الصغار برسول الله ﷺ تعلقاً كبيراً، وسينمي
شخصياتهم ويجعلهم رجالاً لهم رأيهم.

ولننظر أيضاً إلى جرأة هذا الغلام الأدبية وحسن اختياره، ومدى الحب لرسول
الله ﷺ الذي رُبي عليه، إذ قال بكل جرأة وحزم: لا والله لا أوتر بنصبي منك
أحداً. ولم يقل له الرسول ﷺ شيئاً بل دفع إليه الشراب.

إنه نموذجٌ سام من التربية، لا نلمس فيه سيطرة ولا فرضاً للرأي على
الآخرين.. بل نجد أنه ﷺ أتاح لصاحب الحق أن يتخذ الموقف الذي يراه.

ومن هذه الحوادث ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخلت أنا وخالد بن
الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناء من لبن، فشرب رسول الله ﷺ وأنا عن
يمينه وخالد عن يساره فقال لي: «الشربة لك فإن شئت آثرت بها خالدًا».
فقلت: ما كنت لأوتر على سؤرك أحداً.^(١)

(١) رواه الترمذي (٣٤٥٥)، وابن ماجه (٣٤٢٦)، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لابن عباس
«أتأذن لي أن أسقي خالدًا؟» وتمة الحديث كما في الترمذي: قال ابن عباس: ما أحب أن أوتر
بسؤر رسول الله ﷺ على نفسي أحداً.



ثم قال رسول الله ﷺ: من أطعمه الله الطعام فيقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه. ومن سقاه الله لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه. وقال رسول الله ﷺ: «ليس شيء يُجزئ مكان الطعام والشراب غير اللبن».

والتزام هذه القاعدة يريح الداعي والمدعوي، وينقذ المرء من الحرج، ويرفع العتب، فلا يستطيع أن يقول أحد: إن فلاناً قدّم عليّ من هو أصغر سنّاً مني أو أقل مكانة مني.

هذا وقد دلت الأحاديث على أنّ لصاحب الحق في الشرب أن يتنازل عن حقه ويقدم من ليس على اليمين. ولكن هذا ينبغي أن يكون برضاه الحقيقي. ثم بعد أن يشرب القوم يشرب الساقى لقوله ﷺ: «ساقى القوم آخرهم شرباً»^(١).



هناك موضوع مهم جداً يتصل بالطعام وآدابه .. ألا وهو غسل الأيدي قبل الطعام وبعده. وهل ورد في السنة النبوية شيء في هذا الموضوع؟ أقول: لم يرد في غسل الأيدي قبل الطعام وبعده نصٌ صحيح بالخصوص، والأحاديث التي وردت في هذا المعنى ضعيفة .. ومعلوم موقف العلماء من الحديث الضعيف، وقد نورد بعضها.

إنّ الشرع المطهر يدعو إلى النظافة دعوة حارة جداً حتى جعلها رسول الله ﷺ شرط الإيمان، وذلك في الحديث الصحيح:

(١) رواه أبو داود (٣٧٢٥) عن عبد الله بن أوفى، وابن ماجه (٣٤٣٤) عن أبي قتادة.

○ عن أبي مالك الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شرط الإيمان»^(١).

وفي ذلك بيان لمكانة النظافة في الإسلام، فرسول الله ﷺ يقرنها بأعظم ركن في الدين .. في الإيمان.

وقد أسهمت أحكام الإسلام العديدة في تعويد المسلمين على النظافة، فلا صلاة لمن لم يتوضأ:

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا صلاة لمن لا وضوء له»^(٢). قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]. فمن شروط صحة الصلاة التي فرضها الله على المسلمين خمس مرات في اليوم والليلة طهارة البدن والثوب والمكان.

ولقد أوجب الإسلام على الرجل والمرأة الاغتسال من الجنابة، وأوجب على المرأة اغتسال من الحيض والنفاس. وهذه أغسال واجبة بإجماع المسلمين.

وسنّ لنا رسول الله ﷺ الوضوء قبل النوم:

○ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك، آمنت بكتابك

(١) رواه أبو داود (١٠١)، وابن ماجه (٣٩٨)، وأحمد ٤١٧/٢، والحاكم ١٤٢/١.

(٢) رواه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، وأحمد ٣٤٢/٥ - ٣٤٣ - ٣٤٤، والدارمي ١٦٧/١.



الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن متَّ من ليلتك متَّ على الفطرة»^(١).

ويتأكد الوضوء للجنب عند النوم أو عند الأكل أو الشرب:

- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر قال: يا رسول الله. أيناام أحدنا وهو جنب؟ قال: «نعم إذا توضأ». رواه الجماعة^(٢)
 - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ وضوءه للصلاة. رواه الجماعة^(٣)
 - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان جنباً فأراد أن يأكل أو ينام يتوضأ وضوءه للصلاة^(٤).
 - وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ»^(٥).
- والوضوء يغسل المسلم الوجه واليدين والرجلين وهي الأعضاء التي تكون على احتكاك مع عوامل الجو.
- حدثني أحد مشايخي قال: قرأت في مطلع حياتي مقالاً عن العيون وعمّا يعترها من أمراض، فسألت عن أحسن طبيب للعيون، فدلوني على طبيب نصراني، فذهبت

(١) رواه البخاري (٢٤٧-٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩)، ومسلم (٣٠٦)، والترمذي (١٢٠)، وابن ماجه (٥٨٥)، والنسائي (١٠٠١)، وأحمد ١٧/٢.

(٣) رواه البخاري (٢٨٨)، ومسلم (٣٠٥)(٢١)، وأبو داود (٢٢٢)، وابن ماجه (٥٨٤)، والنسائي (٢٥٨)، وأحمد ٢٣٨/٦.

(٤) رواه مسلم (٣٠٥)(٢٢)، وأحمد ١٢٦/٦.

(٥) رواه مسلم (٣٠٨)(٢٧)، والترمذي (١٤١)، وابن ماجه (٥٨٧).

إليه وأنا لابس ملابس طلب العلم، فبعد أن فحصني قال: إطمئن ولا تَخَفْ على عينيك وأنت تغسل وجهك كل يوم مراتٍ عديدة كما يأمر بذلك دينكم. وهناك أغسال مسنونة، من أهمها غسل الجمعة الذي يذهب بعض أهل العلم إلى وجوبه على كل مكلف أخذاً بظاهر الحديث:

○ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»^(١).

وهناك حديث متفق عليه جعل الغسل حقاً لله على كل مسلم، وتدخل المسلمة في قوله: (كل مسلم) ولم يقيد الغسل بيوم الجمعة والحديث:

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده»^(٢).

وقد حَضَّ رسول الله ﷺ أتباعه المسلمين على أن يحرصوا على نظافة طرقاتهم ومجالسهم فيها، وحذّر من توسيخها ووضع القاذورات فيها أو التغوط فيها.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللعنين». قالوا: وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال ﷺ: «الذي يتخلى - أي يتغوط - في طرق الناس أو في ظلهم»^(٣).

(١) رواه البخاري (٨٥٨-٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٤١)، وابن ماجه (١٠٨٩)، والنسائي (١٣٧٧)، وأحمد ٦/٣، والدرمي ١/٣٦٠.

(٢) رواه البخاري (٨٩٧)، ومسلم (٨٤٩).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩)، وأبو داود (٢٥). قال إمام المنذري في "الترغيب والترهيب" ٦٧/١: [قوله: (اللاعنين) يريد الأمرين الجالبين للعن؛ وذلك أن من فعلهما لعن وشتم، فلما كانا سبباً لذلك أضيف الفعل إليهما فكانا كأنهما اللاعنان].



وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينظفوا أفنية دورهم وأن لا يلقوا فيها الكناسة والقمامة ونحو ذلك:

- عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله نظيف يحب النظافة، جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، طيب يحب الطيب، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود، تجمع الأكباء في دورها»^(١).
- وعن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تنظف أفنيتها»^(٢).

- وأمر النبي ﷺ بتنظيف المساجد وصيانتها عن النجاسة والبصاق ونحوهما^(٣).
- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله تعالى وقراءة القرآن»^(٤).

إنَّ ما تقدم من الأحاديث الصحيحة التي تحض على النظافة وتحذر من القذارة ليجعلنا نطمئن إلى أن نقرر أن غسل الأيدي قبل الطعام وبعده من الأمور المحموده التي تشير إليها أحكام الشريعة العامة، ولا سيما وقد ثبت أن الوقاية من الأمراض تقضي أن يغسل المرء يديه قبل الطعام. وأما غسلهما بعد الطعام وقفت على حديث يحذر أن يبيت الإنسان وفي يده رائحة الدسم من الطعام.

(١) رواه الترمذي (٢٧٩٩)، والدولابي في "الكنى" ١٣٧/٢، وقال الألباني في "جلباب المرأة المسلمة": حسن. والأكباء: الكناسة.

(٢) رواه الطبراني في "الأوسط" (٢٧٩٩)، وقال الألباني: حسن. انظر "صحيح الجامع الصغير" (٣٩٣٦)، و"السلسلة الصحيحة" (٢٣٦).

(٣) رواه مسلم (٥٤٩).

(٤) رواه مسلم (٢٨٥).

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بات وفي يده ريح غَمْرٍ فأصابه شيء فلا يلو من إلا نفسه». (١)

إنَّ رسول الله ﷺ يدعو أمته إلى النظافة. والحديث يدل على أنَّ القذارة قد تأتي بالحشرات والحيات والهوامَّ على وجهه وجسمه فتؤذيه، ورغَّب في أن يبيت وليس في يده ولا فمه بقايا من الطعام .. فإزالة آثار الطعام تبعد الإنسان عن التعرض إلى الجراثيم وتقي الأسنان من التسوس. وتصونه عن الهوام. فصلوات الله وسلامه على البشير النذير الرؤوف الرحيم.

وقد ورد حديث ضعيف في غسل الأيدي قبل الطعام وبعده:

○ عن سلمان رضي الله عنه قال: قرأت في التوراة أنَّ بركة الطعام الوضوء بعده. فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأخبرته بما قرأت في التوراة فقال رسول الله ﷺ: «بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده». (٢) وهو حديث ضعيف.

وقد ذكرنا آنفاً أنَّ من السنَّة الوضوء قبل النوم قلت: وقد قرأت في بعض الصحف مقالة تدعو من جلس إلى التلفاز طويلاً إلى غسل وجهه قبل أن ينام، وذكرت تلك المقالة أنَّ ذلك يقيه من آثار يحتمل أن تصيب وجهه كالبقع والنمش. وما أدري نصيب هذا الكلام من الصحة .. فإن صحَّ طيباً وعلمياً كانت السنة محققة للمطلوب والله أعلم.

وقد ورد عنه ﷺ تخمير الإناء عند المنام وعدم تركه مكشوفاً.

(١) رواه البخاري في "الأدب المفرد" (١٢٢٠)، والترمذي (١٨٦٠)، وأبو داود (٣٨٥٢)، وابن ماجه (٣٢٩٧)، والحاكم ٤/ ١٣٧، وانظر "السلسلة الصحيحة" (٢٩٥٦). والعَمْر: رائحة الدسم من أكل اللحم والبيض ونحوهما.

(٢) رواه الترمذي (١٨٤٦)، وأبو داود (٣٧٦١).



○ عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أغلقوا الأبواب، وأوكوا السقاء، وأطفئوا المصباح فإنَّ الشيطان لا يفتح غُلْقاً، ولا يحلِّ وكاءً، ولا يكشف آنية، وإنَّ الفويسقة تضرم على النَّاس بيوتهم»^(١).

* * *

(١) هذا لفظ الترمذي (١٨١٢)، ورواه البخاري (٣٢٨٠ - ٣٣٠٤ - ٣٣١٦)، ومسلم (٢٠١٢)، وأبو داود (٣٧٣١ - ٣٧٣٣)، وابن ماجه (٣٤١٠). وقد شرحت الحديث شرحاً وافياً فيما سبق.

إكرام الضيف

ومما يتصل بإطعام الطعام أوثق الاتصال الحديث عن الضيف: عن إكرامه واستقباله بالبشاشة والمؤانسة، وقراه، والحرص على سروره. ولنذكر بعضاً مما ورد في هذا الموضوع:

○ عن أبي شريح العدوي رضي الله عنه قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ». قال: وما جائزته يا رسول الله؟ فقال: «يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ولا يحلّ له أن يثوي عنده حتى يُجرجه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١).

○ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار».

قلت: بلى. قال: «فلا تفعل، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ؛ فَإِنَّ لْجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لْعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لْزُورِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لْأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...»^(٢).

إنّ الإنسان اجتماعي بالفطرة، يحبّ أن يزور وأن يُزار، ويكون هذا غالبا بين المتعارفين ومن أبناء البلد الواحد أو القبيلة الواحدة، وقد مضى الناس في الزمن القديم والحديث على تقديم القرى للزائر، وقد يكون شراباً وقد يكون طعاماً.

(١) رواه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (بعد الحديث ١٧٢٦)، والترمذي (١٩٦٧ - ١٩٦٨)،

وابن ماجه (٣٦٧٢). وروى البخاري بنحوه عن أبي هريرة (٦١٣٦ - ٦١٣٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٣٤)، ومسلم (١١٥٩).



قال قيس بن عاصم المُنْقَرِي^(١) رضي الله عنه:

إذا ما صنعت الزاد فالتمس له أكيلاً، فإني لست أكله وحدي
أخاً طارقاً، أو جار بيت؛ فإني
وكيف يسيعُ المرء زاداً، وجاره
وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما في إلا تلك من شيمة العبد^(٢)

وقد يسافر المرء، ويمر في الطريق على أقوام ينزل في دارهم حيناً من الوقت ثم يمضي، ولا يعرفهم. إن لهذا الضيف حقاً على من نزل فيهم قضت به الشريعة السمحة كما جاء في الأحاديث الصحيحة الثابتة. وإكرام الضيف مما يُمدح به الرجال. وقد ألفت كتب في ذلك.

ومن حق الضيف على المضيف أن يلقاه بالبشاشة والإقبال، وأن يقدم له القرى، وأن يتحدث إليه، وقد قيل إن الحديث جانب من القرى.

قال إسحاق بن حسان الخزيمي (ت: ٢١٤هـ):

أضحك ضيفي قبل إنزال رحله ويُنْخِص عندي والمكان جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب^(٣)

وينبغي أن يحقق المضيف لضيفه ما يسره من الهدوء والفراش والطعام والماء وما إلى ذلك، وقد يطلقون على الضيف الجار؛ لأنه إذا نزل بهم كان جاراً لهم.

(١) صحابي جليل كان شاعراً ساد قومه في الجاهلية وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها، وفد على

النبي ﷺ في وفد تميم سنة ٩ فأسلم. توفي بالبصرة نحو سنة ٢٠.

(٢) "الحماسة البصرية" ١٢٩٨/٣، وانظر "حسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة" تأليف

جابي زاده وعلي فهمي ص ٣٣٠.

(٣) "الحماسة البصرية" ١٣٠٠/٣.

قال الشاعر:

لحا الله من يمسي بطيناً وجاره
لعمرك ما ضيفي عليّ بهيّن
من الجوع محنيّ الضلوع خميص
وإني على ما سرّه لحريص^(١)

والكريم من الرجال يفرح بالضيف ويرى أنّ له فضلاً عليه أن اختاره ونزل به،
ويرى أنّ ما يقدمه له مهما كثر قليل؛ لأنّه يفنى وأنّ ما يمنحه الضيف من الثناء
كثير باق.

قال غربال بن مجمع الحنفي:

ألا ربّ ضيف طارق قد قرئته
وجدت له فضلاً عليّ بقصده
وأنسته قبل الضيافة بالبشر
إليّ، يراني موضع الحمد والأجر
فزودته مالاً يقلّ بقاؤه
وزودني شكراً يدوم على الدهر^(٢)

وقال عبد القيس بن خفاف:

واعلم بأنّ الضيف يوماً مخبرٌ
بمبيت ليلته وإن لم يسأل^(٣)

○ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: قلنا يا رسول الله إنك تبعثنا، فننزل بقوم، فلا
يقروننا فما ترى فيه؟

فقال لنا رسول الله ﷺ: «إن نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف
فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم». ^(٤)

● إنّ حديث عقبة يدلّ ظاهره على وجوب الضيافة، وأنّ المعول عليه لو امتنع من
الضيافة أخذت منه قهراً. ووهذا قال الإمام الليث مطلقاً.

(١) "الحماسة البصرية" ٣/ ١٣٠١.

(٢) "الحماسة البصرية" ٣/ ١٣١٥.

(٣) "الحماسة البصرية" ٣/ ١٣٠١.

(٤) رواه البخاري (٢٤٦١-٦١٣٣)، ومسلم (٣٧٥٢)، وابن ماجه (٣٦٧٦).



- وخصه الإمام أحمد بأهل البوادي دون القرى.
- وقال الجمهور: الضيافة سنة مؤكدة. وأجابوا عن حديث عقبة بأجوبة^(١) عدة، أقواها أن الحديث محمول على المضطرين.
- وبحث العلماء في معنى قوله ﷺ: «جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام»^(٢). فاختلفوا هل الثلاثة أيام غير اليوم الأول (الجائزة) أو يعد منها؟ فذهب بعضهم إلى أنه يعد منها، وهذا القول هو الراجح؛ لأننا لو قلنا الثلاثة غير الأول لأضحى العدد أربعة، والرسول ﷺ يقول: «والضيافة ثلاثة أيام».
 - وتسمية ما زاد على الثلاث صدقة للتنفير من بقاء الضيف أكثر من ثلاثة أيام؛ ذلك لأن كثيراً من الناس ولا سيما الأغنياء يأنفون من أكل الصدقة.
 - وقوله ﷺ: «ولا يحل له أن يثوي حتى يُجرجه» فيه مراعاة للمضيف للتخفيف عنه. وفي رواية لمسلم^(٣): «ولا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه». قالوا: يا رسول الله كيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده وليس عنده ما يقريه.
- وهذا المعنى يجب أن يتنبه إليه الأصدقاء في ديار الغرب، فقد علمت أن أحدهم جاء بزوجه وأولاده يزور صديقه وقضى عنده الإجازة الطويلة حتى أوقع صاحبه في الحرج، وقامت بين الرجل صاحب الدار وزوجه مشكلة بسبب هذا الضيف الثقيل.

(١) انظر هذه الأجوبة في "فتح الباري" ١٠٨/٥.

(٢) انظر "فتح الباري" ٥٣٣/١٠، و"المغني" ٣٥٢/١٣ طبعة هجر.

(٣) مسلم (١٧٢٦).

- قال أحمد^(١): والضيافة على كل المسلمين، كل من نزل عليه ضيف كان عليه أن يضيفه. قيل: إن ضاف الرجل ضيف كافر يضيفه؟ قال: قال النبي ﷺ: «ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم»^(٢).

هذا وهناك كتاب عنوانه إكرام الضيف لأبي إسحاق الحربي راوية أبي بكر محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم الأنباري، جمع فيه الأحاديث الواردة في معنى إكرام الضيف. طبعته المطبعة السلفية وعدد صفحاته ٢٨ صفحة.

* * *

(١) "المغني" لابن قدامة ١٣/ ٣٥٢.

(٢) رواه أبو دود (٣٧٥٠) عن أبي كريمة، وابن ماجه (٣٦٧٧)، وأحمد ٤/ ١٣٠ - ١٣٣. وهو حديث صحيح.



المزاح

ما ترك رسول الله ﷺ أمراً من الأمور التي تحقق التحاب بين المسلمين وتوثق اجتماعهم على الخير والحق إلا أمر به وحض عليه، ولا أمراً من الأمور التي تسبب الفرقة والبغضاء بين المسلمين إلا نهى عنه.

والمسلم أخو المسلم فهو محل رعايته وإكرامه، لا يروّعه ولا يخونه ولا يخذله ويحوطه من ورائه .. فلا يكون منه إلا الرأفة بأخيه المسلم ومساعدته ومعونته وإغاثنه إذغ استغاث ومواساته إذا أصيب. قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

للمسلم أن يمازح أخاه على أن لا يقول إلا حقاً، وعلى أن لا يأتي بما يروّع أخاه أو يفزعه.

- عن عبد الرحمن بن أبي ليل قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه، ففزع. فقال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً»^(١).

- وقد عقد الإمام أبو داود باباً في سننه بعنوان: (من يأخذ شيئاً على المزاح) وأورد فيه حديثاً عن عبد الله بن السائب بن يزيد عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً، من أخذ عصا أخيه فليردها»^(٢).

- وعن أبي حميد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرئ مسلم أن

(١) رواه أبو دود (٥٠٠٤)، وأحمد ٣٦٢/٥. وقال الألباني: صحيح "صحيح الجامع" (٧٦٥٨).

(٢) رواه أبو دود (٥٠٠٣)، والترمذي (٢١٦٠).

يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس منه»^(١).

ينبه الرسول العظيم ﷺ على أن ترويع المسلم حرام ولو كان المأخوذ عصاً أو حبلاً.

• زار جماعة صديقاً لهم، وكان فيهم رجل يحرص على أناقة المظهر، فلما دخلوا وخلعوا أحذيتهم عمد واحد منهم إلى إخفاء حذاء هذا الرجل .. فلما أرادوا الخروج بحث الرجل عن حذائه فلم يجده .. فكان الحرج لصاحب البيت وللرجل، فهو لا يستطيع أن يمسي حافياً ولا يستطيع أن يتهم مضيفه، وشرع أصحابه يعلقون .. فقال واحد منهم: هل أنت متأكد أنك جئت بحذاء .. لعلك جئت حافياً .. ويضحك الآخرون. ثم أحضر له صاحب البيت حذاء من عنده وقدمه إليه .. وعندئذ أعاد الذي كان يمزح الحذاء لصاحبه.

إنّ هذا المزاح ثقيل بارد سمج، وهو غير جائز لترويعه الرجل وتخجيله وازعاجه حيناً من الوقت.

• وقد يعتمد بعض المازحين إلى أخذ ساعة زميل له ووضعها في مكان آمن، ثم ذهب ليتوضأ .. ثم بعد أن يُروّع الرجل يعيد المازح الساعة إلى صاحبها.

لقد حرّم الإسلام كل ما فيه ترويع وإيذاء للمسلم؛ لأنّ إيذاء المسلم حرام، وليقطع الطريق على الذين لا يتقون الله من اللصوص المغلفين الذين يعمدون أخذ مال المسلم ومتاعه عن طريق المزاح، فإن انكشف أمر الآخذ زعم أنه كان يمزح، وإن لم ينكشف أمره أخذ ما أخذ وتملكه ظلماً وعواناً. وهذا الفعل محرم.

لا يجوز ترويع المسلم بتصرفٍ من نحو ما ذكرنا، ولا يجوز ترويعه بذكر خبر مكذوب، كما لو أخبره بوفاة عزيز عليه أو قريب منه .. فيروّع .. ثمّ يتبيّن له أنّ

(١) رواه أحمد ٤٢٥/٥، وابن حبان في "صحيحه" ٣١٦/١٣.



الخبر مكذوب، وكما لو أخبره بهبوط قيمة أسهم يشارك فيها .. والمزاح الثقيل البارد قد يؤدي إلى أمور لا تحمد عقباها .. فقد يصاب المروّع بأزمة إن كان المأخوذ منه شيئاً ثميناً .. وكم من حادثة مؤلمة قد حصلت من ذلك، وقد يؤدي هذا المزاح إلى جريمة والعياذ بالله تعالى.

قال أبو حيّان:

مازح صديقك ما أراد مزاحاً فإذا أباه فلا تزده جماحا
ولربما مزح الصديق بمزحة كانت لبدء عداوة مفتاحا
وقال آخر:

أما المزاحة والمرء فدعهما خلقتان لا أرضاهما لصديق
إني بلوتهما فلم أحدهما لمجاور جاراً ولا لرفيق^(١)

ومن ترويع المسلم أخاه المسلم أن يخوّفه بأمر يخترعه كما في الحادثة الواقعية الآتية:

كان رجل يعمل تاجراً في قرية من القرى ينام في دكانه، وكان في ليالي الصيف الحارة يأخذ فراشه وينام في (بيدر) القرية، وهو مكان خارج القرية، جوّه جميل، وهواؤه عليل، فجاء نفر من أصدقائه وخوّفوه من المبيت هناك وقالوا: إنَّ هذا المكان تسكنه الجن وقد يخطفونك، وقد جئنا ننصحك، فإن حدث لك مكروه فلا تلم إلا نفسك. فقال لهم: إني نمت في هذا المكان ليالي كثيرة ولم أر ما يعكر أبداً، وما أنا بتارك نومي المريح لقولكم .. فتركوه .. وجاء اثنان منهم إليه في مكان نومه بعد أن استغرق في النوم وربطوا طرفي لحافه الذي يتغطى به بخيطين قويين .. ثم ابتعدا كثيراً .. وشدّا اللحاف .. فأحس الرجل بتحول اللحاف عنه، فظنَّ أنَّ اللحاف زاح عنه بسبب ثقله .. فشده إليه .. فتركاه قليلاً ثمَّ عادا إلى الشدِّ، فمشى اللحاف على

(١) "حماسة البحري" ص ٢٥٣.

الأرض، فأصاب الرجل من الذعر والروعة الشيء الكثير ولكنه كان قوي الأعصاب ثابت الجنان، وإن كان شعر رأسه قد وقف من الرهبة، وصار قلبه يدق دقاً عنيفاً .. وقرر أن يتبع اللحاف .. فمشى وراءه .. فخشي الرجلان أن يدركهما فهربا، وعندما أدرك المكيدة لحق بهما يريد أن يفتك بهما فلم يدركهما.
إن هذا التصرف لا يجوز أبداً.

- وكذلك فلقد نهى رسول الله ﷺ أن يشير المسلم إلى أخيه بالسلاح أو بحديدة مازحاً.
- فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا يُشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ^(١) في يده فيقع في حفرة من النار». ^(٢)
- وعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن يُتعاطى السيف مسلواً. ^(٣)
- وروى أحمد وأحمد والبزار عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ بقوم في مجلس يسلمون سيفاً يتعاطونه بينهم غير مغمود فقال: «ألم أزجر عن هذا؟ إذا سلَّ أحدكم سيفه فأراد أن يناوله أخاه فليغمده ثم ليعطه إياه». ^(٤)

(١) قال النووي في "رياض الصالحين" [ينزع] ضبط بالعين المهملة مع كسر الزاي، وبالغين المعجمة مع فتحها، ومعناها متقارب، ومعناه بالمهملة: يرمي، وبالمعجمة: يرمي ويفسد وأصل النزغ: الطعن والفساد.

(٢) رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧). وفي رواية مسلم (٢٦١٦) قال أبو هريرة: قال أبو القاسم رضي الله عنه: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يدعه وإن كان أخاه لأبيه وأمه».

(٣) رواه أبو داود (٢٥٨٨)، والترمذي (٢١٦٤) وقال: حديث حسن. ويتعاطى أي: يُعطي من إنسان ويتناوله منه آخر.

(٤) رواه أحمد ٣/ ٣٧٠.



○ وروى أحمد والطبراني بسند جيد عن أبي بكرة نحوه وزاد: «لعن الله من فعل هذا. إذا سَلَّ أحدكم سيفه فأراد أن يناولَه أخاه فليغمده ثم يناولَه إياه»^(١).
قال ابن العربي: إنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً سواء كان جاداً أم لاعباً.

وهذا أدب كريم ينبغي أن نربي عليه أولادنا إذا أراد أحدهم أن يعطي إنساناً سكيناً فليعطها من جهة الممسك الخشبي لا من جهتها الحادة، وكذلك يجب أن ننهي الأطفال عن توجيه أسلحتهم من الألعاب التي على هيئة المسدسات والرشاشات إلى إخوانهم ورفاقهم في اللعب، ونبين لهم أن السلاح لا يوجه إلى المسلم لا في الجدل ولا في المزاح، ونذكر لهم هذه الأحاديث التي أوردناها آنفاً.

إنَّ هذه التربية النبوية تعالج أدق التصرفات في حياتنا الاجتماعية، وتضمن لمن يعمل بها الأمن والأمان، وتبعده عن كل أسباب الخطر. إنها تربية شاملة تحقق السعادة والهناء والسرور.

لقد ربي رسول الله ﷺ أتباعه على أن يكونوا صادقين في أقوالهم مخلصين في أعمالهم، وعلى أن يكون سلوكهم مطابقاً للحق الخالص، موافقاً لما جاء في الكتاب الكريم والسنة المطهرة. ورباهم أيضاً على اليقظة والوعي فلا ينخدعون بالمظهر العاري عن الإخلاص. فالله تبارك وتعالى ينظر إلى القلوب والأعمال ولا ينظر إلى الصور والأجساد.

○ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢). فالأعمال بالنيات كما هو

(١) رواه أحمد ٤١/٥، والحاكم ٤/٢٩٠.

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٣-٢٥٦٤).

معلوم. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١).

لقد رباهم صلوات الله وسلامه عليه على أن يكون سلوكهم مطابقاً لما يدعون الناس إليه. قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣].

إن القول المخالف للفعل يمجته الله ويمقت صاحبه أشد المقت.

ولقد استجاب المؤمنون الأولون رضي الله عنهم لهذا التوجيه وتلك التربية، فلقد كانوا وقّافين عند حدود الله، وإذا ذكر أحدهم بالحق انصاع إليه دون تردد، وكانت حياتهم ترجمة عملية ملموسة لما يقولون، ولذلك فقد نفع الله بهم الدنيا حين نشروا دين الله فيها.

أجل لم يكن عندهم هذا الازدواج المقيت الذي نلمسه في سلوك بعض الأفراد، وقد ذكر ربنا سبحانه أن هذا النهج هو نهج الأنبياء، فهذا سيدنا شعيب عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

والأنبياء قدوة وأسوة حسنة لأبناء أمهم وللمؤمنين جميعاً. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال عز من قائل:

(١) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، وأبو دود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٤٢٧)، والنسائي (٧٥)، وأحمد ١/ ٢٥، ٤٣.



﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [المتحنة: ٦].

إنَّ هذه الخصلة من أهم الخصال التي ينبغي أن يتصف بها الدعاة والمربون، فإنهم إن اتصفوا بها أفادوا في دعوتهم وتربيتهم، ونجحوا نجاحاً كبيراً، أماى إن خالف فعلهم قولهم فلن ينجحوا في مهمتهم أبداً.

إنَّ الأب الذي يكذب أمام أولاده، ثم ينهاهم عن الكذب مخفق في تربيته، وكذلك المعلم والداعية. والله درُّ أبي الأسود الذي قال:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذى الضنى	كيما يصح به وأنت سقيم
إبدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تعدل إن وعظت ويقتدى	القول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

ويؤسفني أن أقرر أنَّ هناك نفراً من الناس يتظاهرون بمظهر التدين، ويتسترون بستر الدين، وهم لصوص أموال ولصوص أعراض. يخدعون الناس الطيبين الأبرياء وعندما تنكشف حقيقتهم أمام الناس ينفر منهم من كان مخدوعاً بهم، وقد يحملهم ذلك على النفور من المتدينين عامة .. بل قد يقود بعضهم إلى النفور من الدين والانحراف والعياذ بالله تعالى.

إنَّ هؤلاء قطاع طرق كما يقول الأمامان الغزالي وابن القيم رحمهما الله تعالى. ومن المفيد أن أعرض لكم قولهما:

قال الإمام الغزالي: [وليفرَّ المسلم من العلماء المضلين، المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشدَّ، فقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حبُّ

الدنيا فيقطعك عن محبتي. أولئك قطع الطريق على عبادي، فالقلوب المظلمة بحبّ الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله.^(١)

وقال الإمام ابن القيم: [علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا؛ قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أولاء وفي الحقيقة قطع الطريق].^(٢)

وقال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: [لو نافق العلم الديني لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود].^(٣)

يأتي أحد هؤلاء اللصوص وقد أتقن التمثيل إلى الرجل الطيب البريء من العامة .. يأتي بمظهر المتدين ويدعي العلم الشرعي، ولا يزال لسانه يردد الأذكار، ويعرض عليه مشروعاً تجارياً يزعم أنه مربح، فيخدع منظره وكلامه الرجل الطيب، فيدفع له كل ما معه من الفلوس .. ويذهب اللص ويذهب معه المال.

ويأتي آخر من هذه الزمرة الخاسرة يدعي أنه يجمع المال للفقراء والمساكين، فينحدر به نفر من الطيبين .. ويأخذ المال لنفسه .. وقد ينفضح أمره ولكن بعد أن يكون أخذ المال ومضى.

ويأتي أحدهم متلبساً بالدين، متظاهراً بالصلاح، مدعياً أنه من بيت علم وفضل، ومتكلفاً إظهار الغيرة على الإسلام والمسلمين .. يأتي إلى رجل طيب خاطباً بنته .. ويتم للصوص ما أراد ولا تمضي مدة .. حتى تنكشف الحقيقة للأب المسكين فيندم

(١) "إحياء علوم الدين" ٤/ ٣٨٨.

(٢) "الفوائد" ص ٨٠.

(٣) "وحي القلم" ٣/ ٥٩.



حيث لا ينفع الندم، بعد أن يأكل هذا المجرم حقها ويسيء إلى سمعتها ويظلمها.
 أنَّ المسلم يقظ فطن، ينظر بنور الله، وينبغي أن يحاول الوصول إلى هذا المستوى.
 إن الصورة إن تجردت عن الحقيقة لا قيمة لها.
 إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.
 * * *

السلام

كلّ مسلم مؤمن يحب الجنة، ويرجو أن يكون من أهلها. وكيف لا يكون ذلك وسيدنا رسول الله ﷺ كان يسأل ربه الجنة، وكذلك كان الصحابة الكرام، لقد استغربوا أن يكون أحدُ يابى دخول الجنة، وذلك كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». (١)

ويقرر سيدنا رسول الله ﷺ أن إفشاء السلام سبب لدخول الجنة؛ وذلك لأن إفشاء السلام سبب للتحاب بين أبناء الأمة، والتحاب سبب لاكتمال الإيمان، والإيمان سبب لدخول الجنة.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». (٢)

○ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أي الإسلام خير؟

قال ﷺ: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف». (٣)

إنّ الحديث الأول حديث أبي هريرة رضي الله عنه يبين أهمية السلام، وأنه أمرٌ عظيم يدل على ذلك أنه ﷺ ربط الإيمان بالتحاب .. إنّ رسول الله ﷺ أقسم أنهم لا

(١) رواه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨)، وابن ماجه (٦٨).

(٣) رواه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩)، وأبو داود (٥١٩٤)، وابن ماجه (٣٢٥٣).



يؤمنون حتى يتحابوا، «ولا تؤمنوا حتى تحابوا». إذن فالذين لا يتحابون ليسوا بمؤمنين الإيَّان الكامل.

إنَّ المجتمع الإسلامي قائم على الحب الذي يحقق الإيَّان .. إنه مجتمع التحاب، فالمؤمنون يحب بعضهم بعضاً، لا تباغض بينهم ولا تقاطع، ولا تحاسد ولا تنافر، ولا أحقاد ولا كراهية. ثم لم يكتف رسول الله ﷺ بتقرير هذه الحقيقة التي أقسم عليها بل أَرَدَها بذكر الوسيلة التي تحقق التحاب، وهي وسيلة سهلة ميسورة .. إنها إفشاء السلام.

والحديث الثاني حديث ابن عمرو رضي الله عنه يقرر فيه رسول الله ﷺ أَنَّ خير الإسلام أمران وهما: إطعام الطعام، وإفشاء السلام .. السلام على من يعرف المسلم ومن لا يعرف. أما إلقاء السلام من المسلم على أخيه الذي يعرفه فإنه يؤكد المحبى ويوثق الصلة بينهما. وأما إلقاء السلام على من لا يعرف فمقدمة لإنشاء صلة ودودة وتوثيق أخوة وتعاون ..

وهكذا فإنَّ السلام ليس مقصوراً على المعارف والأصدقاء. والسلام ضد الحرب، فالمسلم يقول لأخيه: السلام عليك مني فلتطمئن، ولتكن على استعداد للتعاون معي على البر والتقوى.

والسلام اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، قال جلَّ جلاله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

إنَّ هذا يدل على قيمة السلام. وكانت تحية العرب في الجاهلية: أنعم صباحاً ومساءً وعم صباحاً ومساءً، جاء في أساس البلاغة: [أنعم صباحاً ومساءً، ويقال: عم صباحاً بحذف النون] فأبدلنا الله تحية خيراً من تلك التحية وهي السلام.

○ وعن ابن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد، والبغضاء هي الحالقة، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت لكم ذلك: أفشوا السلام بينكم». (١)

يبين رسول الله ﷺ في هذا الحديث خطورة التباغض فيسمي البغضاء الحالقة الدين والعياذ بالله تعالى، ويقابل البغضاء التحابُّ، وذكر أن الذي يثبت التحابُّ إفشاء السلام، وهو طريق الجنة.

○ وعن أبي شريح رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أخبرني بشيء يوجب لي الجنة. قال ﷺ: «طيبُ الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام». (٢)

وفي رواية: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة. قال ﷺ: «إنَّ من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام».

وما يدل على أهمية السلام أن رسول الله ﷺ جعل من حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه إذا لقيه.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم ستُّ». قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه». (٣)

(١) "الترغيب والترهيب" ٣/ ١٨٤ وقال رواه البزار بإسناد صحيح.

(٢) رواه الطبراني ٨/ ٢٩٠ برقم ٨١١٧، وابن حبان في صحيحه ٢/ ٢٥٨، وصححه الحاكم ٤٨٣/١.

(٣) رواه مسلم (٢١٦٢)، وروى الترمذي بنحوه (٢٧٣٦)، وأحمد ٢/ ٣٧٠.



إنَّ سنة إلقاء السلام النبوية التي ربَّى رسول الله ﷺ عليها أصحابه قد ضيعها كثير من الناس .. فقد يلتقي المسلم بأخيه المسلم وينظر أحدهما إلى الآخر، ويعرض هذا ويعرض هذا، ويكون كل منهما يعرف الآخر.

○ عن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصدُّ هذا ويصدُّ هذا، وخيرهما الذي بدأ بالسلام». (١)

○ وعن الأغر أغر مزينه رضي الله عنه قال: انطلقت أنا وأبو بكر، فلما رأى أبو بكر رجلاً من بعيد سلَّم عليه .. ثم قال: لا يسبقك إلى السلام أحد، فكنا إذا طلع الرجل من بعيد بادرناه بالسلام قبل أن يسلم علينا. (٢)

ومما يدل على فضل من يبدأ بالسلام حديث أبي أمامة الآتي:

○ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام». (٣)

فالبادئ بالسلام أقرب الناس إلى الله.

○ وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه في الأرض فأفشوه بينكم، فإنَّ الرجل المسلم إذا مرَّ بقوم فسلم عليهم، فردوا عليه، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردوا عليه ردَّ عليه من هو خير منهم». (٤)

(١) رواه البخاري (٦٢٣٧).

(٢) رواه الطبراني في "الكبير" ٣٠٠/١ و"الأوسط" ٢/٢٦٨، وقال المنذري في "الترغيب والترهيب" ٣/١٨٥: وأحد إسنادي الكبير رواه يحتج بهم في الصحيح.

(٣) رواه أبو داود (٥١٩٧)، والترمذي (٢٦٩٤).

(٤) رواه الطبراني في "الكبير" ١٠/١٨٢، والبزار ٥/١٧٤ وأحد إسنادي البزار جيد قوي.

فلا ينبغي أن يصدنا عن إلقاء السلام معرفتنا أن القوم الذين نسلّم عليهم لا يردون السلام لما جاء في الحديث من أنه سيرد علينا من هو خير منهم، وإذا ردت الملائكة علينا السلام كنا أسعد حالاً.

إلقاء السلام سنة مؤكدة، دعا إليها رسول الله ﷺ وحض عليها، وهي تنشر الأمن وتكسب الأجر، ولا تكلف المسلم جهداً، فالذي يزهد فيها مخطئ خاسر بخيل.

○ عن أبي هريرة رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعجز الناس في الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»^(١).

○ وعن عبد الله بن مغفل رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسرق الناس الذي يسرق صلاته».

قيل: يا رسول الله. وكيف يسرق صلاته؟

قال ﷺ: «لا يتم ركوعها وسجودها، وأبخل الناس من بخل بالسلام»^(٢).

أجل إنه حقا أبخل الناس، ذلك لأنه إذا بخل بكلمة السلام التي لا تكلفه مالاً ولا جهداً فهو سييئ بئناً على الفقراء والمساكين والأهل والأرحام من باب أولى.

أقول: فمن يرضى لنفسه أن يكون أبخل الناس. والبخل صفة ذميمة؟

وصيغة السلام أن يقول: (السلام عليكم). وهذه الصيغة مجزئة، ولكنه إذا زاد بأن يقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فهو أفضل. يدل على ذلك الحديث

(١) رواه الطبراني في "الأوسط" ٣٧١/٥، وقال المنذري في "الترغيب والترهيب" ٢٨٨/٣: وإسناده جيد قوي.

(٢) رواه الطبراني في "الأوسط" ٣٥٥/٣ بإسناد جيد.



الآتي:

○ عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فرد السلام عليه، ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه، فجلس فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، فجلس فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاثون». (١)

ويكره أن يقول البادئ بالسلام: عليك السلام.

○ فعن أبي جُرَيِّ الهجيمي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: عليك السلام يا رسول الله. قال: «لا تقل: (عليك السلام) فإنّ (عليك السلام) تحية الموتى». (٢)

* * *

هذا في ابتداء السلام، أما ردّ السلام فهو واجب. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حقُّ المسلم على المسلم خمس: ردُّ السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس». (٣)

○ وعن البراء رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع، أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإجابة الداعي، وردّ السلام، ونصر

(١) رواه أبو داود (٥١٩٥)، والترمذي (٢٦٨٩).

(٢) رواه أبو داود (٥٢٠٩)، والترمذي (٢٧٢١).

(٣) رواه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢).

المظلوم، وإبرار القسم.^(١)

وهذه التحية الإسلامية عريقة في القدم من عهد أبينا آدم إلى عهد هذه الأمة. فقد جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «فلما خلق الله آدم قال: اذهب على أولئك النفر من الملائكة، جلوس، فاسمع ما يميونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه (ورحمة الله)». ^(٢)

○ وإذا أقبل عليك إنسان فلك أن تقول له: مرحباً بفلان لما روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «مرحبا بأم هاني». ^(٣)

من يبدأ بالسلام؟ لقد قرر رسول الله ﷺ أن الصغير يسلم على الكبير، والمار على القاعد، والقليل من الناس على الكثير، والراكب على الماشي.

○ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». ^(٤)

○ وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير». ^(٥)

ومن السنة أن يسلم المرء على الصبيان إذا مرّ عليهم لحديث أنس الآتي:

(١) رواه البخاري (٢٤٤٥)، ومسلم (٢٠٦٦).

(٢) رواه البخاري (٦٢٢٧).

(٣) رواه البخاري (٣٥٧)، ومسلم (٧١٩)، والترمذي (٢٧٣٤).

(٤) رواه البخاري (٦٢٣١).

(٥) رواه البخاري (٦٢٣٢)، ومسلم (٢١٦٠)، وأبو داود (٥١٩٩)، والترمذي (٢٧٠٣).



○ عن أنس رضي الله عنه أنه مرَّ على صبيان فسَلَّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعلُه. ^(١)

وهذا تصرف نافع للأولاد، ينمي شخصياتهم، ويشعرهم أن لهم قيمة عند الكبار وبأنهم محترمون في المجتمع، وهو دليل على التواضع المحمود البناء.

إنَّ احترام الصغار أمر يتساهل به كثير من الناس، فترى بعضهم يسخر من الصغار، ويضحك عليهم، ولا يرضى أن يسَلَّم عليهم.

الصغير إنسان محترم في نظر الإسلام، وتنمية شخصيته وتقديره لها الأثر الكبير في تكوين شخصيته وفكره.



والسلام مطلوب في كل مرة يلتقي فيها المسلمان حتى ولو كان الوقت الفاصل بينهما قصيراً، وذلك كأن يكونَ رجلانَ يمشيان معاً، ثم تصادفهما شجرة فتفرق بينهما يذهب أحدهما يميناً والآخر يساراً ثم يلتقيان، فيسَلَّم أحدهما على صاحبه. قال الإمام أبو داود: [باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه: أيَسَلَّم عليه؟] وأورد في هذا الباب حديث أبي هريرة رضي الله عنه ^(٢) قال: إذا لقي أحدكم أخاه فليسَلَّم عليه، فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فليسَلَّم عليه أيضاً.

وكذلك لو خرج رجل من غرفة ثم عاد بعد قليل، فيسنِّ له أن يسَلَّم، ويفعل ذلك كلما دخل ولو كان الفاصل بين دخوله وخروجه قصيراً.

إنَّ السلام شعار جميل مؤنس، ودعاء طيب محبب.

ما أسعد حياتنا إذا كانت متصفة بالسلام من النَّاس، مغطاة برحمة الله وبركاته.

(١) رواه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨)، وابن ماجه (٢٧٠٠)، والترمذي (٢٦٩٦)، وأبو داود (٥٢٠٢).

(٢) رواه أبو داود موقوفاً على أبي هريرة، ومرفوعاً إلى النبي ﷺ برقم: ٥٢٠٠.

كان حديثنا عن إلقاء السلام وردّه إذا تقابل المسلمان، ونستطيع أن ندعوه (سلام المواجهة).

وهناك سلام آخر هو (سلام الاستئذان) ويكون إذا أتى المرء إلى دار قوم، فيقف عند الباب ويقول: السلام عليكم أنا فلان أأدخل؟

فقد روى أبو داود^(١) عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مشربة فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليكم أيدخل عمر.

وهذا أدب راق يراعي حرمة البيوت وأحوال الناس في بيوتهم، فقد يكون المرء مشغولاً بأمر مهم، أو مريضاً ليس مستعداً لاستقبال أحد، أو متكشفاً أو نحو ذلك، فعليه حينئذ أن يصرّح بالاعتذار، وعلى الزائر أن يرجع راضياً ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

ويمكن للمرء المقصود أن لا يردّ، وعلى القاصد المستأذن بعد ثلاث أن ينصرف كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خالف أحد هذا الأدب يعلمه. عن كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه بلبن ولبأ وضغابيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى الوادي. قال: فدخلت

(١) رواه أبو داود (٥٢٠١).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).



عليه ولم أسلم ولم أستأذن. فقال النبي ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أَدْخِلْ»، وذلك بعد أن أسلم صفوان. (١)

هذا الحديث الصحيح يستحق أن نقف عنده طويلاً ففيه لفتات تربوية رائعة، فيه تربية الولد إذا أخطأ، وتعليمه عملياً الطريقة الصحيحة في السلوك .. إن هذه الحادثة ستجعل هذا الإنسان لا ينسى هذا الأدب أبداً ..

وهذا أسلوب ينبغي أن يفعله المربون من الآباء والأمهات والأساتذة والدعاة إلى الله، ويسلكوا في ذلك الوسائل الحكيمة التي قد تختلف من إنسان إلى إنسان، ومن ظرف إلى ظرف.

○ عن ربي قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: «اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم، أَدْخِلْ؟»

فسمعه الرجل. فقال: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل. (٢)

وإذ استأذن الرجل فقيل: من الباب؟ فعليه أن يذكر اسمه المعروف به فيقول: السلام عليكم أنا فلان بن فلان أريد فلاناً.

○ عن جابر رضي الله عنه قال: استأذنت على النبي ﷺ في دين كان على أبي.

فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا.

فقال: «أنا أنا» كأنه كره ذلك. (٣)

(١) رواه أبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٧١٠). واللبأ: أول ما يحلب عند الولادة. والضغائيس: صغار القشاء.

(٢) رواه أبو داود (٥١٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٢٥٠)، ومسلم (٢١٥٥)، وأبو داود (٥١٨٧)، والترمذي (٢٧١١)، وابن ماجه (٣٧٠٩).

وهذا الذي وقع ابتداءً من جابر رضي الله عنه وكرهه رسول الله ﷺ يقع فيه كثير من الأولاد والرجال. ويحسن أن نفعل ذلك في الهاتف عندما نطلب واحداً من الناس أن نعرّف بأنفسنا تعريفاً وافياً.

* * *

السلام عند المفارقة مطلوب من المسلم، فما ينبغي أن يخرج المرء من مجلس دون أن يسلم .. فعلى المسلم إذا أراد أن يقوم من المجلس ويذهب لشأن من شؤونه أن يُسَلِّم.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليُسَلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليُسَلِّم، فليست الأولى بأحقّ من الآخرة»^(١)

○ وعن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنه قال: يا بُنَيَّ إذا كنت في مجلس ترجو خيره، فعجلت بك حاجة فقل: السلام عليكم؛ فإنك شريكهم فيما يصيبون في يصيبون في ذلك المجلس^(٢).

وينبغي أن يراعي المرء حال من يسلم عليه، فلا يسلم على من كان مشغولاً بأمر لا يمكنه من الرد عليه.

○ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سلّم على النبي ﷺ وهو يبول، فلم يردّ عليه النبيّ السلام^(٣).

○ جاء في "تفسير القرطبي"^(٤):

(١) رواه أبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٧٠٦) وحسنه. وقال المنذري في "الترغيب والترهيب" ٣/ ١٨٥: [وزاد رزين: «ومن سلّم على قوم حين يقوم عنهم كان شريكهم فيما خاضوا من الخير بعده»].

(٢) رواه الطبراني موقوفاً هكذا ومرفوعاً، والموقوف أصح. "الترغيب والترهيب" ٣/ ١٨٦.

(٣) رواه مسلم (٣٧٠)، وأبو داود (١٦)، والترمذي (٢٧٢٠)، وابن ماجه (٣٥٣).

(٤) "تفسير القرطبي" ٥/ ٣٠٤.



[ولا يُسَلِّم على المصلِّي، فإن سلَّم عليه فهو بالخيار إن شاء ردَّ بإشارة بأصبعه، وإن شاء أمسك حتى يفرغ من الصلاة ثم يردَّ].
وقال: [ولا يُسَلِّم على من يقرأ القرآن، فيقطع قراءته، وهو بالخيار إن شاء ردَّ، وإن شاء أمسك حتى يفرغ ثم يردَّ].

هناك سؤال نواجه به أحياناً وهو: ما موقف المسلم إذا مرَّ على قوم متلبسين بالمعصية مجاهرين بها: هل يسلم عليهم؟
وهو سؤال وجيه، لأنَّ هذا الأمر يتعرض له المسلم كثيراً، وقد أجاب عن هذا السؤال الإمام عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ) في كتابه "الغنية"^(١) فقال:
[ولا يُسَلِّم على المتلبسين بالمعاصي كمن اجتاز على قوم يلعبون بالنرد ويشربون الخمر، ويلعبون بالجوز والقمار.
وإن سلَّموا عليه ردَّ عليهم إلا أن يغلب على ظنه انزجارهم عن معاصيهم بتركه الردَّ عليهم].

وهذا الموضوع متصل بالتربية أوثق الاتصال .. نعم لا ينبغي للمسلم أن يُسَلِّم على المتلبسين بالمعاصي؛ لأنَّ تسليمه عليهم وعدم الإنكار إقرار لهم على ما هم فيه من المعاصي، وبغض المعصية وأهلها أمر مشروع. وقد يؤدي هذا الموقف إلى إيقاظهم من غفلتهم، وإعلامهم أن ما هم عليه أمر محرَّم، ومن أجل ذلك لم يكونوا أهلاً للإلقاء السلام عليهم.

هذا صحيح، لكن إذا رجا المسلم وغلب على ظنه أن يستجيبوا له إن هو نصح لهم بالحسنى ويكفوا عن المعاصي؛ فلا مانع عندئذٍ من السلام عليهم بل يكون السلام عليهم من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) "الغنية" ٣٩/١.

إن كل مسلم مكلف بأن يدعو إلى الله بحدود ما يعلم. يقول رسول الله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»^(١). يدعو المسلمين ويذكرهم ويدعو الكافرين .. قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

وليس الأمر مقصوراً على إلقاء السلام على العصاة إن لقيهم، بل يتجاوز ذلك إلى الزيارة والهدية والتعامل معهم. فما التصرف السليم؟ إن ما ذكرنا آنفاً وارد هنا والله أعلم.

أيها السادة .. قد يكون للإنسان أقرباء زلت أقدام بعضهم في المعاصي فماذا ينبغي أن يكون موقفه منهم في إلقاء السلام والزيارة؟

والجواب أن الوالدين تحب مواصليهما على الرغم من كونهما عصاة قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [١٦] وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وأما الأقرباء غير الوالدين كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، وأبنائهم؛ فهؤلاء صلتهم من صلة الرحم التي دعا إليها الشرع، فإذا كان من هؤلاء الأقارب نفرٌ عصاة فعلى المسلم أن يتلطف في نصحتهم عملاً بقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] ويكرر المحاولات وينوّعها ويصبر .. فإن أصروا على المعصية، ويئس المرء من استجابتهم للحق فعليه أن يترك مواصليهم، وتكون المقاطعة لله وحده سبحانه.

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).



وقصة ابراهيم عليه السلام معروفة .. لقد تلطف غاية التلطف في دعوة أبيه، فما كان من أبيه إلا أن قال له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] وعندئذ اعتزلهم وقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

* * *

فال عمّار بن ياسر رضي الله عنه: (ثلاثٌ من جمعهنّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار).^(١)
والشاهد في هذا الأثر الجميل قوله رضي الله عنه: (وبذل السلام للعالم)، وقد أورد البخاري هذا الأثر في كتاب الإيمان في باب (السلام من الإسلام).

ويحسن بنا أن نتأمل هذه الكلمات الرائعة التي تضمنت أصول الخير وفروعه

○ أما الأمر الأول فهو الإنصاف من نفسك وقلّ من بنصف من نفسه، فأكثر الناس مقصرون في التحلي بهذه الخصلة الكريمة؛ ذلك لأنّ الإنصاف يوجب على المرء أداء حقوق الله كاملة، وأداء حقوق الناس كذلك، وأن لا يطالبهم بما ليس له، ولا يحملهم فوق طاقتهم، وأن يعاملهم بما يجب أن يعاملوه به، ويعفيهم ممّا يجب أن يعفوه منه، ويكرم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه. ويوجب الإنصاف على العبد معرفة ربه وحقّه عليه، ومعرفة نفسه وما خلقت له، ويوجب إنصافه لنفسه ألاّ يدّعي ما ليس لها، وألاّ يدنسها بتحقيقها بمعصية الله، بل يجب عليه أن يزكيها بطاعة الله وتوحيده، وحبّه والخوف منه ورجائه، وإيثار مرضاته على رضى الخلق.

(١) رواه البخاري معلقا (قبل الحديث ٢٨) ووصله عبد الرزاق في "المصنف".

وهذه منزلة عالية لا يبلغها إلا القليل، وكثير من الناس لا ينصفون أنفسهم بل يظلمونها أقبح الظلم، وذلك عندما يقترفون الكبائر والمنكرات.

○ وأما الأمر الثاني فهو بذل السلام للعالم، وهذا يتضمن تواضع من يفعل ذلك فهو يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا

يعرفه. وقد أوسعنا الكلام في السلام والله الحمد والمنة.

○ وأما الإنفاق من الإقتار فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله وأن الله يُخلفه ما أنفق، وعن قوة يقين وتوكل ورحمة وزهد في الدنيا وسخاء نفس بها، ووثوق بوعد الله الذي وعده مغفرة منه وقضلا.

أيها السادة .. فبذل السلام للعالم من الأمور التي من جمعها فقد جمع الإيمان.^(١)

* * *

(١) انظر "زاد المعاد" ٢/٤٠٧-٤١٠ ط الأرنؤوط.



التزاور

إن من العادات التي تقوم بين الناس التزاور، وهو أمر مرغَّب به شرعاً لاسيما إن كانت الزيارة خالصة لله سبحانه، أو كانت لصلة رحم، أو كانت لاستزادة معرفة بالدين وعلومه، أو كانت لتنمية أخوة في الله، فقد كان السلف يتزاورون ويجلس بعضهم إلى بعض ليزدادوا إيماناً. قال معاذ رضي الله عنه: (اجلس بنا نؤمن ساعة).^(١)

وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطَانًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد قرَّر رسول الله صلَّى الله عليه وآله أن من زار أخاً له في الله، ليس له غرض دنيوي في زيارته، بل يزوره لأنه يحبه في الله، قرر أن الله تبارك وتعالى يحبه، ويا سعادة من كان الله وعزَّاه يحبه.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلَّى الله عليه وآله: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة ترُبُّها^(٢) عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحَبَّك كما أحببته فيه». ^(٣)

(١) رواه البخاري في الباب الأول من كتاب الإيمان.

(٢) أرصدته: أي وكله بحفظه. المدرجة: الطريق. ومعنى (ترُبُّها عليه): أي تقوم بها وتسعى في صلاحها. (من شرح النووي في رياض الصالحين).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٧)، وأحمد ٤٦٢/٢.

وذكر صلوات الله وسلامه عليه أن الملائكة تنادي من زار أخاً له في الله بأن طبت وطاب ممشاك وتبوات من الجنة منزلاً.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه مناد: بأن طبت وطاب ممشاك، وتبوات من الجنة منزلاً»^(١).

ومجالسة الصالحين كسبٌ عظيم لمن يحظى بها، وهي متفاوتة بتفاوت هؤلاء الصالحين، ولكن لا تخلو من فائدة ومنفعة، على النقيض من ذلك مجالسة الأشرار التي لا تخلو من ضرر يصيب من يجالسهم.

وقد عبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى بصورة بيانية رائعة:

○ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل المجلس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيباً. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»^(٢).

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يربي أتباعه على معاشرة الصالحين وزيارتهم والجلوس إليهم، لأن في ذلك تقوية لإيمانهم كما مرّ بنا قول معاذ رضي الله عنه، وتسديداً لهم في سلوكهم، وتعاوناً معهم على الخير.. والزيارة تحقق هذه الأمور كلها، وتوثق المحبة، وتعين الصالحين على تخطي المصاعب التي يواجهونها، وعلى السلامة من الفتن التي تلاقيهم، وما أكثرها.

○ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا

(١) رواه الترمذي (٢٠٨) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).



يأكل طعامك إلا تقي»^(١).

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال»^(٢).

هذه تربية رسول الله ﷺ في اختيار من نصادق ونجالس ومن نعقد علاقاتنا بهم فنزورهم ويزوروننا .. ذلك لأنه لا بُدَّ من أن يتأثر المرء بمن يزور. فإما أن يكون تأثره حسناً إذا كان الذي يجالسه من العلماء الصالحين، فتزداد معرفته بأمور دينه، ويزداد فعله للخير من الواجبات والمندوبات، ويحسن خلقه في تعامله مع الآخرين.

وإما أن يكون تأثره سيئاً إذا كان المزور رجلاً من الجهلة الفاسدين العصاة، فيألف المرء الزائر في بادئ الأمر رؤية المنكر المحرّم بعد أن كان ينكر ذلك ويضعف إحساسه بحرمته شيئاً فشيئاً، ثم لا يلبث أن يساير القوم فيقع في المحرمات فيكون من الهالكين.

إنّ هناك نفراً من السفهاء الخاسرين يعمرّون مجالسهم بالغيبة والاستهزاء بالدين وبالأئمة المتقدمين وبالعلماء العاملين الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر .. تراهم يلقون النكتة القبيحة بعد النكتة فيضحك الجالسون، ويكتسبون غضب الله الجبار ذي العذاب الأليم.

إنّ هؤلاء لا تجوز زيارتهم ولا مجالستهم ولا مصادقتهم، لأنّ مجالستهم تقود إلى ارتكاب المنكر، وتظلم القلب وتقسيه، وتجعل المجالس لهم شريكاً لهم في الإثم.

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨).

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

* * *



الاستئذان

إنّ لزيارة الأخ المسلم لأخيه آداباً أتينا على ذكر بعضها فيما سبق، وأود أن أذكر أدباً مهماً، وهو أدب الاستئذان.

وإنه لأدب مهم ورد ذكره في كتاب الله سبحانه وفي سنة رسوله ﷺ.

وقبل ذلك أحب أن أشير إلى الثواب العظيم الذي أعده الله تبارك وتعالى للجالسين مع إخوانهم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم.

يقول رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده». (١)

وقد وسّع العلماء مفهوم هذا الحديث ومنهم الإمام النووي فقد أورد الحديث في كتابه "رياض الصالحين" تحت عنوان (باب استحباب الاجتماع على القراءة) ولم يقيّد الاجتماع في المسجد، فجلوس الأخ إلى أخيه في المسجد أو في بيت أخ من المسلمين أمرٌ مرغّب فيه، وعندما يكون الاجتماع على الله تكون الزيارة نافعة.. وهكذا ينبغي أن تكون زيارتنا عامرة بذكر الله وتلاوة كتابه ومدارسة أمر فيه مصلحة للمسلمين؛ لأنّ المجالس التي تخلو من ذلك مجالس سوء وأصحابها خاسرون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترةٌ فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم». (٢)

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٨٠) واللفظ له، وأحمد ٤٨٤ / ٢.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان عليهم حسرة يوم القيامة»^(١).

ومن آداب الزيارة الاستئذان امتثالاً لما جاء في كتاب الله الكريم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧-٢٨].

وقد بينت السنة أن الاستئذان ثلاث فإن لم يأتته أذن فليرجع. وهناك حادثة طريفة مشهورة وقعت لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ملخصها أن أبا موسى جاء إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه استدعاه، فاستأذن ثلاثاً وكان الخليفة مشغولاً، فلم يردَّ أحدٌ على أبي موسى فرجع. وعندما أنهى أمير المؤمنين شغله تساءل قائلاً لمن حوله: ألم أسمع صوت أبي موسى يستأذن؟ ائذنوا له. فقليل قد رجع يا أمير المؤمنين.. فأرسل يدعوه إلى الحضور.. فلما جاء قال له سيدنا عمر: ما منعك أن تأتينا وقد دعناك؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد أتيت واستأذنت ثلاثاً ولم تردُّوا علي، فرجعت. قال عمر: قد سمعناك ونحن حينئذٍ على شغل، فلماذا لم تستأذن حتى يؤذن لك؟ قال أبو موسى: إنما فعلت ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عمر: وما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال أبو موسى: سمعته يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع». قال عمر: تأتيني على ذلك بيينة أو لأفعلن. وفي رواية مسلم: فوالله لأوجعن ظهركم وبطنك، أو تأتيني بيينة تشهد لك على هذا.

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٥)، والحاكم ٦٦٨/١.



ففزع أبو موسى فزعاً شديداً، وانطلق إلى مجلس من مجالس الأنصار وهو مجلس أبي بن كعب، وكان الفزع يبدو على قسماط وجهه وعلى نبرات صوته فقال: أنشدكم الله هل سمع أحد منكم رسول الله ﷺ يقول: الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع.

وكان أبو سعيد الخدري موجوداً، وكان أحدث القوم سنّاً، فذكر أنه سمع ذلك من رسول الله ﷺ فطلب منه أن يصطحبه إلى أمير المؤمنين فقام معه، وشهد شهادة الحق .. فعندما وقف عمر على الحقيقة قال: لقد خفي علي هذا من أمر رسول الله ﷺ لأنني كنت أشتغل في التجارة في الأسواق.

وفيه من رواية لمسلم أن أمير المؤمنين سأله: أوجدت أوجدت من يشهد لك بما قلت؟ فقال أبو موسى: نعم أبي بن كعب.

قال عمر: عدل. ثم سأل أياً فقال: يا أبا الطفيل ما يقول هذا؟ قال أبي: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك. يابن الخطاب لا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ.

قال عمر: سبحان الله! أنا سمعت شيئاً فأحببت أن أثبت منه.

وتثبت عمر رضي الله عنه من أبي سعيد وأبي بن كعب رضي الله عنهما.

ومما يدهش الناظر في هذه القصة موقف أبي بن كعب الجريء الناصح الحكيم فقال: يابن الخطاب لا تكونن عذاباً على أصحاب رسول الله ﷺ.

فأجابه عمر متعجباً: كيف أكون عذاباً عليهم؟ وهم إخواني ومستشاري إنما كنت أريد أن أثبت من ذلك، لأنني لم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ مع طول صحبتي له وكثرة ملازمتي له، وقد عرفت سبب هذا الخفاء وهو أنني كنت أعمل في التجارة .. ففاتني ما سمعتموه أنتم.

الغضب

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». (١)

○ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما تعدّون الصُّرعة فيكم؟». قلنا: الذي لا تصرعه الرجال.

قال: «ليس ذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب». (٢)

توجيه تربويٍّ عظيم نجده في هذا الحديث الصحيح .. إنه توجيه لا يتعب من يرعاه، ولا يقع في الورطات التي يصعب على المرء الخروج منها، ذلك لأنَّ الغضب خلق ذميم إن تَمَادى انتهى بصاحبه إلى الهلاك المحقق، فقد يتلفظ بألفاظ تخرجه من الملة والعياذ بالله تعالى، وذلك هو الخسران المبين، وقد يتلفظ بألفاظ تؤدي إلى هدم أسرته وشقاء أولاده، ويندم بعد فوات الأوان، ويحل به الشقاء والهوان. وقد ينتهي به الغضب إلى الجريمة المنكرة فيقتل النفس التي حَرَّمَ الله قتلها فيكون من أصحاب النار، وقد يكون هو المقتول.

وقد يحمله الغضب على الشتم وقول الفحش من الكلام، وقد يمزق ثيابه ويلطم نفسه وقد يضرب الجمادات والحيوانات، وقد يكسر ما أمامه من الأواني والأبواب، وقد يقد على قتل نفسه بعد أن يقتل خصمه والعياذ بالله تعالى.

يقرر الرسول ﷺ في هذا الحديث أنَّ الإنسان إنما هو إنسان بإرادته لا بعضلاته، فليس الشديد هو الذي يصرع الناس بقوته، ولكن الشديد هو الذي يملك السيطرة على أعصابه، ويستطيع أن يتصرف التصرف الموزون اللبق حالة

(١) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٨).



الغضب والانفعال، وبذلك يكون الإنسان إنساناً شديداً لا تغلبه الرجال.^(١)

فالشُّرْعَةُ هو الذي يصرع الرجال قد يقضي عليه رجل ضعيف بتدبيره ومكره، والرجل الشُّرْعَةُ ضعيف أمام الحيوانات المفترسة وأمام الجراثيم والرصاص، أما الشديد حقاً فهو الذي إذا غضب واشتد غضبه واحمرَّ وجهه صرع غضبه وسيطر على نفسه فلم ينقد لدواعي الغضب ولم يتصرف تصرفاً يندم عليه فيما بعد عندما يسكن غضبه.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني. قال ﷺ: «لا تغضب».

فردد مراراً قال: «لا تغضب».^(٢)

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه هذا الحديث بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: علمني شيئاً ولا تكثر عليّ، لعليّ أعيه. قال ﷺ: «لا تغضب». فردد ذلك مراراً، كل ذلك يقول: «لا تغضب».^(٣)

○ وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أوصني.

قال: «لا تغضب». قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله.^(٤)

فقول هذا الصحابي يدل على أن الغضب جماع الشر، وهذا ما يؤيده الواقع العملي.

واستيلاء الغضب على الإنسان وتماديه في تصرفاته يوقعه في غضب الله.

(١) انظر كتابنا "الحديث النبوي" ص ٩١.

(٢) رواه البخاري (٦١١٦)، وأحمد ٤٦٦/٢.

(٣) رواه الترمذي (٢٠٢٠).

(٤) رواه أحمد ٣٧٣/٥، ومالك في "الموطأ" ٩٠٦/٢.

يشهد لذلك حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه الذي سأل النبي ﷺ: ماذا يباعدني من غضب الله ﻋﻠﻴّ؟ قال ﷺ: «لا تغضب».

قال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر.

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة قال: اترك الغضب.

ونتائج الغضب وخيمة وكثيرة، فمنها أنه يورث صاحبه الحقد والحسد ولاسيما إن لم يستطع الغضبان أن ينال من خصمه ما يريد.

ومنها أنه يجلب لصاحبه الحزن والألم النفسي والجسدي.

ومنها أنه قد يوقع في غضب الله لأنه يقود إلى الوقوع في المعصية والكفر وهذه خسارة

الدنيا والآخرة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله ﷺ قائلاً: ما يباعدني من غضب الله ﻋﻠﻴّ؟ قال ﷺ: «لا تغضب»^(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: دلني على عمل يدخلني

الجنة. قال رسول الله ﷺ: «لا تغضب ولك الجنة»^(٢).

ومنها أنه يجعل المرء الغضوب مكروهاً ثقیلاً الظلّ ينفر الناس منه، ومسكينٌ من يعاشره.

ومنها أنه يقود إلى كوارث أسرية واجتماعية كثيرة.

ومنها أنه السبب الأكبر في وقوع جرائم القتل في المجتمع.

(١) رواه أحمد ٢/ ١٧٥، وابن حبان ١/ ٥٣٢.

(٢) رواه الطبراني في "الأوسط" ٣/ ٢٥. وهو حديث صحيح.



وينبغي أن لا يغرنّا انصياح الناس لغضبنا أول مرة، فهذا أمر طارئ لا يدوم؛ ذلك أنه قد يهابُ معاشرونا غضبنا ويحسبون له الحساب في أول الأمر، وقد ينصاعون لما نريد .. ولكنهم إذا رأوا تكررّه منا في كل صغيرة وكبيرة لم يبالوا بنا ولم يلتفتوا إلينا.

ألا فلندخرْ غضبنا للأمور الجليلة التي تتصل بحرمات الله والتي تتصل بتضييع أولادنا وزوجاتنا وتلاميذنا تضييعهم واجباً أوجبّه الله عليهم أو بفعلهم محرماً حرّمه الله عليهم.

يجب أن لا تثيرنا الأمور الصغيرة .. ولنتعامل معها بإيجابية، ولنعالجها بالصبر والأناة.

إنّ التقلبات المزاجية كثيرة الحدوث في الرجال والنساء وهي مما نلمسه في حياتنا وحياة الآخرين، وهي في غالب الأحيان غامضة ولكنها باعثة على الضيق والضجر، فلا تنفعل يا أخي ولا تغضب إن رأيت في زوجتك وزملائك وأولادك ذلك، وأنت يا أختي لا تنفعل ولا تغضبي إن رأيت في زوجك وزميلاتك وأولادك ذلك.

ولا يجوز أن نفسر هذه التقلبات تفسيراً سيئاً، ولا يجوز أن نضخم الأمور حتى يقودنا ذلك إلى الغضب، ولا يجوز أن نحكم على من نعاشر من خلال خطأ وقع فيه، فذلك ظلم بين، بل علينا أن نذكر فوراً أخلاقاً كريمة هي فيه، والكمال في البشر متعذرٌ وجوده. يقول ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر»^(١).



(١) رواه مسلم (١٤٦٩).

وهذه همسة للزوجات والأزواج:

يجب أن تعلموا أن غضب الزوج أو الزوجة ليس دليلاً على نهاية الحب بينكما، ويجب أن يحاول كل منكما امتصاص غضب صاحبه بالهدوء والصبر. وعدم مقاطعة الغضبان، بل يحسن أن يُسمعه بعض الكلمات الرقيقة التي تُشعر بالاهتمام بغضبه. وينبغي أن يتجنب كل من الزوجين العبوس في وجه صاحبه مهما كانت الأسباب. وأن يتذكرا أن البيت المفعم بالحب والهدوء والاحترام المتبادل خيرٌ من بيت عامر بالأثاث الفاخر والخدم ومليء بما لذّ وطاب من ألوان الطعام والمتعة ولكنه مليء بالنكد والخصام.

لقد أوصى النبي صلوات الله وسلامه عليه من طلب منه الوصية بأن لا يغضب. وللوصول إلى هذه المنزلة العالية ينبغي للمسلم أن يتحلّى بحسن الخلق، وبالكرم والسخاء، وبالحلم عندما يستفزه إنسان، وبالتواضع للفقراء والعامة، وبالصفح عمن أخطأ والعفو عنه، وبالبشاشة وطلاقة الوجه للناس جميعاً.

فإذا اتصف المرء بهذه الأخلاق ابتعد عنه الغضب بمقدار تحليه بهذه الأخلاق. وكذلك فإنّ مما يفهم من من قوله «لا تغضب» أي: لا تعمل بمقتضى الغضب بل جاهد نفسك على احتمال الأذى، فإنّ الغضب سيسكن ويسكت. ومما يحقق للمرء البعد عن الغضب أن يتعود على كظم الغيظ، وكظم الغيظ هو تجرعه وابتلاعه، ولذا كانت هذه الصفة من صفات المتقين. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿آل عمران: ١٣٣-١٣٤﴾. وكذلك فمن صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم إذا ما غضبوا فهم يغفرون. قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ



يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
[الشورى: ٣٦-٣٧].

وأخرج البخاري تعليقاً عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ قال: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله وحضهم لهم عدوهم.

وهذا الفهم فهم عظيم ذلك أن المرء إذا غضب فصبر وغالب نفسه، عصمه الله من الوقوع فيما يغضب الله. وانتصر على عدوه حتى يخضع له. وهذا ملاحظ مشاهد، فالذي يملك نفسه عند الغضب هو الذي يكسب الجولة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه، وستر عليه برحمته وأدخله في محبته. من أعطى شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر». (١)

ومن وسائل علاج الغضب التي أرشد إليها المربي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه:

١ - أن يستعيز بالله من الشيطان.

عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس، وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول النبي ﷺ، قال: إني لست بمجنون. (٢)

٢ - أن يعرف ثواب الحلم وكظم الغيظ.

(١) رواه الحاكم ١/ ١٢٥، وقال صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري (٦١١٥ - ٣٢٨٢ - ٦٠٤٨)، ومسلم (٢٦١٠).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستذن لك عليه.

قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن عمر، فلما دخل عليه قال: هي يابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله. ^(١)

٣- أن يغير من وضعه وجلسه فإذا كان واقفاً فليجلي، أو كان قاعداً فليضجع. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ألا وإن الغضب جُمْرَةٌ في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حُمْرَةِ عينيه، وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلتصق بالأرض». ^(٢)

لأنَّ القائم متهيئ للانتقام، والجالس دونه، والمضجع أبعد عنه، فأمره بالابتعاد عن حالة الانتقام.

٤- أن يتوضأ. فقد ورد أنه ﷺ قال: «إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ». ^(٣)

٥- أن يسكت ويمتنع عن الكلام. قال ابن رجب ^(٤): [وهذا أيضاً دواء عظيم للغضب، لأنَّ الغضب ان يصدر منه في

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢ - ٧٢٨٦).

(٢) رواه الترمذي (٢١٩١).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٨٤). وهو حديث ضعيف.

(٤) ابن رجب ٣٦٦/١.



حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه كثيراً من السباب وغيره مما يعظم ضرره، فإذا سكت زال هذا الشر كله عنه. وما أحسن قول مورق العجلي رحمه الله: ما امتلأت غيظاً قط، ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت». قالها ثلاثاً. (١)

٦- ترك المكان الذي أصابه فيه الغضب.

حدثني أحد العقلاء قال: إذا جري بيني وبين زوجتي خلاف وكلام فغضبت فإني لا أبقى في البيت، بل أقوم إلى سيارتي فأذهب إلى أي مكان أو إلى صديق وأبقى حتى يهدأ غضبي. وعندما أعود لا أذكر شيئاً يعيد التوتر.

٧- أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب.

لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لهرب من نفسه واشمئز من صورته من قبح تلك الصورة، واستحالة خلقته. هذا كله في الظاهر وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضرار السوء.

حدثني أستاذ كبير قال: خرجت من بيتي غضبان فركبت الترام وكانت مرآة تقابلني فرأيت وجهاً قبيحاً.. فقلت: أعوذ بالله أيكون في بني آدم مثل هذا القبح.. ولكنني بعد قليل أدركت أن الذي أراه إنما هو شخصي. فعرفت أثر الغضب على الإنسان.

٨- وأخيراً فإن تذكر نتائج الغضب قد تجعل المرء ينأى بنفسه عن الغضب.

* * *

الجشء .. والإكثار من الطعام

هناك عدة أمور تربوية اجتماعية نبّه عليها سيدنا رسول الله ص وهي يسيرة ومهمة بأن، ويتهاون بها كثير من الناس بدعاوى مختلفة مردودة، ولا أريد التفصيل بذكر هذه الدعاوى.

الأمر الأول من هذه الأمور التربوية النبوية أن لا يستكثر الإنسان من الطعام والشبع لأنّ عاقبة ذلك مرض مؤلم، وسَمَنٌ مؤذٍ مزعجٌ، وجشءٌ مخرج لصاحبه أمام الناس ومضايق لهم .. وقد يكون سبباً في قسوة القلب.

وهذا الأمر التربوي وصية صحية ثمينة، ما أجدر العاقل أن يعمل بها ويحرص عليها. ومن العجب العجائب أنّ بعضهم يعلم يقيناً أنّ الإكثار من الطعام بعامة أو تناول نوع معين من الطعام بخاصة يؤذيه، وتراه مع ذلك يقدم على ما يؤذيه، فيتلوى بعد الطعام من الألم ويئنّ ويصيح .. ثم يذهب إلى الطبيب .. وقد كان في غنى عن ذلك كله.

○ عن أبي جحيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أقصر من جشائك؛ فإنّ أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة»^(١).

وفي روايه أبي جحيفة أنه قال: أكلت خبز بُرٍّ بلحمٍ سمين، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فتجشأت فقال صلى الله عليه وسلم: «احبس - أو اكفف - جشءك .. فإنّ أكثر الناس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة».

وفي رواية: فما أكل أبو جحيفة ملء بطنه حتى فارق الدنيا، وفي رواية أنّ أبا جحيفة قال: فما شبع منذ ثلاثين سنة.

ولتأمل هذا الموقف العظيم من أبي جحيفة، فلقد قبل نصح الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٣١١ / ٤، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١١٧٩).



واستمر على الالتزام بتلك النصيحة إلى أن فارق الدنيا .. لم يشبع بعد ذلك اليوم ولم يملأ بطنه قط.

وهذا الحديث رواه عدد من الصحابة منهم أبو جحيفة الذي أوردنا روايته آنفاً، ومنهم ابن عمر وابن عمرو وابن عباس، وسلمان، رضي الله عنهم.

○ وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ أهل الشَّعب في الدنيا هم أهل الجوع غداً في الآخرة».

○ وفي حديث سلمان رضي الله عنه الذي أخرجه ابن ماجه أنَّ سلمان أكره على طعام يأكله، فقال: حسبي أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ أكثر النَّاس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة».^(١)

ومن مجموع هذه الروايات نستطيع أن نستكمل صورة الحادثة وأن نفق على مناسبة الحديث.

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: تجشأ رجلٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «كفَّ عنا جشاءك؛ فإنَّ أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة».^(٢)
وأحسب أنَّ عدداً منا قابل بعض هؤلاء الذين يتجشئون بصوت عالٍ يتبعه انبعاث رائحة خبيثة.

وعندما تجشأ الرجل أمام الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع الأمر يمضي بل وجّه النصيح لهذا الرجل فقال: «أقصر من جشائك» أو «كفَّ عنا جشاءك» أو «احبس جشاءك».
ثم يبيِّن له سبب ذلك وهو المبالغة في الشبع. وذكر أنَّ أكثر النَّاس شبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً في الآخرة.

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٧٨)، وابن ماجه (٣٣٥٠)، وحسنه الألباني.

ويحدث هذا في مجالس الناس العامة وفي المساجد والمتنديات فيتأذى به من يكون قريباً من المتجشئ. فليراقب المرء نفسه، وليحبس جشاه، فإن المرء إن غالب هذا الأمر غلبه، وإن لم يحبسه أصبح عادة متمكنة منه يصعب عليه التخلص منها، وليعمل بتوجيه النبي ﷺ التربوي الكريم.

إنه ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم كما وصفه ربه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولقد نهى ﷺ عن الإكثار من الأكل، وهذا من الأساليب التربوية النبوية. من ذلك قوله ﷺ فيما رواه عنه المقداد بن معديكرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(١). وهذا الحديث من جوامع كلمه صلوات الله وسلامه عليه، إن علينا أن نحاسب أنفسنا في طعامنا فالمعدة حقاً بيت الداء.

والترهيب من الشيع الوارد في الأحاديث النبوية العديدة من أعلام نبوته ﷺ ودلائلها إذ يقرر هذا التوجيه السليم الطب الحديث ويؤكد.

إن الإكثار من الطعام ومداومة المرء على الشيع الزائد يؤدي إلى التخممة وأمراض أخرى.

إن عيش الإنسان من أجل أن يأكل سقوط بالإنسان إلى دركة منحطة تلحقه بالحيوان. إن الإنسان أكرم من ذلك.. وإن تعلق الإنسان بالطعام والاستكثار من

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح.



الشعب يحول بينه وبين التفكير في خلق الله وإحكام صنعه، ويَصُدُّه عن الطاعات وابتغاء المثل وحمل رساله الإسلام إلى الناس.

إنَّ استيلاء شهوة البطن على المرء مهلكة له، فيها أخرج آدم ع وحواء من دار السرور والقرار، إلى دار الذلِّ والافتقار، إذ نهاها عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلتا منها فبدت لهما سوءاتهما وأخرجتا من الجنة.

وإذا استولت شهوة البطن على إنسان واستحكمت فيه ركب الصعب والذلول لجمع المال من طرق مباحة ومحرمة لتحقيق بغيته .. وفي ذلك هلاكه.

ويتبع جمع المال أنواع من المنافسات والمحاسدات .. ويقوده ذلك إلى الحقد والعداوة والبغضاء .. ثم اقتحام البغي والمنكر والفحشاء.

إنه أدب كريم دعا إليه رسول الله ﷺ وهو الابتعاد عن الجشأ وسببه الذي هو الشعب الزائد. أما إذا كان هذا الجشأ غير اختياري فعلى المرء أن يجبسه، فإن لم يستطع فعليه أن يخفض من صوته لكيلا يكون من المسلم إيذاء لأخيه المسلم.

أرأيتم إلى هذا الأدب السامي والذوق الرفيع الذي ربَّى عليه رسول الله ﷺ أصحابه. فلنحرص على أن نستجيب لرسول الله ﷺ لأوامره وتوجيهاته، ففيها الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

كما بيَّنا في حديث أبي جحيفة فيما سبق من حرص النبي ﷺ على إعداد أتباعه وتربيتهم ليكونوا في مستوى عالٍ من الذوق الرفيع فلا يؤذوا الآخرين .. بأي شيء حتى ولو كان هذا الشيء يسيراً كالجشأ.

وفي هذا الحديث تزهيد للمسلمين بالدنيا وشهواتها، لكيلا يكون همُّ الإنسان في الحياة منصرفاً إلى الحصول على الملذات والشهوات .. وليكونوا أهلاً لحمل رسالة

الإسلام العظيم .. لأن أمة الإسلام التي ربّاهَا رسول الله ﷺ كانت وهي في أوج قوتها خاضعة لله، زاهدة في الدنيا متصفة بمكارم الأخلاق.

والفرق كبير بين واقع الناس أيام دولة النبي ﷺ عندما دانت لهم الجزيرة العربية .. وتحققت لهم السلطة .. كانوا زاهدين في متاع الحياة الدنيا، وكانوا في الوقت نفسه مجاهدين يحملون رسالة الإسلام إلى الدنيا وكانوا سادتها. وبين واقع الناس في روما عندما كانت عاصمة الأمبرطورية الرومانية التي كانت تسيطر على معظم رقاع العالم .. كان أبناء روما يعيشون لممارسة شهواتهم .. ويقضون كثيراً من أيامهم في الحمامات الدافئة بين أكل وشرب وممارسة لشهواتهم وتلذذ بتعذيب الإنسان والحيوان.

لقد كان رسول الله ﷺ وصحابته الكرام القدوة المثلّي للأجيال المقبلة في العزوف عن الاستكثار من الطعام والشهوات الأخرى كما نرى في الأحاديث الصحيحة الآتية:

○ عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض. (١) وفي رواية: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً.

○ وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يابن أختي! كنّا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار.

(١) رواه البخاري (٥٤١٦)، ومسلم (٢٩٧٠)، والترمذي (٢٣٥٣)، وابن ماجه (٢٣٤٦).



قال عروة قلت: يا خالة! فما كان يُعَيِّشُكُمْ؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها. (١)

○ وعن أنس رضي الله عنه قال: لم يأكل النبي ﷺ على خِوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات. (٢)

الله أكبر .. تمر وماء .. هذا غذؤهم .. والدنيا كلها بين يديه صلوات الله وسلامه عليه. ومعلوم أن الجزيرة كلها دانت له، فلم يكن ذلك الزهد من عُدْم .. ولكنه ﷺ زهد في متاع الدنيا وحمل أهله على ذلك.

ورغبهم رسول الله ﷺ بالقناعة:

○ عن فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع. (٣)

○ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافاً، وقنعه الله بما آتاه. (٤)

○ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله لا يجِدُونَ عشاءاً، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. (٥)

(١) رواه البخاري (٦٤٥٨)، ومسلم (٢٩٧٢).

(٢) رواه البخاري (٦٤٥٠).

(٣) رواه الترمذي (٢٣٤٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٥) رواه الترمذي (٢٣٦٠) وقال: حديث حسن صحيح.

وكذلك كان أصحابه الكرام، وإليكم هذا الحديث الذي يحكي حياة القوم الذين كانوا خير الخلق في ذاك العصر:

○ قال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم - أو ليلة - فإذا هو بأبي

بكر وعمر رضي الله عنهما. فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟»

قالا: الجوع يا رسول الله.

قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما».

فقاما معه. فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟».

قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله. ما أجد اليوم أكرم اضيفاً مني.

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر^(١) وتمر ورطب، فقال: كلوا. وأخذ المدينة.

فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا. فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر

رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم

من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم».^(٢)

وفي رواية الترمذي تفصيل وبسط للقصة وسأورد روايته لتكتمل صورة هذه القصة الممتعة المترعة بالدروس التربوية:

(١) البسر: مرحلة من مراحل نضج التمر. [أوله طلع، ثم خال، ثم بلح بفتحتين، ثم بسر، ثم

رطب، ثم تمر. الواحدة بُسرة بُسرة والجمع بُسرات وبُسُر].

(٢) رواه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي (٢٣٦٩) وقال: هذا حديث حسن غريب.



خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه،

- فقال: «ما جاء بك يا أبا بكر؟».

- فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه.

فلم يلبث أن جاء عمر رضي الله عنه فقال ﷺ: «ما جاء بك يا عمر؟».

- قال: الجوع يا رسول الله.

- فقال رسول الله ﷺ: «وأنا وجدت بعض ذلك».

فاطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن النيهان^(١) - وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم - فلم يجدوه.

فقالوا لامراته: «أين صاحبك؟»

ف قالت: انطلق يستعذب لنا الماء، ولم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بِقِرْبَةٍ يزعبها^(٢) فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويُقْدِيهِ بِأُيْبِهِ وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته، فيسط لهم بساطاً، ثم انطلق إلى نخلة، فجاء بقنو، فوضعه فقال النبي ﷺ: «أفلا تنقيت لنا من رطبه».

فقال: يا رسول الله إني أردت أن تحتاروا. أو قال: تخيروا من رطبه وبسره، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد».

فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً. فقال النبي ﷺ: «لا تذبحن ذات در».

(١) وهو مالك بن النيهان، كان أحد الستة الذين لقوا النبي ﷺ بالعقبة، شهد بدرًا والمشاهد

كلها، وتوفي في خلافة عمر رضي الله عنه. والتهيان فيها لغات عدة انظرها في "تاج العروس"

٣٨٣/٩، و"سيرة ابن هشام" ٧٥/٢.

(٢) أي: احتملها ممتلئة.

قال: فذبح لهم عناقاً أو جدياً، فأتاهم بها فأكلوا.
فقال النبي ﷺ: «هل لك خادم؟» قال: لا. قال: «فإذا أتانا سبي فأتنا». فأتى النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث. فأتاه أبو الهيثم.
فقال النبي ﷺ: «اختر منهما». فقال: يا نبي الله اختر لي.
فقال النبي ﷺ: «إنّ المستشار مؤتمن، خذ هذا فإني رأيته يصلي واستوصي به معروفاً».

فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ. فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه. قال: فهو عتيق.
فقال النبي ﷺ: «إنّ الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهيه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً. ومن يتوق بطانة السوء فقد وقي».

إنّ رسول الله ﷺ عندما كان في المدينة كان رئيس دولة تُجبي إليه الأموال .. ومع ذلك فقد كان يشتدُّ عليه الجوع حتى لا يستطيع البقاء في البيت، فيخرج في ساعة لا يخرج الناس فيها، ويدل على ذلك قوله لصاحبيه (رضي الله عنهما) عندما رأهما: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ ويدل على ذلك أيضاً قول أبي هريرة (رضي الله عنه): خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها.

وأبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) كانا مستشاري النبي ﷺ ومساعديه، وكانا يلازمانه .. هذان الرجلان يأتيان في الدولة بعده مباشرة .. ومع ذلك لا يجدان في بيوتهما ما يدفع غائلة الجوع .. فيخرجان.

ومن الفوائد التي نقف عليها في الحديث الفوائد الآتية:



١- إنَّ في الحديث وأمثاله تصويراً لما كان عليه النبي ﷺ وكبار أصحابه من التقليل من الدنيا .. ولما كانوا عليه من الضيق زهداً.

٢- وفي الحديث - كما قال النووي - جواز ذكر الإنسان ما يناله من ألم ونحوه، لا على سبيل التشكي وعدم الرضى بل للتسلية والتصبر كفعل الرسول ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهم ههنا، ولالتماس دعاءٍ أو مساعدةٍ علة التسبب في إزالة ذلك العارض فهذا كله ليس بمذموم، وإنما يذم ما كان تشكياً وتسخطاً وتجزعاً.

٣- وفي الحديث ما يدلُّ على أنَّ المسارعة في إكرام الضيف أمر مستحسن، إذ كان فعل الصحابي بمحضر النبي ﷺ، وقد بدا كرم الأنصار في هذه القصة، وكرمهم أمر متواتر، فالمرأة رحبت بالنبي ﷺ وصاحبيه، ولما جاء زوجها ورأى النبي ﷺ قال: الحمد لله، ما أحد أكرم أضيافاً مني، ثم أقبل على النبي ﷺ وعانقه والتزمه وصار يفديه بأبيه وأمه، وأظهر فخره بهذا الشرف العظيم الذي أكرمه الله به، فانطلق وجاءهم بعذق (غصن) فيه بسر ورطب وتمر وقدمه إليهم، ثم ذبح لهم ذبيحة وقربها إليهم.

٤- وفيه المسارعة إلى حمد الله عند حلول نعمة، فالأنصاري عندما رأى رسول الله ﷺ في داره قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني.

٥- وفي الحديث ما يدل على حدود الصداقة الواسعة في الإسلام، التي من سعتها أنَّ للصدِّيق أن يأكل من بيت صديقه، هذا إذا علم رضاه كما جاء في كتاب الله قال الله ﷻ: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّمَّا تَحْتَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١].

فللرسول ﷺ دالة على أبي الهيثم .. فقصده واستتب إلى بيته صاحبيه، وفيه منقبة عظيمة لأبي الهيثم، إذ جعله النبي ﷺ أهلاً لذلك، وكفى له شرفاً بذلك.

٦- وفي الحديث تصوير لمحبة الصحابة لرسول الله ﷺ .. إنها محبة صادقة مغروسة في أعماق نفوسهم تعبر عنها تصرفاتهم في الحرب والسلام .. فالرجل منهم والمرأة، والكبير والصغير، والغني والفقير، كلهم يحبون هذا النبي ﷺ حباً جمّاً .. ويُقدِّدونه بأرواحهم وهي أعلى ما يملكون. وحب النبي ﷺ شعبة من شعب الإيمان، لا يكمل إيمان المرء حتى يحققها.

○ عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فامرأة أبي الهيثم رحبت بالنبي ﷺ ترحيباً عظيماً، وأبو الهيثم عانق النبي ﷺ وصار يفدي بآبيه وأمه.

٧- وفي الحديث ما يدل على أن صوت المرأة ليس بعورة، وهذا هو القول الصحيح لا كما يظن بعض الناس الذين يأخذون بقول ضعيف قال به بعض أهل العلم، وهذا القول تردّه الأحاديث الكثيرة الثابتة ونها هذا الحديث.

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، والنسائي (٥٠١٣)، وابن ماجه (٦٧)، وأحمد (١٧٧/٣).



إذن فصوت المرأة ليس بعورة .. فلها أن تحجب الرجال إذا سُئلت، ولها أن ترجع إلى العلماء تستفتيهم في أمور دينها، على ألا تكون خلوة، وعلى أن يكون كلامها مع الرجال جاداً مهذباً لا تكسر فيها ولا تغنج، وليس فيه خضوع بالقول. قال الإمام النووي تعليقاً على هذا الحديث: [وفيه - أي هذا الحديث - جواز سماع كلام الأجنبية ومراجعتها الكلام للحاجة].^(١)

٨- وفي الحديث تذكيرٌ للمسلم بالمسؤولية بين يدي الله عن النعم التي يمنّ الله بها على عباده .. وهذا ما يغفل عنه كثير من الناس .. إنّ كلّ إنسان سيُسأل عن هذه النعم: هل أدّى شكرها .. ألا فليأخذ المرء حذره.

إنّ شعور المرء بالمسؤولية توجيه تربوي كريم .. وهو توجيه لو أخذ الناس به والتزموه، لقلت المخالفات، وزالت الانحرافات، ولصلح أمر الأمة.

إنّ المسلم الحق دائم اليقظة يراقب نفسه ويراجعها .. إذا أكل وشرب وتمتع بما أحلّ له قدذر هذه النعم حق قدرها، فحمد الله على ما أولاه إياها، وتذكر أنّ هناك كثير من الناس محرومون منها.

٩- وفي الحديث عرضٌ للمستوى الديني الرفيع الذي بلغته المرأة في عهد النبوة ممثلاً بزوجة أبي الهيثم؛ ذلكم لأنّ النبي ﷺ قال لأبي الهيثم: «هل لك خادم؟» قال: لا. قال ﷺ: «فإذا أتانا سبي فأتنا». فأتي النبي ﷺ برأسين لا ثالث لهما. فأتاه أبو الهيثم. فقال ﷺ: «اختر منهما». فقال: يا نبيّ الله اختر لي. فقال النبي ﷺ: «إنّ المستشار مؤتمن، خذ هذا فإني رأيته يصلي واستوصي به معروفًا». فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ. فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه. قال: فهو عتيق.

(١) "تحفة الأحوذى" ٢٧٥/٣.

تصوروا امرأة لا خادم لها وهي متعبة بشؤون البيت والضيوف، ويأتيها خادم يريحها في كثير من شؤون الخدمة، فتقترح على زوجها أن يعتق هذا الخادم .. تقترح ذلك ابتغاء تحقيق وصية رسول الله ﷺ، وتؤثر مرضاة وتؤثر مرضاة الله على راحتها.

لقد كانت هذه الزوجة بطانة خير تأمر بالمعروف وتعين عليه. فقال النبي ﷺ في هذا الحديث: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا وَلَا خَلِيفَةً إِلَّا وَلَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَبَطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا. وَمَنْ يَتَوَقَّ بَطَانَةَ السُّوءِ فَقَدْ وَفَى».

وهذه الفقرة من الحديث يوضحها حديث أبي سعيد^(١) الخدري رضي الله عنه عند البخاري، وفيه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ...» قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ: وَفِي رِوَايَةِ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا بَعْدَهُ مِنْ خَلِيفَةٍ...» وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ الْأَوْزَاعِيِّ وَمَعَاوِيَةَ بْنِ سَلَامٍ: «مَا مِنْ وَالٍ...»

والبطانة: الصاحب الذي يُعرِّفه الرجل أسرارَه ثقةً به، شُبّه ببطانة الثوب. فإن كانت البطانة خيرةً تقيّةً كانت تأمر صاحبها بالمعروف وتنهيه عن المنكر، والمعروف ما عرفه الشرع وحكم بحسنه، والمنكر ما أنكره الشرع ونهى عن فعله.

وإن كانت البطانة شريرة لا تألوه خبالاً، أي لا تقصر في إفساد أمره. فهنيئاً لمن رزق البطانة الصالحة الخيرة سواء أكان صاحبها أميراً أو زوجاً أو أباً أو مديراً لمؤسسة رسمية أو أهلية.

(١) مستفاد من "تحفة الأحوذى" للمباركفوري ٣/ ٢٧٥.



وفي هذا المعنى ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: «من ولي منكم عملاً، فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكره أعانه».

قال ابن حجر: وقد استشكل هذا التقسيم بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه وإن جاز عقلاً أن يكون فيمن يداخله من يكون من أهل الشر، لكنه لا يتصور منه أم يصغي إليه، ولا يعمل بقوله لوجود العصمة.

وقيل: المراد بالبطانتين في حق النبي الملك والشیطان، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «ولكنني أعاني الله عليه فأسلم».

ويحتمل أن المراد بالبطانتين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة المحرصة على الخير. والله أعلم.

١٠- قال النووي: [وفيه - أي الحديث - دليل على استحباب تقدم الفاكهة على الخبز واللحم وغيرهما].

قلت: وفي هذا نظر، لأن أبا الهيثم قدّم الذي لا يحتاج إلى إعداد، أما اللحم والخبز يحتاج إلى إعداد.

ويستدل بعضهم بقول الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَفَلَكُم مِّن مَّا يَخْتَارُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١]. وفي دلالة الآية على ما يذهبون إليه نظر، لأن الواو لا تقتضي الترتيب، ثم هذا الحديث عن أهل الجنة.

١١- والحديث يبين كيف كان الناس في المدينة يحصلون على ماء الشرب، وذلك عندما ذكرت زوجة أبي الهيثم أن زوجها ذهب يستعذب الماء لأهله.

في حديث المقداد بن معديكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة قثلت لطفامه وثلت لشرابه، وثلت لنفسه». توجيه تربوي سام يطلب من الإنسان ألا يملأ أكثر

من ثلث ما تتسع له المعدة، ويدع ثلثاً للشراب، وثلثاً للنفس. ويعين على ذلك أن يرفع المرء يده عن الطعام والنفس راغبة فيه. ذلكم لأن الأكل يؤدي مهمتين: أولاهما: أن يكون استجابة لضرورة استمرار الحياة ليقوم الجسم بأداء وظائفه. وثانيهما: أن يكون استجابة للرغبة قي اللذة بالأكل.

فالأكل الذي يمكن الجسم من أن يقوم بوظائفه يتحقق بالثلث، وأما ما زاد فإنها هو لا بتغاء اللذة.

وهذا التوجيه التربوي الحكيم يوافق ما وصل إليه العقل البشري فيما يتعلق بالغذاء وصيانة الجسم من الأمراض.

لا يجوز أن تكون كمية الطعام التي يتناولها الإنسان كثيرة مجاوزة ذلك الحد، بل ينبغي أن تكون دون ذلك، وعليه أن يُعنى بنوعية ما يأكل، فلا يستكثر من النشويات والدهنيات، وعليه أن يستكثر من الخضروات والفواكه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وليعود نفسه أحياناً على الجوع .. إن ذلك مفيدٌ جداً .. ويتحقق ذلك بصوم النافلة، والصوم عبادة نتقرب بها إلى الله وتجعلنا نعيش في جوٍ روحاني رفيع. والله سبحانه غني عن أن يجوعنا، بل لقد ذكر ربنا سبحانه أنه أنه كتب علينا صيام رمضان لعلنا نبلغ منزلة التقوى .. وما أسأها من منزلة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أجل إن الصيام إن أدَّى على الوجه الأكمل بلغ بالصائم منزلة التقوى. إن الجوع الاختياري يُذكر المرء المسلم بإخوانه المسلمين الذين يتضورون جوعاً من الجوع والذين تفتك بهم المجاعات .. وينبغي أن يحملهم هذا التذكُّر على مساعدتهم بما يستطيع، وعلى حض الآخرين على ذلك. قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ



﴿ وَلَا تَحْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ [الفجر: ١٧-١٨]، وقال: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١-٣].

والجوع المطلوب ليس الجوع المميت، ولكنه الجوع المذكور .. المعدل لمزاج الإنسان .. المقوي لإرادته .. الكابح لسلطان الشهوة .. إنه تدريب للمرء على مواجهة الأحوال التي يقل فيها الطعام واحتمال ذلك في الأزمات والغزوات ونحو ذلك. وتدريب على الصبر في شتى الحالات؛ ذلك لأن الناس جميعاً معرضون للابتلاء. قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْتَخِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

هذا ولا بد من الابتلاء، ولا سيما بالنسبة إلى الأمة التي تحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا تدعو الناس إلى الإسلام، ليحققوا في دنياهم السعادة والسلام، وليدخلوا في الآخرة الجنة دار السلام. قال تعالى: ﴿ أَمَرَ حَسْبُكُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

هذا والشعب المستمر قد يورث قسوة القلب؛ وذلك لأن الشيع يتبعه غالباً عناءً وثقل؛ وقد حدثني رجل عن نفسه أنه أكل وأكل حتى لم يعد يستطيع يتنفس إلا بصعوبة، وذكر أنه عندما قام إلى الصلاة لم يستطع أن يركع إلا بانحناء يسير. لماذا كل هذا؟! وعندما يشعر هذا الأكل بالثقل يبحث عن الهاضم .. فقد يجده وربما لا يجده؛ فهو في عناء دائم .. وقد يصاب بالتخمة والأمراض .. وهذا كله يحرم المرء

من التفكير السليم، قال لقمان لابنه: (يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة).

ومن شغل نفسه بمعدته فاته خير كثير .. فاتته الصلوات المفروضة .. والصلوات المندوبة، وفاته التفكير في خلق الله وفي إحكام صنعه، وفاته فعل المعروف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفاته القيام بكثير من الفضائل ..

وفي الإقلال من الطعام الذي ندب إليه رسول الله ﷺ فوائد صحية، وفوائد تربوية. فمن الفوائد الصحية ما ذكرنا من سلامة الجهاز الهضمي، والمعاينة من التخمة، والخلاص من السمن الذي يجلب عدداً من الأمراض كأمراض القلب وتصلب الشرايين، وأمراض جهاز الهضم.

ومن الفوائد التربوية ما ذكرنا من أن المرء الذي يلتزم الإقلال من الطعام تقوى إرادته ويكون مالكا لنفسه، يستطيع أن ينهها عما تهوى من الأمور اللذيذة الضارة والأمور المحرمة .. ومن بلغ هذه الرتبة كان من أهل الجنة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَيَنَّ لُجَّةً هِيَ الْإِيمَانِ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان»^(١).

إن مقولة عظيمة كانت حقيقة ماثلة في حياة أمتنا المجيدة .. هذه المقولة هي: أننا نأكل لنعيش، لا أننا نعيش لنأكل .. ذاك الحيوان الأعجم هو الذي يعيش ليأكل.

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم ٧٥/١، وقال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني: سنده ضعيف فيه أبو بكر بن أبي مريم وكان اختلط. (رياض الصالحين).



والحسن الإسلامي السليم يأبى أن يوصف مسلم بأنه يعيش ليأكل ويشرب ويلبس،
ويعد ذلك شتماً منكراً.

وأحسبكم تذكرون قصة الزبرقان بن بدر والخطيئة؛ فقد الخطيئة يخاطب
الزبرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فشكا الزبرقان الخطيئة إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر رضي الله عنه، فأراد أمير المؤمنين أن
يعتمد في حكمه على رأي شاعر؛ فاستدعى حسّاناً وسأله: هل ترى في هذا هجاء؟
فقال حسّان رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين. لم يهجه بل سلح عليه. ^(١) فعندئذ حبس عمر
الخطيئة.

إنّ همّ كثير من الأسر اليوم محصور في أمر الطعام؛ يسأل بعضهم
بعضاً: ماذا نأكل اليوم؟ فتراهم يتداولون الرأي في ألوان الطعام التي سيتناولونها..
ويتناقشون .. ويختلفون .. ولا يزالون كذلك حتى ينتهوا إلى اختيار أكلة معينة..
ويمضي رب الأسرة لإحضار موادّها التي تصنع منها من اللحوم والخضروات..
ومكذا ترى الأسرة كلها منشغلة بأمر الطعام.

إنّ على المسلم أن يشغل نفسه بأمور أسمى من أمور الطعام .. إنّ عليه أن
يشغلها بطاعة الله وتبليغ دينه والنهوض بأمته، وهو بذلك يرتفع إلى مستوى
إنساني رفيع.

سألني سائل قال: كيف نوفق بين ما دلّت عليه الأحاديث السابقة وبين الآية
الكريمة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]؟

(١) انظر "مختارات الأغاني" لابن منظور ٢/ ٢٨٠-٢٨١، ط المكتب الاسلامي.

قلت له: لو تأملت الآية الكريمة تجدها تذكر هذا الذي تريد من التوفيق وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

قال ابن كثير في "تفسيره": قال بعض السلف: جمع الله الطبَّ كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. ^(١)

○ وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه قال: «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ^(٢)

وروى ابن كثير في "تفسيره" عن أبي يعلى الموصلي بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ من السرف أن تأكل كلَّ ما اشتهيت». ^(٣)

وهكذا فإن التوجيهات التربوية النبوية في الأكل تتفق مع ما دلت عليه الآية الكريمة، ونحن لم نتجاوز في استجلاؤنا تلك التوجيهات الآية الكريمة.

إنَّ صلة هذه التوجيهات بالصيام جليلة واضحة، ولا سيما صيام النافلة، الذي يقدم فيه المسلم على الجوع الاختياري تقرباً إلى الله سبحانه، وهذا الصيام في الوقت نفسه يحقق أغراضاً تربوية وصحية. وقد سبق أن قلنا أنَّ الجوع المطلوب ليس الجوع المमित، لكنه الجوع المذكّر المعدل لمزاج الإنسان المقوي لإرادته الكابح لسلطان الشهوة، أولم يأمر الرسول ﷺ الشاب الذي لا يملك الباءة بالصوم، وذلك في

(١) رواه البخاري تعليقاً في الباب الأول من كتاب اللباس قبل ٥٧٨٣.

(٢) رواه أحمد ١٨٢/٢ واللفظ له، والنسائي (٢٥٥٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥).

(٣) رواه الدارقطني في "الإفراد" وقال: هذا حديث غريب تفرد به بقية.



الحديث الصحيح: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

إن الإسراف في الطعام والشراب مؤذٍ وضار، وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى أن نكتفي منهما بما يقيم صلب الإنسان، ويحفظ عليه حيويته، ويتحقق هذا بأن يملأ الإنسان أقل من ثلث حجم المعدة.

إننا نرى في واقعنا شباباً وشابات يسرفون في تناول الطعام إسرافاً كبيراً. وإليكم بعض الأمثلة:

○ طفل لا يتجاوز السادسة رأيته يأكل خمس ساندويتشات من الشاورما.
○ حدثني صديق أن أحد أولاده كان يسرف في الأكل منذ كان صغيراً .. ومازال كذلك في شبابه فهو يأكل في معظم أوقات يقظته، ولا يكف عن المضغ إلا عندما يأوي إلى فراشه .. يأكل الطيخ والحلويات والمكسرات .. وقد صار بسبب ذلك إلى حال من السمن مخيفة .. حتى ثقلت حركته، وساءت صحته، وحلت به الأمراض.

○ هناك رجل يعلم بالتجربة أن أكالات معينة لا تناسبه، ويعلم أن الإكثار من الطعام يؤذيه، ولكنه إذا رأى الطعام فإنه لا يستطيع أن يقاوم رغبته، فيقبل على الطعام يلتهمه، وتنهار إرادته، ويكون من عاقبة ذلك أن يتلوى طول الليل من الألم، ويصرخ ويئن!! وكان في غنى عن ذلك لو أنه ملك إرادته.

○ وهناك رجل جلس مرة على مائدة عليها أكلة يحبها .. فشرع يأكل ويأكل ومازال يأكل حتى كاد أن يموت، فنادى من حوله مستغيثاً: تعالوا إليّ وأنقذوني .. فيما أن ترفعوا هذا الطعام من أمامي، وإما أن تحملوني وتبعدوني عنه .. أرجوكم أكاد أموت.

هذه حالات واقعية لا خيالية، وهي خطيرة على صحة الإنسان .. ولا بُدَّ من علاجها، ويبدأ العلاج بأن يروض المرء نفسه على التخفيف بصورة تدريجية، وليتذكر أنَّ الوقاية خير من العلاج. قال حكيم العرب الحارث بن كَلَدَة: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء.^(١)

إنَّ كثرة الأكل وقلة الحركة تؤديان إلى السِّمَن والبدانة، والسِّمَن مرض العصر الذي يشكو منه معاصرونا من الشباب والشيخوخ، وهو سببٌ لأمراض كثيرة. والإسلام العظيم لا يحرم أتباعه من المتع الحلال، ولكنه يشترط الاعتدال فيها. يقول الله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ ءَادَمَ حُذُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَٰلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣١-٣٢].

إنَّ الزينة من اللباس ونحوه والطيبات من الرزق مباحة للمؤمنين بشرط عدم الإسراف، وهي - وإن شاركهم فيها غيرهم من الكفار في الدنيا - ستكون خالصة لهم يوم القيامة، لا يشاركهم فيها غيرهم.

إنَّ الاعتدال والبعد عن الإسراف في تناول ما أحل الله من الطيبات .. إنَّ ذلك كله يغيب عن عدد من البيوت الآن، بسبب الحنان الزائد على الأولاد، فترى الأبوين يبالغان في إطعام أولادهما فوق حاجتهم .. ولا سيما الأم التي تجري وراءهم تريد الإمساك بهم وتلقيهم الطيب من الطعام وهم يهربون منها وقد يكون .. وهي لا تكف عن محاولة إدخال الطعام إلى أفواههم بالقوة .. وقد تذهب إلى الطبيب ليساعدها في ذلك قائلة: إنَّ هذا الولد لا يأكل شيئاً أبداً .. وليس كلامها صحيحاً .. ولكنها تريد أنه لا يأكل كما تحب هي أن يأكل.

(١) انظر "الأسرار المرفوعة" بتحقيقنا ص ٢٤٣.



عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»^(١).

ولا يفوتني أن أذكر أنَّ للجوع فوائد، منها أنه قد يكون علاجاً لبعض الأمراض، فقد كتب أحد العلماء^(٢) تجربته في هذا فقال:
[لقد جوعت نفسي في أواخر سنة ١٣٧٩ هـ أربعين يوماً متتالية لم أذق في أثنائها طعاماً قط، ولم يدخل جوفي إلا الماء، وذلك طلباً للشفاء من بعض الأدوية، فعوفيت من بعضها دون بعض .. وقد خرجت بهذا التجويع بفائدتين ملموستين:
الأولى: استطاعة الإنسان تحمل الجوع تلك المدة الطويلة خلافاً لظن كثير من الناس.

الثانية: أنَّ الجوع يفيد في شفاء الأمراض الامتلائية .. ولكنه لا يفيد في جميع الأمراض على اختلاف الأجسام خلافاً لما يستفاد من كتاب "التطبب بالصوم".]

* * *

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦١).

(٢) هو الشيخ ناصر الألباني، انظر السلسلة الضعيفة ج ١ / رقم ٢٥٢.

العقل .. والتفكير

إنَّ من منن الله العظمى على عباده منَّةَ العقل، الذي ميَّز به الإنسان عن الحيوان الأعجم، ومن شكر هذه النعمة الجليلة أن نستعملها فيما يعود علينا وعلى الناس بالخير .. إن نستعمل هذا العقل ليدلنا على الطريق المستقيم .. نستعمل هذا العقل لنعرف الله سبحانه المعرفة التي تقودنا إلى أداء ما أوجب، وإيتاء عما نهى.

وهذا العقل العظيم ينبغي أن يكون مجال عمله فيما يستطيع أن يعمل فيه من التعلم، والابداع، والاختراع، ونشر الإسلام والدعوة إليه، واتخاذ المواقف التي تحقق للمرء سعادته الدنوية والأخروية.

ويصون الإسلام الطاقة العقلية أن تتبدد وراء السعي لمعرفة الغيبات التي لا سبيل للعقل البشري أن يصل إليها بذته .. إنَّ المصدر الوحيد الذي يمكن أن يمدنا بمعرفة الغيبات هو الوحي .. من كتاب وسنة.

ووسيلة العقل إلى معرفة الحق هي التفكير والتأمل وتدبر الظاهر للحس من عالم الشهادة، وفق المنهج الصحيح للنظر العقلي .. وكذلك تدبر نواميس الكون وتأمل ما فيها من دقة وارتباط. وتدبر ما جاء في الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْفُ رِئَاسٍ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وكتاب الله يقرر أنه لا يليق بالإنسان الذي يحترم إنسانيته أن يكون عقله في حكمه على الأمور معتمداً على التقليد للآباء والمجتمع: يقول الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝ قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنزَلْنَا كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٥]. وقال



سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ولا أن يكون عقل الإنسان الذي يحترم إنسانيته في حكمه وتصرفاته معتكداً على الظن: يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

○ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله عجل؛ فإن بين السماء السابعة إلى كرسیه سبعة آلاف نور.^(١)

○ وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: لا تفكروا بالله، وتفكروا في خلق الله.^(٢)

○ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله عجل.^(٣)

فالحديث يبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نفكر في كل شيء؛ لأن هذا التفكير نافع لنا يثبتنا على الحق، ويزيدنا يقيناً على ما نحن عليه من الهدى، وهو أمر ممكن لنا، والله ع لا يكلفنا ما لا نستطيع. أما التفكير في ذات الله فهو أمر مستحيل، أنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

(١) "السلسلة الصحيحة" (١٧٨٨).

(٢) "السلسلة الصحيحة" (١٧٨٨)، وأخرجه أبو نعيم في "الحلية" ٦/٦٦-٦٧.

(٣) رواه الطبراني في "الأوسط" (٦٤٥٦)، والبيهقي في "الشعب" ٧٥/١، وانظر "السلسلة الصحيحة" (١٧٨٨) وقال الألباني: [وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي. والله أعلم].

إنَّ هذا النوع من التربية العقلية يضمن للمسلم الاستقامة على الحق والبعد عن الانحراف.

وهذا النوع من أهم أنواع التربية .. إنَّ الذي يلتزم بهذا الهدى ينجح في حياته الفكرية، ويسعد في حياته الدنيوية، ولأجر الآخرة أكبر وأجل، وينجح في حياته المادية.

إنَّ الله وهبنا هذا العقل لنستعمله في الخير.
هناك أناس يعطلون عقولهم، ويرضون أن يكونوا ذليلاً حقيراً للآخرين، يرددون ما يقال لهم دون تفكير ودون وعي ودون محاكمة لما يقال لهم.
ولذلك نعى الله على الكفار أن يكونوا مقلدين لأبائهم ولو كانوا على ضلال مبين.

إنَّ النظر في ملكوت الله في السموات والأرض ليدل على الخالق العظيم وعلى صفاته العلا .. والنظر في آثار الأمم السابقة التي أصابها العذاب بما كسبت، والنظر في أنفسنا .. في الأجهزة التي أوجدها الله فينا لتستقيم لنا الحياة .. إنَّ النظر في ذلك كله والتفكير فيه مما دعا إليه كتاب الله وسنة رسوله ص. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

قال ابن كثير^(١): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونباتات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والروائح والطعوم والخواص، ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ

(١) بتصرف يسير.



وَالْتَهَارِ ﴿١٠٦﴾ أي تعقبها وتقارضها الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا، فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً .. إنَّ في ذلك لآيات لأصحاب العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

ومن الأمور الجديرة بأن نتفكر فيها موقفنا من الدنيا .. الدنيا التي سيطر حبُّها على قلوب كثير من الناس في هذه الأيام .. ما قيمة الدنيا أمام الآخرة؟ وما الذي ينبغي أن نفعله نحوها؟ هل نتركها كلها؟ هل نقبل عليها ولا نلتفت لشيء سواها؟

لقد أراد رسول الله ﷺ أن يربِّي أتباعه على الحذر من الدنيا، والاعتذار به فإنها غرارة، حتى لا تكون الدنيا غاية سعيهم ومبلغ علمهم، ربَّاهم على أن يأخذوا بما نصح به قومُ قارون صاحبهم عندما قالوا له: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٦-٧٧] نصحوه بأن يتبغى الدار الآخرة بالإنفاق مما آتاه الله، وبأن لا ينسى نصيبه من الدنيا. ومعلوم أنَّ دعاء الأبرار من المؤمنين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

إنَّ علينا أن نفكر كثيراً في آلاء الله التي منَّ بها علينا .. هذه الآلاء التي لا نستطيع أن نحصيها؛ من الأمن، وتوفر الطعام والشراب، ومن الصحة والعافية من الأمراض، ومن الأسرة والأولاد، ومن إقامتنا في مأوى مريح في أوطاننا ومن توفر المال والأدوية والمستشفيات، ومن السيارات والطائرات، إلى غير ذلك. إنَّ علينا أن

نفكر في حقيقة الدنيا فقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

إنَّ متاع الدنيا متاع قليل، وشهواتها سرعان ما تذهب، ويبقى إثمها إن كانت محرمة .. ولقد عرضت آية يونس سرعة انقضاء مسرات الحياة الدنيا، وذهاب الاستمتاع بمباهجها سريعاً .. عرضت ذلك بإيراد صورة معبرة رائعة قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أُمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. والله در من قال:

ولا يدوم على حال لها شان	وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ
وأين منهم أكاليل وتيجان	أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين ما ساسه في الفرس ساسان	وأين ما شاده شداد في إرم
وأين عاد وشداد وقحطان	وأين ما حازه قارون من ذهب
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا ^(١)	أتى على الكل أمر لا مردَّ له

وقد وصفها الإمام الغزالي وصفاً بليغاً فقال^(٢):

[أما بعد فإن الدنيا عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله.

• أما عداوتها لله، فإنها قطعت الطريق على عباد الله، ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها.

• أما عداوتها لأولياء الله ﷺ فإنها تزيت لهم بزيتها، وعمتهم بزهرتها ونضارتها،

(١) أبو البقاء الرندي يرثي الأندلس وانظر القصيدة كاملة في "نفح الطيب" ٤/ ٤٨٧.

(٢) "إحياء علوم الدين" ٣/ ١٩٧.



حتى تجربوا مرارة الصبر في مقاطعتها.

- وأما عداوتها لأعداء الله فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها، فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها، فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تنقطع دونها الأكباد، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد، فهم على فراقها يتحسرون، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون، بل يقال لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون].

- عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه وسلم مرّ بالسوق والناس عن كَفَتِيهِ (جانبه) فمرّ بجدي أسك^(١) ميت، فتناوله بأذنه ثم قال:
 - «أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟»
 - فقالوا: ما نحب أن يكون لنا بشيء، وما نصنع به؟
 - قال: «أتحبون أنته لكم؟»
 - قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت؟
 - فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم». ^(٢)
 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلی الله علیه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». ^(٣)
- إننا عندما نفكر في الدنيا في ضوء هذه النصوص ينبغي أن نحذرنا وألا نجعلها في قلوبنا وعندئذ ننجو من الهلاك.

(١) الأسك: الصغير الأذن وهو ردي.

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٩٥٦)، وابن ماجه (٤١١٣)، وأحمد ٢/٣٢٣.

○ عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».

- فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟
- قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وليقذفن في قلوبكم الوهن».

- فقال قائل: وما الوهن يا رسول الله؟

- قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»^(١).

علينا ونحن نتأمل هذه النصوص والحقائق أن نحاسب أنفسنا، وأن نربي أولادنا على هذا السلوك .. لننظر فيما سبق أن صدر منا من أعمال وأقوال، ونزنها بميزان الشريعة، فما كان منها طيباً صالحاً حمدنا الله عليه، وما كان سيئاً استغفرنا الله وتبنا إليه.

هذا شأن العاقل .. ولنعلم أننا واجدون ما قدمنا في ذاك اليوم العصيب ﴿يَوْمَ يَحْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

○ عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»^(٢).

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد ٥/ ٢٧٨.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٢٤، والترمذي (٢٤٦١)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم ١/ ٥٧، وفي سند هذا الحديث أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط بعد أن سرق بيته فالحديث ضعيف ومعناه صحيح وعليه نور النبوة.



الكيس من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز هو الذي تضعف إرادته
أمام هؤلاء، فيترك نفسه تتبع هواها، واتباع الهوى قتال. ومع ذلك يتمنى على الله أن
يدخله الجنة .. وأننى له ذلك.

* * *

الجرأة في قول الحق

لقد ربَّى سيدنا رسول الله ﷺ أتباعه على قول الحق والجرأة في ذلك .. ربَّاهم على ذلك رجالاً ونساءً .. ربَّاهم على أن يقولوا الحق لا يخشون في الله لومة لائم. وسأذكر لكم نماذج ممَّا جاء في السنة المطهرة من أحداث تدلُّ على هذا الأسلوب التربوي السليم الذي يجب أن تُربَّى عليه أبناء الأمة وبناتها.

لقد كان ﷺ واسع الصدر .. عظيم الحلم .. يتقبل من أتباعه آراءهم وملاحظاتهم ولو بدت شديدة الوقع .. ويناقشهم، ويبيِّن لهم الحق في القضايا والأسئلة التي يثيرونها، وقد ينهى عن أمر، فيطلبون منه أن يسمح لهم بهذا الأمر؛ لأنه جزء من حياتهم، فيستجيب لطلبهم إن هم التزموا حدود الله والأخلاق الإسلامية الكريمة، كما حصل عندما نهاهم عن الجلوس في الطرقات. إنَّ هذا جعلهم رجالاً ونساءً ذوي شخصية قوية .. صلبة في الحق .. رجاعة إلى الصواب، وجعلهم أهلاً لحمل رسالة الإسلام العظيم. وإليكم بعض النماذج من هاتيك الأحداث:

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: «بس أخو العشيرة»، فلما جلس تطلق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله. حين رأيت الرجل قلت: كذا وكذا، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه وألنت له الكلام. فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة. متى عهدتني فاحشاً؟ إنَّ شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره». (١)

(١) رواه البخاري (٦٠٣٢ - ٦٠٥٤ - ٦١٣١)، ومسلم (٢٥٩١)، وأبو داود (٤٧٩١)، والترمذي (١٩٩٦).



لقد رأت عائشة رضي الله عنها أمراً غريباً: كيف يذمُّ رسول الله ﷺ هذا الرجل، ثم يُلين له القول وينبسط إليه؟ وكانت تتوقع أن يقابله بالتجهم والشدة .. لما رأت ذلك لم تسكت ولم تكنم الأمر في نفسها .. لا .. لم تفعل ذلك، وما كان لها أن تفعل؛ لأنَّه ﷺ ربَّاهَا كما ربَّى أتباعه على قول الحق وعلى الرغبة في الوقوف على الحقيقة.

لم تسكت عائشة رضي الله عنها بل واجهت رسول الله ﷺ بما في نفسها بكل جرأة وأدب .. (فقالت: يا رسول الله. حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا، ثم تطلعت في وجهه وانبسطت إليه وألنت له الكلام).

فبيّن لها رسول الله ﷺ أن لا تعارض بين الوضعين .. فعندما رأى الرجل قال ما قال، وقد أثبتت الأيام صدق قوله ﷺ كما سنرى فيما يأتي، وهو الصادق المصدوق ذكر حقيقة هذا الرجل كيلا يغتر الناس به، ولما لقيه لقيه بشوشاً منبسطاً إليه؛ لأنَّ هذا هو شأنه ﷺ مع الناس جميعاً، ولأنَّه لم يكن فاحشاً، وسألها: متى عهدتني فاحشاً يا عائشة، وكأنَّه يريد أن يقول: وأنت من أعرف الناس بخلقِي وبأحوالي، ثم ذكر لها أنَّ الذي يهابه الناس ويتركونه خوفاً من سلاطة لسانه وفحشه هو شرُّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة. ورسول الله ﷺ الذي أثنى عليه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] لا يمكن أن يقابل الناس مهما كان حالهم بالفحش والتجهم والشدة.

[وهذا درس للدعاة كبير .. ماذا يضيرنا أن نلين القول للناس أجمعين؟ إنَّ ذلك يقرَّبهم منا .. إنَّ المسلم كالوردة تفوح منها رائحة العطر للناس جميعاً لا تفرق بين إنسان وإنسان .. إنها لا تحجب رائحتها الزكية عمَّن لا يستحقُّها، فكل من اقترب منها سَعِدَ بالشدَا العطر، وكذلك المسلم فإنه لا يستطيع إلا أن يكون حسن

المعاملة .. لطيف العشرة .. ولكن هذا اللطف لا يؤثر على موقفه الصلب من الباطل، فلا يجعله لطفه هذا يقول الباطل أو يؤيده^(١).

جاء في "فتح الباري"^(٢): [قال ابن بطال: هو عيينة بن حصن .. الفزاري، وكان يقال له: الأحق المطاع .. ولقد رجا النبي ﷺ بإقباله عليه تألفه لئيسلم قومه؛ لأنه كان رئيسهم .. وكذا فسره به عياض ثم القرطبي والنووي جازمين بذلك .

قال الخطابي: جمع هذا الحديث علماً وأدباً، وليس في قول النبي ﷺ بالأمر التي يسميهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، بل الواجب عليه ﷺ أن يبين ذلك ويفصح به ويُعرف الناس أمره؛ فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة، ولكنه ﷺ لما جُبل عليه من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر البشاشة، ولم يجبه بالمكروه، لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته ..

وقال القرطبي: في الحديث جواز غيبة المعلن بالفسق أو بالفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤد ذلك إلى المداينة في دين الله تعالى، ثم قال تبعاً لعياض: والفرق بين المداراة والمداينة: أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين أو هما معاً، وهي مباحة وربما استحبت. والمداينة ترك الدين لصالح الدنيا. والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته، والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول، ولم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة.

وقد كان عيينة أرتد في زمن أبي بكر رضي الله عنه وحارب المسلمين، ثم رجع واسلم، وحضر بعض الفتوح في عهد عمر رضي الله عنه وله معه قصة سنذكرها.

(١) من تعليق لي على الحديث (١٧٤) من "تختصر المقاصد الحسنة" بتحقيقنا.

(٢) انظر "فتح الباري" ١٠/٤٥٣ - ٤٥٤.



والحديث الذي ورد فيه أنه الأحق المطاع أخرجه سعيد بن منصور مرسلاً^(١):
 عن أبي معاوية عن الأعمش عن إبراهيم النخعي قال:
 جاء عيينة بن حصن إلى النبي ﷺ وعنده عائشة. فقال: من هذه؟ - وذلك قبل
 أن ينزل الحجاب - فقال ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين». قال: ألا أنزل لك عن
 أجمل منها؟
 فغضبت عائشة وقالت من هذا؟ فقال النبي ﷺ: هذا الأحق المطاع. يعني في
 قومه.

أما قصته مع سيدنا عمر رضي الله عنه تدل على جفائه وسوء خلقه نوردها لنيين جانباً
 تربوياً آخر ربى رسول الله ﷺ عليه أصحابه، وهذا الجانب هو الوقوف عند كتاب
 الله وامثال ما جاء عن الله.. لقد كان عمر رضي الله عنه وقافاً عند كتاب الله:

○ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه
 قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر
 ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً.
 فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي. لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه.
 قال الحر: سأستأذن لك عليه.^(٢)
 قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن عمر. فلما دخل عليه قال: هي يابن
 الخطاب، فوالله ما تعطينا الجرل ولا تحكم بيننا بالعدل.
 فغضب عمر حتى هم به.

(١) انظر "الإصابة" ٥٥/٣، و"فتح الباري" ١٠/٤٥٥، رواه سعيد بن منصور مرسلاً ورجاله

ثقات، وأخرجه الطبراني موصولاً من وجه آخر عن جرير.

(٢) أي: سأستأذن لك عليه حتى تجتمع به وحدك، لأن سيدنا عمر رضي الله عنه ما كان يحتجب إلا وقت
 خلوته وراحته.

فقال الحرّ: يا أمير المؤمنين. إنّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وإنّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر^(١) حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله.^(٢)

لقد كان القرآن عماد حياة الجيل المثالي من الصحابة رضي الله عنهم .. كان القرآن يحكم تصرفات هذا الجيل فيما بينهم وبين أنفسهم .. وفيما بينهم وبين الآخرين .. كانوا يندفعون إلى تنفيذ أحكامه في خلواتهم وجلواتهم دون أن تُملّى عليهم هذه الأحكام من قبل الدولة أو غيرها في كثير من الأحيان. وكذلك فقد كانوا يحكمونه فيما شجر بينهم، ويخضعون جميعاً لحكمه، المحكوم له والمحكوم عليه.

وهذا شأن المؤمن الصادق في إيمانه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذه الآية الكريمة المحكمة تقرّر صفة المؤمن الذي يرضى بحكم الله وينقاد له عن طيب خاطر ودون تردد، وهي عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله أو رسوله بشيء فليس لأحدٍ مخالفته، ولا اختيأ لأحدٍ ههنا ولا رأيٍ ولا قول، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

أوردنا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي يحكي فيه جفاء عينة وتطاوله على أمير المؤمنين أفضل الخلق في عهد خلافته لنؤكد أنّ ذم رسول الله ﷺ للرجل كان في

(١) أي: ما عمل بغير ما دلت عليه الآية، بل عمل بمقتضاها. وكان وقافاً عند كتاب الله: أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه.

(٢) رواه البخاري (٤٦٤٢ - ٧٢٨٦).



محلّه، وهو ﷺ مؤيّد بالوحي يعلم من أمور المستقبل والماضي ما يُعلمه الله إياه.

والحديث أيضاً فيه جوانب مهمة تتصل بالأمور التربوية:

منها: ما أشرنا إليه آنفاً من مكانة القرآن عند الصحابة من أمثال سيدنا عمر رضي الله عنه. ومنها: نصيح البطانة الصالحة للأمير وتذكيره بالخير، وهذا ما كان الحر بن قيس رضي الله عنه يفعلُهُ، فعندما غضب أمير المؤمنين غضباً شديداً لتطاول عينه وجفائه وقلة أدبه، ورأى الحر أن عمر رضي الله عنه هم ليوقع به، أي ليعاقبه المؤدبة التي يستحقها وهو عدلٌ من عمر لو فعله، ولكن الذي هو أسمى أن يعفو أمير المؤمنين عن المسيء، وهذا الذي سارع الحر إلى تذكير الخليفة به، فذكره بالآية ورغبه بالعفو لأنه هو الأليق بأن يصدر عنه. وفي موقفه أيضاً شفاعة لعمه وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها في قوله صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا تؤجروا» (١).

وهذا الذي فعله الحر مطلوب من أصحاب الرأي والعلم والجاه ولا سيما إذا كان الإنسان مستشاراً عند ملك أو أمير أو وزير أو مدير.

ومن الجوانب التربوية في الحديث الترغيب بالعفو عن المسيء فقد أخرج أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: لما نزلت هذه الآية ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ سأل النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام: ما هذا؟ فقال جبريل: يا محمد. إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. وأخرجه ابن مردويه عن جابر. (٢)

إنّ في هذا درساً لنا نحن الآباء والأمهات والأساتذة لنربي أولادنا على هذا الخلق الكريم. لقد أمر الله نبيه في هذه الآية بمكارم الأخلاق فأمر صلى الله عليه وسلم أمته بنحو

(١) رواه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).

(٢) انظر "فتح الباري" ١٣/ ٢٧٤.

ما أمره الله به، أمر بحسن المعاشرة مع الناس وبذل الجهد في الإحسان إليهم والإغضاء عليهم والعفو عن زلات الناس - ولا سيما الأقرباء والجيران والأصدقاء - من أخلاق الكرام . قال تعالى في صفات المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَتَقَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٧]. وقال: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

ومن تطيب نفسه بالعفو فيعفو عمن أساء إليه وهو قادر على الانتقام منه يكون سعيداً بهذا العفو، مطمئن النفس، سالماً من القلق والحقد والاضطراب.

وقد يكون العفو عن المسيء سبباً في صلاحه وسبباً لانعقاد المودة بين الرجلين. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧]، وقال تباركت أسماؤه: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

لقد ربّى رسول الله ﷺ أتباعه على أن يبدوا آراءهم منتقدين ما يرون وما يسمعون بأدب جم، وأن يستوضحوا المعنى من محدثهم إن رأوه غريباً عما عرفوا من الحق.

إنّ هذه التربية السديدة أثمرت ثمرة مباركة طيبة ألا وهي قوة شخصية المسلم، فليس المسلم إمعة يعطل عقله ويتبع الناس.



ذكرت كتب السيرة أنَّ رسول الله ﷺ عندما خرج إلى بد عسكر في أدنى ماء من بدر .. ونظر الحباب بن المنذر رضي الله عنه إلى الموقع فما رآه مناسباً من الناحية العسكرية، ولكنّه خشي أن يكون رسول الله ﷺ قد نزل فيه بأمر من الله .. فجاء إلى الرسول ﷺ وقال: أرايت هذا المنزل: أمتزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

- قال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».
- قال الحباب: يا رسول الله. فإنّ هذا ليس بمنزل، امض بالنّاس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه، ثم نغور ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.
- فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».
- ثم أمر رسول الله ﷺ بإنفاده، فلم يجئ نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب رضي الله عنه وامتلكوا مواقع الماء.^(١)

لقد رأى الحباب رضي الله عنه أنّ المكان الذي عسكر فيه المسلمون أول مرة غير مناسب فلم يسكت .. بل نصح لله ولرسوله بأدب بالغ وسأل الرسول ﷺ: أهذا منزل نزلته يا رسول الله بأمر من الله أوحى به إليك أم هو الرأي في اختيار موقع المعركة لإحراز النصر، فأجابه ﷺ بما ذكرنا آنفاً. فلما عرف الحباب أنّ هذا الاختيار لم يكن بوحى قال رأيه بصراحة وقال: ليس

(١) "سيرة ابن هشام" ٢/ ٢٧٢، و"المستدرک" ٣/ ١٢٦، و"البداية والنهاية" ٣/ ٢٦٧، وانظر تخريج الألباني للحديث في "فقه السيرة" للغزالي ص ٢٤٠ فقد ذكر أنّ في الحديث مقالاً، ولكنه رأى أنّ ذلك لا يضر؛ لأنّ العلماء يتساهلون في أخبار المغازي لاسيما إذا كانت معقولة المعنى ولا تعارض نصاً ثابتاً. والله أعلم.

هذا بمنزل .. بل يجب أن تتحول عنه إلى مكان آخر حدّده وذكر مزياءه، وقد أخذ الرسول ﷺ باقتراحه.

وفي غزوة بدر هذه أخبار تدل على أنّ الرسول ﷺ ربّي أتباعه على الجهر بآرائهم، منها أنه ﷺ استشار أصحابه عندما بلغه زحف قريش فقال: «أشيروا عليّ أيها النّاس». فقام عدد من الصحابة وأشار كل منهم بما يراى بصراحة. فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال وأحسن، ثم قال المقداد بن عمرو رضي الله عنه فقال: يا رسول الله. امض لما أراك الله فنحن معك. والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد^(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيها النّاس»، وإنما يريد الأنصار؟ وذلك أنهم عدد النّاس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله. إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك ممّا نمنع منه آبنا ونبنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل».

قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن

(١) موضع بناحية اليمن.



معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر على بركة الله. (١)

وهكذا يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يستشير أصحابه في الأمور المهمة وكان حريصاً على معرفة آرائهم في المواقف الحرجة، وكانوا يشيرون بما يرون أن فيه مصلحة للمسلمين.

وكذلك فقد استشارهم في شأن الأسرى. جاء في صحيح مسلم: (٢)

عن أبي زُمَيْل عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
[قال أبو زميل: قال: ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟».

فقال أبو بكر: يا نبي الله. هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا بن الخطاب؟».

قلت: لا. والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمَكِّنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت].

(١) "سيرة ابن هشام" ٢/٢٦٦-٢٦٧، و"البداية والنهاية" ٣/٢٦٤، و"فتح الباري" ٣٩٥٢/٧.

(٢) رواه مسلم (١٧٦٣).

وقد ذكر ابن كثير روايات عدة في شأن هذه الاستشارة.^(١)

لقد ربّى رسول الله ﷺ أتباعه من الرجال والنساء عندما تحل بهم مصيبة على التجلد والصبر، والاسترجاع أي: أن يقولوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويستأنفوا حياتهم ونشاطهم في رعاية الأسرة، وتبليغ الدعوة، ونهى عن النياحة، فقد تدل على عدم الرضا بقضاء الله وقدره، ونهى النساء والرجال عن الحداد، إلا الزوجة فعليها أن تحد أربعة أشهر وعشراً.

لما مات إبراهيم ابن الرسول ﷺ بكى، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟!

وإليكم الحديث كما جاء في صحيح البخاري:

عن أنس رضي الله عنه قال: دخلنا على رسول الله ﷺ فرأينا رسول الله ﷺ قد أخذ إبراهيم فقبله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا بن عوف إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى فقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».^(٢)

إنّ هناك عادات سيئة في كثير من مجتمعاتنا تحظر على الفتى والفتاة، والمرأة أن يقول أحدٌ منهم أمام الرجل الكبير كالأب والجد رأياً يخالف ما يقوله الكبار، فترى أفراد الأسرة يوافقون الكبار في الظاهر، وهم لكلامهم - في أنفسهم - منكرون، أي يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خوفاً من غضب الكبار.

(١) في تفسير الآية ٦٧ من سورة الأنفال ﴿مَا كَانَ لِإِنِّي أَنْ يَكُونَ لَكَ أَسْرَى حَتَّى يَتَخَنَّ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ / ١٦٠٨، وفي تفسير الآية ٩ من سورة الأنفال.

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣).



وكذلك فإنَّ وجود بعض الطغاة الجبابة الذين يبطشون بمن يبدس رأياً يخالف ما يقولون ويهوون، يخيف المفكرين والعقلاء، فتراهم إما صامتين لا ينطقون ولا يكتبون، وإمّا منافقين يقولون ما يسرُّ الطاغية ويضمن لهم مصالحهم الدنيوية، وبئسما يفعلون وفي ذلك بلاء عظيم على الأمة.

إنَّ علينا في نطاق الأسرة والمدرسة ومجالسنا الاجتماعية أن تتسع صدورنا للقول الذي يخالف ما نراه .. إنَّ علينا أن نسمعه ونناقش قائله بموضوعية وإنصافٍ وتحرٍُّ للحق. وعلينا أن نتحرر من تلك العادات التي أشرنا إليها: لماذا لا يسمح لأحد في البيت أن يتكلم إذا جاء رب الأسرة؟ لماذا نمنع إبداء الرأي والنقد والاعتراض على بعض الآراء والتصرفات؟

إن هذا وضع يخالف ما وقفنا عليه من الأحاديث الصحيحة. فكل بني آدم خطأ، وخير الخطأين التوابون، ونحن - أهل السنة والجماعة - ليس عندنا معصوم إلا رسول الله ﷺ.

حكى ابن قتيبة أن سيدنا عمر رضي الله عنه مرَّ بصبيان يلعبون، وفيهم عبد الله بن الزبير فهربوا إلّا عبد الله. فقال له عمر رضي الله عنه: مالك؟ لم لا تهرب مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين. لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك. (١)

إنَّ الحوار وسماع الرأي الآخر ومناقشة صاحبه يعصم المرء من الاستمرار على الخطأ في كثير من الأحيان، وقد قيل: الرجوع إلى الحق خير من التماس في الباطل. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحاورون ويختلفون ويستمع بعضهم لبعض، وكذلك كان الحال في العصور الفاضلة التي جاءت من بعد. ومناظرات الأئمة

(١) "عيون الأخبار" ١٩٧/٢، و"أدب الدنيا والدين" ص ٨.

والعلماء معروفة مشهورة، وقد وصل إلينا بعض هذه المناظرات. ومما يروى عن الشافعي ح أنه كان إذا ناظر عالماً سأل الله أن يظهر الحق على يد من يناظره.

إنَّ المسلم لا يجامل في الحق أبداً .. ولا يتنازل عما يرى من الحق المؤيد بالكتاب والسنة، لكنه يكون دائماً مستعداً للرجوع عن رأيه إذا ووجه بالدليل القاطع.

إنَّ المسلم لا يكون إمعة يلغي عقله، ويتبع قومه؛ فلقد ذم الله سبحانه الذين يتبعون آباءهم الضالين فقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرُكُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝ قُلْ أُولَٰئِكَ تُكْفَرُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٤].

وجرأة المسلم في قول الحق لا تتعارض مع الأدب الكريم في مخاطبة الآخرين، ولا مع احترام الآخر الذي يخالفه الرأي، ويجب ألا يحملته تمسكه بما يرى من الحق على إيذاء الآخرين وعلى التشدد عليهم، وأي انحراف عن هذا المستوى الرفيع انحراف عن الحق.

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» ثلاثاً. (١)
- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً ترخص فيه وتنزه عنه قوم. فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية». (٢)

(١) رواه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨)، وأحمد ١/ ٣٨٦.

(٢) رواه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).



○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يَسْرُ، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا»^(١).

والتوازن والجرأة في قول الحق، والتزام الأدب واحترام الآخرين .. هذا التوازن نلاحظه في كل التكليفات التي تتصف بالاعتدال والتوسط.

فالإسراف والبخل مذمومان، والتوسط هو المطلوب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

يجب أن نربي أولادنا بنين وبنات على التلطف في مناقشة الآخرين الذين يخالفونهم في الرأي .. وهذا هو الذي أدب الله به رسوله محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِآيَاتِكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ [سبأ: ٢٤-٢٥].

فانظر إلى هذا التلطف في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا أَوْ لِآيَاتِكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وكذلك في قوله: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾.

أوردنا في ما سبق نصوصاً عدة تدل على تربية النبي ﷺ أتباعه على قول الحق لا يخافون في الله لومة لائم، ونود أن نورد نصوصاً أخرى صحيحة تؤكد هذا المعنى، ليكون ذلك تذكيراً لنا بهذه التربية النموذجية التي ينبغي أن نأخذ بها

(٢) رواه البخاري (٣٩)، وأحمد ٣٥٠/٥.

في وقتنا هذا:

○ هاجرت أسماء بنت عميس رضي الله عنها مع زوجها الأول جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الحبشة ثم عادت راكبة السفينة مع زوجها مهاجرة إلى المدينة، ودخلت أسماء بنت عميس على حفصة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم زائرة، فدخل عمر رضي الله عنه على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم. قال عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم.

فغضبت أسماء وقالت: كلا والله. كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعط جاهلكم، وكنا في أرض البعداء البغضاء بالحبشة وذلك في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وأيم الله لا أطمع طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم قالت: يا نبي الله. إنَّ عمر قال كذا وكذا. قال صلى الله عليه وسلم: «فما قلت له؟». قالت: قلت كذا وكذا. قال صلى الله عليه وسلم: «ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان»^(١).

أيها السادة .. إنَّ عمر رضي الله عنه الذي تهابه الرجال الأشداء يقول كلاماً لأسماء فتراه مغائراً للحق فلا تسكت ولكنها تردّ عليه، وعندما ذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم وافقها على ما ذهبت إليه.

○ وهذه خنساء بنت خِذام رضي الله عنها يزوّجها أبوها وهي ثيب، فكرهت ذلك، ولم

(١) رواه مسلم (٤٢٣٠ - ٤٢٣١ - ٤٢٣٣)، ومسلم (٢٥٠٢).



تسكت عن حقها الذي أعطاها الشرع إياه، فأنت رسول الله ﷺ فردّ نكاحه. (١)

○ وهذه فتاة أخرى جريئة صاغها الإسلام لم تقبل أن يملي عليها أبوها الزواج ممن لا تريد، وأرادت أن يعلم النساء والرجال أن أمر الزواج يعود إلى الفتاة. وليس للأب أن يجبرها:

عن عائشة رضي الله عنها أن فتاة دخلت عليها، فقالت: إنَّ أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة. قالت عائشة رضي الله عنها: اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ. فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها. فقالت: يا رسول الله. قد أجزتُ ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم للنساء من الأمر شيء؟ (٢)

ومن نتائج هذه التربية النبوية التي تصوغ شخصية المسلم والمسلمة صياغة متميزة أن الناس كانوا - على مختلف مستوياتهم - لا يسكتون عن قول ما يرون أنه حق، حتى ولو هاب ذلك الكبار من القوم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي: الظهر أو العصر، فصلّى بنا ركعتين ثم سلّم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد، فوضع يديه عليها إحداها على الأخرى، يُعرف في وجهه الغضب، ثم خرج سرعاناً الناس وهم يقولون: قصرت الصلاة. وفي الناس أبو بكر وعمر، فهاباه أن يكلماه، فقام رجل كان رسول الله ﷺ يسمّيه ذا اليدين، فقال: يا رسول الله. أنسيّت أم قصّرت الصلاة؟

قال ﷺ: «لم أنس ولم تُقصّر الصلاة».

قال: بل نسيت يا رسول الله.

(١) رواه البخاري (٥١٣٨)، والنسائي (٣٢٦٨).

(٢) رواه النسائي (٣٢٦٩)، وابن ماجه عن بريدة (١٨٧٤)، وانظر مسند أحمد ٦/ ١٣٦.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «أصدق ذو اليدين؟» فأومؤوا: أي نعم.

فرجع رسول الله ﷺ إلى مقامه فصلّى الركعتين الباقيتين ثم سلّم، ثم كبرّ وسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رجع وكبرّ، ثم كبرّ وسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع وكبرّ.^(١)

هذا الحديث يدرس من نواحٍ فقهية واجتماعية .. والذي نريد أن نقف عنده الناحية التربوية: موقف رهيب .. صلّى رسول الله ﷺ بالمسلمين الفريضة الرباعية ركعتين، ثم وقف بعد الصلاة يبدو على وجهه الغضب، وكان ﷺ صاحب هيبة، فما جرؤ أن يكلمه أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما، وإذا برجل من عامة الصحابة يقوم فيسال النبي ﷺ: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فيجيبه ﷺ: «كل ذلك لم يكن». ولكن الرجل الواثق بنفسه ومعلومته يقول: بل بعض ذلك قد كان، فقد نسيت يا رسول الله.

ويثبتُ الرسول ﷺ من صحة كلامه، وسأل الصحابة عن ذلك فأيدوا قول ذي اليدين، فعاد ﷺ وأكمل الصلاة.

لقد تكلم ذو اليدين في أمر هاب أبو بكر وعمر ض أن يتكلما فيه؛ لأنه كان في مجتمع رُبّي على أن يقول المرء ما يراه حقاً وينصح لله ورسوله وللمؤمنين.

لقد كان ﷺ رسولاً نبياً كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، وكان في المدينة أيضاً رئيس دولة، ومع ذلك كان شأنه مع الناس كما ذكرنا، بينما يحدثنا التاريخ

(١) رواه البخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣)، وابن ماجه (١٢١٤)، وأبو داود (١٠٠٨)، والترمذي (٣٩٩)، والنسائي (١٢٢٤ - ١٢٣٣ - ١٢٣٥).



البعيد - وكذلك التاريخ القريب - أن هناك زعماء كان لا يستطيع أحد أن يتكلم أمامهم إلا أن يكون مسؤولاً، ولا يستطيع أحد أن يواجههم بشيء صدر عنهم.

ومن ذلك ما ذكره العلامة السهيلي في "الروض الأنف" أن النبي ﷺ نهى عن الطيرة ولكنه كان يكره الاسم القبيح، وبينهما فرق واضح. قال ﷺ:

[فقد كان ﷺ يكتب إلى أمرائه: «إذا أبردتم إليّ بريدًا فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم». ذكره البزار من طريق بريدة.

وقال ﷺ في لِقْحَةٍ: «من يجلب هذه؟»
فقام رجلٌ فقال: أنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما اسمك؟»
قال: مُرَّة.

فقال: «أقعد» .. حتى قال آخرهم: اسمي يعيش. قال: «احلب».

فقام عمر رضي الله عنه فقال: إني لا أدري أقول أم أسكت؟
فقال رسول الله ﷺ: «قل».

فقال عمر: قد كنت نهيتنا عن التطير؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما تطيّرتُ، ولكني أثرت الاسم الحسن»^(١).
فاستبان الأمر لعمر رضي الله عنه وغيره.

* * *

(١) "الروض الأنف" ٣/ ٤٤-٤٥ طبعة طه عبد الرؤوف.

تحدثنا فيما سبق عن تربية الرسول ﷺ أتباعه على:

- أن يقولوا الحق لا يخشون في الله لومة لائم.
- وأن ينصحوا إخوانهم المسلمين بالأسلوب الحسن، بل لقد جعل رسول الله ﷺ الدين النصيحة كما جاء في حديث تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الدين النصيحة». قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

وكانت النصيحة لكل مسلم مما يبايع عليه رسول الله المسلمين، لما جاء عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.^(٢)

وأوردنا نماذج من رجال الصحابة ونسائهم وصبيانهم كانوا يتحللون بهذه الفضيلة، وقد كانت مواقف هؤلاء النماذج تدل على شخصية متميزة ووعي كبير.

ومن أوضح هذه النماذج ما أخرجه البخاري^(٣) أَنَّ ابْنَ أَبِي مَلِيكَةَ حَدَّثَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَوَسِبَ عَذَبَ».

(١) رواه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والترمذي عن أبي هريرة (١٩٢٧)، والنسائي (٤١٩٧).

(٢) رواه البخاري (٥٧)، ومسلم (٥٦)، وأبو داود (١٩٢٥)، والنسائي (٤١٧٥).

(٣) رواه البخاري (١٠٣).



قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]. قالت: فقال ﷺ: «إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك».

وقد أورده البخاري في مواضع منها أنه أورده في باب (من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه).

وللسيدة الفاضلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من هذا القليل مواقف رائعة كثيرة، في استيضاح ما تسمع ومناقشته، وفي الجهر بما ترى أنه حق .. وهذه المواقف مبثوثة في كتب السنة، وقد جمع طائفة منها الإمام محمد بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ في كتابه النافع الممتع "الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة" وسنورد بعض هذه المواقف.

○ منها الحديث الذي أورده البخاري ومسلم^(١) وفيه: أنه لما أصيب سيدنا عمر رضي الله عنه جعل صهيب رضي الله عنه يبكي ويقول: وا أخاه .. وا صاحباه. فقال عمر: يا صهيب. أتبكي عليّ وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بَكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما مات عمر ذكرت ذلك لعائشة فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أَنَّ اللَّهَ يُعَذَّبُ الْمُؤْمِنَ بِبَكَاءِ أَحَدٍ، ولكن قال: «إِنَّ اللَّهَ يَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبَكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ». وقالت: حسبكم القرآن ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٥].

(١) رواه البخاري (١٢٨٧-١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٧-٩٢٨-٩٢٩).

وفي رواية للبخاري^(١): قالت عائشة: إنما مرّ رسول الله ﷺ على يهودية يبكي عليها أهلها فقال: «إنهم يبكون عليها، وإنما لتعذب في قبرها».

وفي رواية لمسلم^(٢): قال ابن أبي مليكة: حدثني القاسم بن محمد قال: لما بلغ عائشة قول عمر وابن عمر قالت: إنكم لتحذوني عن غير كاذبين ولا مكذّبين، ولكن السمع يخطئ.

وهكذا صححت الرواية بذكر المناسبة، وقررت أن رسول الله ما حدث أن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد عليه، والتمست العذر لسيدنا عمر رضي الله عنه وابنه بأن السمع قد يخطئ، وناقشت الرواية بعرضها على كتاب الله فاستشهدت بالآية الكريمة: ﴿أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وجهرت بما ترى أنه حق .. لقد ربيت على ذلك في بيت الصديق ثم في بيت النبوة رضي الله عنها وأرضاها.

○ ومن هذه المواقف ما رواه البخاري^(٣) بسنده إلى مسروق أنه قال: قلت

لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه. هل رأى محمد ربه؟

فقلت: لقد قفّ شعري مما قلت. أين أنت من ثلاث، من حدثكهن فقد كذب. من حدثك أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤].

(١) رواه البخاري (١٢٨٩).

(٢) رواه مسلم (٩٢٩).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٥).



ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بِلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧] ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين.

○ ورواه مسلم^(١) بلفظ: عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة رضي الله عنها فقالت: يا أبا عائشة (وهي كنية مسروق)، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية.

قلت: ما هنّ؟

قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية.

قال: وكنت متكئاً فجلست فقلت: يا أم المؤمنين. أنظريني ولا تعجليني. ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣].

فقالت: أنا أول هذه الأمة من سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيتُه منهبطاً من السماء، ساداً عِظْماً خلقه ما بين السماء والأرض.

قالت: أולם تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأَنْعَام: ١٠٣]، أולם تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله

(١) رواه مسلم (١٧٧).

الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٦٥].

إنَّ على الدعاة والمربين أن يعنوا بهذا اللون من التربية، فنحن اليوم بحاجة إلى المسلم المتفوق المتألق المخترع، ولا يكون المرء كذلك إلا إذا رُبِّي على التفكير المستقل وعلى الجرأة في قول الحق ولو خالف الآخرين.

إننا نواجه حضارة ضخمة متقدمة في مجال المادة والاختراع، وهي تواجهنا بغزو فكري خطير، وبغزو اجتماعي مدمرٍ لأخلاقنا الإسلامية. إنَّ الاهتمام بهذا اللون من التربية يوجد مناعة عند أولادنا ضدَّ المخاطر الفكرية والأخلاقية التي يبثها هذا الغزو.

روى أبو داود الطيالسي^(١) عن مكحول قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إنَّ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «الشَّؤْمُ ثلاثة: الدار والمرأة والفرس». ^(٢)
فقلت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة، إنه دخل ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل الله اليهود يقولون: الشَّؤْمُ في ثلاثة: في الدار والمرأة والفرس» فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله.

(١) انظر "ترتيب مسند الطيالسي" (١٧٧٦).

(٢) قلت: والحديث كما في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما (٥٠٩٤)، ومسلم (٢٢٢٥) (١١٨) بلفظ: «إن كان الشَّؤْمُ في شيء ففي المرأة والمسكن والدار»، وأنظر "جامع الترمذي" (٢٨٢٤) وغيره.



والصحابة ومن بعدهم من العلماء بشأن مواقف عائشة رضي الله عنها مختلفون فبعضهم يوافقها، وبعضهم يخالفها: ففي حديث الشؤم قال الزركشي: ^(١) قال بعض الإئمة: ورواية عائشة في هذا أشبه بالصواب إن شاء الله لموافقتها فيه عليه الصلاة والسلام عن الطيرة نهياً عاماً، وكراهتها وترغيبه في تركها بقوله: «يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». ^(٢)

وأما ابن الجوزي فأنكر على عائشة هذا الرد فقال: الخبر رواه جماعات ثقات فلا يعتمد على ردها.

وقال الخطابي: وقد قيل إنَّ شؤم المرأة ألا تلد، وشؤم الفرس ألا يحمل عليها في سبيل الله، وشؤم الدار سوء الجوار. ^(٣)

وهكذا يتجلى لنا أنَّ هذه التربية النبوية للصحابة جعلت منهم شخصيات متميزة جريئة في قول الحق، وفي بيان خطأ الآخرين، وفي النصح للمسلمين كما رأينا في مواقف السيدة عائشة رضي الله عنها التي أوردناها، فقد كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل ما يدور في خلدتها، وتحاوره فيما ترى أنه متعارض مع نص آخر، وقد ساعدها هذا على بلوغ ما بلغت من العلم، إضافة إلى أنها ربيت في حجر الصديق أفضل الخلق بعد الأنبياء، وأعلم الناس بأنساب العرب وأخبارهم، وإلى أنها أوتيت الذكاء النادر والفكر الجوال رضي الله عنها وأرضاها.

ينبغي أن يتاح للأطفال والشباب والنساء في الأسرة، وللرجال وللنساء في المجتمع أن يقولوا رأيهم ولو كان يخالف رأي الآخرين وفق الآداب التي سنذكرها.

(١) "الإجابة لما استدركنه عائشة على الصحابة" ص ١٢٧.

(٢) رواه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

(٣) "الإجابة" ص ١٢٧، ط ٤.

وهذا الأمر كان واقعاً يحياه الناس أيام النبي ﷺ والخلفاء الراشدين كما دلت على ذلك الأحاديث التي أوردناها من كتب السنة .. إن توفر هذا الأمر جعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً متحاباً متماسكاً بعيداً عن المكر والكيد والحقْد والبغضاء.

إنَّ المجتمع الذي تُكَمَّم فيه الأفواه يُحرم من كثير من الآراء السديدة، ذلك أنَّ الرجل المتحكم في نطاق الأسرة والمجتمع الذي لا يطيق أن يسمع رأياً مخالفاً له .. لو كان هذا الرجل عبقرياً ذكياً يبقى بشراً من البشر، ويبقى رأيه رأياً بشرياً قابلاً للخطأ والصواب، فإتاحة الفرصة لصاحب الرأي أن يقول ما يرى والسماح له بذلك صيانة للأسرة والمجتمع من أن يقع في الخطأ ويستمر فيه بسبب التفرد في الرأي.

ألا ترى معي - يا أخي - أنَّ سكوت المرء الجالس بجانب سائق سيارة تسير على شفا وادٍ عميق .. سكوته على خطأ من السائق يؤدي إلى هلاكه والسائق أيضاً. وحمل الناس على أن لا يقولوا إلا ما يقول القوي الذي يملك الإلزام في الأسرة والمجتمع يورث فساد الأمر والعداوة والبغضاء.

وفي دراسة التاريخ والتأمل في أحداثه عبرة لمن كان له عقل رشيد متفتح: كم من الكوارث السود حلت في مجتمعات كانت تسير وراء مستبد فيها!! كم جنى نابليون على قومه!! وكم أزهق من أرواح شباب من جيشه ومن الجيوش التي قابلها!!

وكم جنى هتلر وستالين وأمثالهما من جنائيات!! إنَّ خبر هؤلاء ليس عنكم ببعيد. أولم يأتكم نبأ الظلمة الذين خاضوا حروباً أتت على الأخضر واليابس في بلادهم ثم كانت عاقبة أمرهم الخسران المبين والذل المهين.

إنَّ الذي لا يسمح لأحد أن يبدي رأياً مخالفاً لرأيه سواء كان أباً أو مديراً لمؤسسة يجني على نفسه وأسرته ومؤسسته جناية كبرى لما سبق أن ذكرنا. وإنكم لتعلمون



خطبة أبي بكر رضي الله عنه عندما بويع بالخلافة، فقد قال: (يا أيها الناس. إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح^(١) عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحكم الله).^(٢)

لقد ربّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباعه على الاستقلال في الفكر، والجرأة في قول ما يرون أنه حق، وأتاح لكل منهم أن يعرب عما في نفسه ما دام هذا الذي يريد أن يقوله في دائرة الشرع. وكان صلوات الله وسلامه عليه يثير الحوار،^(٣) وله قي ذلك طرق عدة، منها أن يقول كلمة تثير أسئلتهم من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»،^(٤) ومن نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»،^(٥) وأمثال ذلك كثير.

وقد رأينا أن الصحابة ما كانوا يسكتون .. بل كانوا يسألون ويستفسرون، فهم عندما سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قال رجل: أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره؟ فبيّن لهم صلى الله عليه وسلم أن نصرته أن يمنعوه من الظلم ويأخذوا على يديه، مع أن العرب في الجاهلية كانوا كما يقول الشاعر:

(١) حتى أردّه عليه.

(٢) "البداية والنهاية" ٩/ ٤١٥ طبعة هجر، وقال ابن كثير: [وهذا إسناد صحيح].

(٣) انظر كتابنا "الحديث النبوي" ص ٩٩-١٠٧ ط الثامنة.

(٤) رواه البخاري (٢٤٤٣).

(٥) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكذلك فإنهم عندما سمعوا قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» لم يستطيعوا أن يعوه.. فسألوا فيبين لهم ﷺ أنهم غفلوا عن كلمة (التقيا بسيفيهما) فهذا المقتول كان حريصاً على قتل صاحبه، ولكن عنصر المفاجأة لم يكن له.

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم. وكان ﷺ يشجعهم على الحوار، فكان يطرح عليهم أحياناً سؤالاً ويتلقى أجوبتهم ويناقشها معهم. فمن ذلك ما رواه البخاري (١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حذثوني ما هي؟» قال: فوقع الناس في شجر البوادي، فوقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت. ثم قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «النخلة».

ولا بد أن نقرر أن الدافع الذي يدفع المسلم إلى الجرأة في قول الحق عندما يرى أو يسمع شيئاً ينكره إنما هو النصيحة التي أمر بها الشرع في أحاديث عدة: منها ما جاء في حديث تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله. قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (٢).

ومنها حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم (٣).

(١) رواه البخاري (٦٤ - ٦٥).

(٢) رواه مسلم (٥٥).

(٣) رواه البخاري (٥٧ - ٥٢٤)، ومسلم (٥٦).



فقد قرن ﷺ النصيحة في البيعة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهما ركنان من أركان الإسلام الخمسة.

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

«حق المؤمن على المؤمن ست». قيل: وما هن؟

قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»^(١).
فجعل من حق المؤمن على المؤمن أن ينصح له.

إنَّ هذه الجرأة في قول الحق التي رُبِّي عليها المسلمون رجالاً ونساء محمودة مشكورة إذا التزمت بالآداب الشرعية.

- وأول هذه الآداب الإخلاص في قول ما يقول المسلم لا يريد من قوله إلا رضوان الله ﻫﻮ والدار الآخرة. وهذا الإخلاص إن وجد كان أدعى لقبول النصح من الآخرين.

- وأن لا يتلفظ المسلم في أثناء تقرير رأيه بلفظ ناب.

- وأن لا ينتقص من مخاطبه ولا يسبّه ولا يحقره فإنَّ رسول الله ﷺ يقول:

«بحسب أمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٢).

بل عليه أن يحترم من مخاطبه، ويترفّق في حديثه معه، فذلك أدعى أن يستجيب لرأيه. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) رواه مسلم (٢١٦٢)(٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤)، وابن ماجه (٤٢١٣)، وأحمد ٢/ ٣٦٠.

كان أحد العلماء الأفاضل يقرر أمراً علمياً دقيقاً، وكان في المجلس موظف في منصب لا يستحقه، ونصيب هذا الموظف من العلم والذكاء قليل جداً، فلم يفهم الكلام العميق الدقيق الذي كان العالم يقرره مستهزئاً: يا شيخ هذه والله سفسطة، وانتهر هذا العالم بقلة أدب .. فعل ذلك ليكبر في أعين الحاضرين .. لأنه يحسب أنه بهذا جريء يستطيع أن يوجه هذا الكلام لإنسان كبير. ولم يدر المسكين أنه كشف جهله أمام الآخرين وجعلهم يشهدون بوقاحتته وسوء أدبه .. وأنه أساء إلى نفسه أعظم الإساءة، وكان حرياً به أن يستوضح الأمر. أما العالم فقد قام من المجلس مغادراً المكان ولم يردّ عليهن محتسباً ما أصابه في سبيل الله.

- وعلى الإنسان ألا يتكلم منكرًا ومصححًا إلا إذا كان على علم، فليس للجاهل أن ينكر ولا أن يصحح .. بل يجب عليه أن يسأل بأدب ويتعلم.
- ويجب أن يعرف يقيناً أن كلامه هذا لا يؤدي إلى فتنة وشجار وقتال؛ فالمبدأ الإسلامي يقرر أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.
- ويجب أن لا يكون للنفس في قوله حظ، بل يقول ما يقول وهو لا يريد إلا النصح .. ولا يريد الظهور بمظهر العالم الفاهم.

* * *



المراقبة الذاتية

من الأمور التي يجب على المربين أن يهتموا بها في عملهم التربوي: التنبيه على ضرورة مراقبة الإنسان نفسه في الكلام، وعلى أن يعرف متى يتكلم ومتى ينصت. وما أجمل كلام الإمام النووي في هذا الموضوع، فقد قال:

[واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلامُ المباح إلى حرامٍ أو مكروهٍ، وذلك كثير في العادة، واسلامة لا يعدلها شيء] وقال: [ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا الكلام خيراً وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم].^(١)

لقد ذكر رسول الله ص الغرض الذي ينبغي أن يحققه المرء المسلم من كلامه .. إنَّ على كل مسلم أن يتكلم إذا كان كلامه داعياً إلى الخير، وعليه أن يسكت إن لم يكن كلامه داعياً إلى ذلك، فالمقياس ابتغاء الخير، فالمسلم إذا همَّ بالكلام ينبغي له أن يتوقف وينظر في هذا الذي يريد أن يقول ويعرضه على ذاك المقياس، وهذا يقضيه ألا يسارع بالكلام، فالتأني من الله، والعجلة من الشيطان. يعبر عن هذا الأدب الكريم قوله ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه ^(٢) وأبي شريح الخزاعي ^(٣): «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»، وفي رواية «أو ليصمت» وهما بمعنى.

إنَّ هذا الحديث يغرينا بالصمت إن لم يكن في كلامنا مصلحة دينية أو دنيوية، وهذا التوجيه مهم جداً .. إن في الصمت السلامة التامة.

(١) "رياض الصالحين" ص ٤٨٣: كتاب الأمور المنهي عنها.

(٢) رواه البخاري (٦١٣٦)، ومسلم (٤٧).

(٣) رواه البخاري (٦١٣٥)، ومسلم (٤٨).

إنَّ آفات اللسان كثيرة متنوعة ولا نجاة من خطرهما إلا بالصمت. والصمت
نعمة كبيرة للعلماء والدعاة إلى الله في بعض الظروف، وكذلك المعلمون والآباء
والأمهات فقد لا يستطيع المرء أن يقول الحق خوفاً على نفسه حيناً وخوفاً من
وقوع فتنة دامية حيناً آخر، فعليه حينئذٍ أن يصمت. وليحذر الحذر كله أن يقول
شيئاً من الباطل، فيبيع دينه ويخسر آخرته وذلك هو الخسران المبين. إنَّ
السكوت يوصل إلى الجنة وقد ضمن ذلك رسول الله ﷺ لمن يفعله، فعن سهل بن
سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه
أضمن له الجنة».(١)

أيها السادة .. إنَّ نعمة الكلام من أجل نعم الله تعالى على العبد، بها يتفاهم
الإنسان مع الناس، فينقل إليهم الأفكار التي تدور في رأسه، وبها يستطيع أن يشكو
ما به من وجع أو جوع أو عطش، وبها يذكر ربه بما ورد من الأذكار الماثورة
والدعوات النافعة، وبها يحقق لنفسه ولمن حوله المؤانسة والطمأنينة.

ولينظر الإنسان الذي أكرمه الله بهذه النعمة: نعمة النطق إلى الأبكم الذي حُرِمَ
هذه النعمة، وليوازن بين حاله وحاله.

إنَّ الأبكم الذي ابتلي بهذه الآفة يعاني من الآلام ما الله به عليم، ويواجه من
المشكلات الكثير الكثير، ويحرم من الفوائد والمتع العديدة، وكذلك الذي كان
يتكلم ثم أصابته جائحة فأصبح أخرس لا يقوى على الكلام، إنه يعاني مثل ذاك
وأكثر.

زرت صديقاً من العلماء أصيب بمرض أفقده القدرة على الكلام، فلما شرعنا
نسأل عليه ونسأله عن صمته صار يبكي بكاء مراراً.

(١) رواه البخاري (٦٤٧٤).



إنَّ نعمة النطق نعمة كبرى لا يقدرها كثير من الناس قدرها، ولا يحسون بقيمتها العظمى .. ألا فلنحمد الله على فضله، ولنستعمل هذه النعمة فيما يرضي الله فذاك شكرها. وليس من العقل أن يستعمل العبد هذه النعمة فيما يعود عليه بالضرر في الدنيا والآخرة.

أما ضرر الثثرة في الدنيا فدرجات تبدأ من كراهية الناس لمن يقع في أعراضهم ويؤذيهم، وقد يلحق به ذلك خسارة مادية، وقد يكون الضرر جلدًا وتعزيرًا، أو نقيًا أو سجنًا، وقد يصل الأمر إلى أن يخسر حياته بسبب لسانه. وأما الضرر في الآخرة فهو أشد وأبقى ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَرَقِهِمْ ظُلْلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ قَرَقِهِمْ ظُلْلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يُعْبَادُ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

وتعليق الصمت بالإيمان وذلك في قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» يدل على أهمية الصمت، ومن هنا كان هذا الحديث مذكوراً في بعض كتب الحديث في باب الإيمان والعقيدة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] إذن فكل قول تقوله ألتستنا مسجل علينا، وهو من أعمالنا التي نجدها يوم القيامة حاضرة ونحاسب عليها: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويقول: ﴿يَوْمَ يَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

لو أن أحداً راقب كلام كثير من الناس - وهذا أمر صعب جداً - لوجد أن معظمه كلام فارغ لا فائدة منه، وأن بعضه حرام يكسب قائله إثماً ويجرّ عليه بلاءً دنيوياً، ومن أجل ذلك أمر رسول الله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصمت إلا أن يكون في كلامه مصلحة لقائه وللمسلمين. ودعا في حديث آخر إلى أن يكف المرء لسانه عليه، وذلك في الحديث الصحيح الجميل الآتي:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

- قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار.
- قال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تعبد ربك ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

- ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟»

- قلت: بلى يا رسول الله.

- قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

- ثم قال: «ألا أخبرك بملاك^(١) ذلك كله؟».

- قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا».

- فقلت: يا نبي الله. وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

- فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ. وهل يكب الناس في النار على وجوهه - أو على

(١) جاء بـ "مختار الصحاح": ملاك الأمر: بالفتح والكسر ما يقوم به.



مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟» (١).

إنَّ الذي يحقق أبوابَ الخيرِ كُلِّها من صلاةٍ وصدقةٍ وتهجدٍ وجهادٍ وغير ذلك إنما هو إمساكُ اللسان. وأخذُ الرسول ﷺ بلسانه ليؤكد ويلفت النظر وهذا من أساليبه في التوضيح والبيان.

والناس كثير منهم غافلون عن هذا، فعلى المسلم أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً ظهرت فيه المصلحة. نسأل الله أن يعيننا على ذلك.

وقال ابن مسعود: ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: أنصف أذنيك من فيك، فإنها جعلت لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم.

وقد سأل عقبة بن عامر رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: ما النجاة؟

فقال ﷺ: «أمسك» (٢) عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» (٣).

لقد أوصاه ﷺ ليكون ناجياً أن يمسك عليه لسانه، ذلك لأنَّ الإنسان إذا ملك لسانه ملك وسيلة النجاة في الدنيا والآخرة، فلا يمسك الناس عليه أقوالاً قد تذهب بنفسه. ويكون ناجياً في الآخرة، وهذه هي النجاة الكبرى ﴿فَمَنْ رُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. والله در القائل:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغك إنه ثعبان

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وهو حديث صحيح.

(٢) أو: أملك. وهما بمعنى واحد.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٠٦) وقال: حديث حسن.

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان
وقال آخر:

خَلَّ جنبيك لرام	وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير	لك من داء الكلام
ربما استفتحت بالمر	ح مغاليق الحمام
رب لفظ ساق آج	ال نيام وقيام
إنما السالم من	ألجم فاه بلجام ^(١)

وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ في الدلالة على النجاة التي يطلبها كل مسلم عاقل .. لقد أمر ﷺ عقبه رضي الله عنه أن يمسك لسانه، ويراقب نفسهن ويأمرها بالخير وينهاها عن الشر، وأن يحاسب نفسه، فإن وجدها مقصرة فعليه أن يسارع إلى التوبة، وأن يبكي على خطيئته، وأن يلزم بيته بعيداً عن العابثين اللاهين.

وأود أن أقرر أن الامتناع عن الكلام أمر ليس سهلاً؛ لأنَّ الإنسان يجب أن يتكلم ليظهر علمه وبراعته وقدرته على مؤانسة الناس، ولكنه يستطيع أن يصل إلى ذلك بالرياضة والتدرج.

إنَّ من جوامع كلمه ﷺ الحديث الذي نتأمل التوجيهات التربوية السديدة التي فيه وهو قوله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

وقد رأينا في واقعنا الذي وقفنا عليه أنَّ الذي يملك لسانه ينجو من الورطات التي يقع فيها الآخرون، وإن تعجب فعجب أنَّ بعض الناس يتكلم بالكلام الخطير الذي لا يحقق له مصلحة دنيوية ولا أخروية زاعماً أنه يمزح، فيؤذي نفسه أشد الإيذاء، وقد يكلفه هذا الكلام حريته حيناً وحياته حيناً آخر. لقد بلغني أن شخصاً

(١) "وقفات مع الأبرار" فقرة ١٧١.



أحق كتب رسالة إلى صديق له أرسلها بالبريد فيها كلامٌ كذبٌ خطيرٌ يتخيله يريد أن يمازح صديقه ويسخر منه، ف وقعت في يد من يملك العقوبة فظن به السوء، فأوقع به الضر، فندم ولات ساعة مندم.

[إنَّ اللسان من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير جرمه، عظيم أثره، إذ لا يستين الكفر والإيمان إلّا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان .. إنَّ كل ما يتناوله العلم يعرب عنه اللسان إما بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد في سائر الأعضاء، فإنَّ العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والآذان لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء. واللسان له في الخير مجال رحب، وله في الشر مجال رحب أيضاً، فمن أطلق لسانه العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى النار والعياذ بالله تعالى، ولا ينجو من شر اللسان إلّا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلّا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة].

إنَّ خطر اللسان عظيم، فعلى المسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يتكلم وينظر هل كلامه يحقق مصلحة، فإن كان لا يحقق ذلك فعليه بالصمت، فمن صمت نجا، ومن أطلق لسانه بالخوض بالباطل والمراء ومخاصمة الآخرين، والكذب والغيبة والثناء على نفسه وأولاده^(١) وغير ذلك هلك مع الهالكين، وقد قيل: الصمت حكمة وقليل فاعله.

وخطر الكلام على صاحبه يصوره الأثر الوارد عن أبي سعيد رفعه:

(إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكّر اللسان، أي تقول له: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا).^(٢)

(١) حضرت مجلساً كان فيه رجل يذكر أولاده أنهم عباقرة موهبون، ويشتم هذا الزمان الذي لا

يعبأ بالمواهب ويضيعها ويهملها ويظلم النوابع، فكان حديثه مستنكراً من الحاضرين.

(٢) رواه الترمذي (٢٤٠٧) موقوفاً على عمار بن زيد.

هناك ناس لا يستطيعون أن يبقوا ساكتين، ولا بد أن يتكلموا، فتراهم في ثرثرة مستمرة، وقد يكون فيها استهزاء بالآخرين ووقوع في أعراض الصالحين، فتجر عليه هذه العادة الإثم والعذاب الأليم.

هذا وإن الذي يتكلم كثيراً ولا يترك لمجالسيه مجالاً ليتكلموا يكون ثقیل الظلّ مكروهاً يتضايق الناس منه.

تصوروا معي حالة رجل لا يكف عن الكلام .. إذا بحث الناس في الطب كان طبيباً، وإذا بحثوا في السياسة كان سياسياً، وإذا تعرضوا إلى الهندسة كان مهندساً، وإذا تكلموا في الشعر كان ناقداً، يدخل في كل مجال وهو لا يحسن من ذلك شيئاً فيقع في أغلاط شنيعة مخزية. ولا يُذكر رجل كبير من الناس إلا زعم أنه يعرفه، ويخترع حوادث يقصها على الحاضرين فيقع في الكذب، فينكشف أمره ويؤء بالمهانة والاحتقار.

عن سفيان بن عيينة الثقفي قال: يا رسول الله. حدثني بأمر أعتصم به. فقال: «قل ربّي الله ثم استقم». قال: قلت: يا رسول الله. ما أخوف ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «هذا».^(١)

إنّ الذي يكثّر من الكلام يكثّر سقطه، ومن كثر سقطه كثر ذنوبه. ورأس مال المسلم وقته. فلماذا نرضى لأنفسنا هذا الأمر؟

إنّ كثرة الكلام في غير مصلحة وفي غير ذكر الله تعالى تقسي القلب، حتى يغدو القلب قاسياً ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. ومن قسا قلبه لا يستمع إلى موعظة ولا يغير شيئاً من السوء الذي هو عليه.

(١) رواه الترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (٣٩٧٢).



وقد كان الصحابة رضي الله عنهم مدركين لهذا الأمر الذي وجههم إليه رسول الله ﷺ فلا يقولون إلا خيراً .. وتراهم فيما عدا ذلك ساكتين متفكرين متأملين. فكان أحدهم يمد لسانه ويقول: إن هذا أوردني الموارد، فيلجأ إلى حصاة فيضعها في فمه يمنع بها نفسه عن الكلام. (١)

وأريد أن أنبه على حقيقة تخفى على بعض الناس، وهي أن الكلام من عمل الإنسان يحاسب عليه، فمن وعى هذه الحقيقة وراقب نفسه في الكلام ومنعها منه إلا فيما يعنيه، وعدّ كلامه من عمله قلّ كلامه، ونجا مما يهلك فيه الهالكون. ويقول رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً. قال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم. وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحدٌ يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله.

قال الله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ جَبَوْنَهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيَّنَّ النَّاسُ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]. أي لا خير في كلام الناس إلا من أمر بصدقة أو أمر بمعروف أو إصلاح بين الناس. وقد أورد ابن كثير في تفسير هذه الآية الحديث الآتي:

[... قال محمد بن يزيد بن خنيس قال: دخلنا على سفيان الثوري نعوذه، فدخل عليه سفيان بن حسان المخزومي. فقال له سفيان الثوري:

(١) وهو سيدنا أبو بكر رضي الله عنه كما جاء في "إحياء علوم الدين" ١٠٦/٣.

الحديث الذي كنت حدثني به عن أم صالح اردده علي.
 فقال: حدثني أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله
 ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه، لا له، ما خلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر».
 فقال محمد بن يزيد بن خنيس: ما أشدّ هذا الحديث!!
 قال سفيان: أو ما سمعت الله يقول في كتابه ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ
 أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه].

* * *



التحابّ والتوادّ

إنّ المجتمع الذي أقامه سيدنا رسول الله ﷺ على هدي الكتاب الكريم مجتمع قائم على المحبة والتوادّ، والأحاديث النبوية الصحيحة التي وصلت إلينا تبين سبل التربية التي سلكها رسول الله ﷺ وهي كثيرة.

منها الترغيب والترهيب، ومنها الثناء على من وفق إلى ذلك، ومنها الحض على التزام التحابّ والتوادّ.

ولقد ربط المربي الأعظم ﷺ موضوع التحابّ في الله بالإيمان في أحاديث كثيرة:

○ فمن ذلك ما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أولاً أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم».^(١)

ففي هذا الحديث يقرّر رسول الله ﷺ أنه لا يمكن أن يتحقق الإيمان في الناس إلا إذا تحابّوا، وهذا الإيمان هو الذي سيوصلهم إلى الجنة، ويدلّهم رسول الله ﷺ على خصلة إذاى تحلّوا بها وفعلوها تحابّوا ألا وهي إفشاء السلام. والشاهد في هذا الحديث الصحيح قوله ﷺ: «ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا»، وفيه أيضاً بيان لدخول الجنة، وفيه أيضاً بيان قيمة إفشاء السلام.

○ وهناك حديث يصرّح بنفي الإيمان الكامل عمّن لا يحب لإخوانه المسلمين ما يجب لنفسه. وذلك في حديث أنس رضي الله عنه المتفق عليه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه».^(٢)

(١) رواه مسلم (٥٢)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٩).

(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

وهذه منزلة عالية تطهر النفس من الأثرة (الأنانية)، ولا تقوى على بلوغها إلا النفوس الكبيرة التي تغلبت على شهواتها، وتطلعت لتكون في كتائب الإيمان.

ويؤسفني أن أرى الآن بُعداً عن هذا المستوى السامي الذي ربّى رسول الله ﷺ عليه أمته، فهناك نماذج من الناس تريد أن تستأثر بالخير المادي، ويسوؤها أن يكون لواحد من المسلمين ما لها، وهذا أمر خطير ينفي فيه رسول الله ﷺ الإيمان عمّن لا يحب للآخرين ما يحب لنفسه، وفسّر العلماء الحديث بأنه ﷺ ينفي كمال الإيمان عن هؤلاء نسأل الله السلامة.

إنّ الأمر واسع ففضل الله عظيم وعطاؤه عمّ الخلائق ويعمها إلى يوم القيامة.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل: «أنفق أنفق عليك».

وقال: «يد الله ملأى لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار». وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه يَغْضُ ما في يده»^(١).

من الذي يرزق الخلق منذ خلق السماء والأرض؟ هل من رازق غير الله؟ إنّه سبحانه دائم العطاء في الليل والنهار.

إنّ فضل الله واسع، ورزقه وفير، وعطاءه غزير، فلماذا لا نريد للآخرين السعة في الرزق، والهدوء في البال، والطمأنينة في العيش.

ما أجمل الحياة وما أروعها عندما يكون الإنسان في وسط كل من يحاوره ويعيش معه يريد له الخير الذي يريده لنفسه.

وهناك أثره بغیضة وهي التي تكون عند بعض الدعاة الذين يسوؤهم أن ينجح بعض الدعاة في اكتساب الناس وهدايتهم فتراهم من أجل ذلك يغمزون من قناة

(١) رواه البخاري (٤٦٨٤)، وابن ماجه (١٩٧)، وانظر كتابنا "التصوير الفني في الحديث النبوي" ص ٩٨.



الناجحين وتمتلئ صدورهم حقداً وكراهية لأولئك الناجحين، وهذا أمر منكر. عافانا الله والمسلمين منه.

إنَّ كون الإنسان يحب للآخرين ما يحب لنفسه يجعله سغيذاً قريير العين، وفي كثير من الحالات لا ينقص على المؤمن شيء من رزقه وجاهه إذا أحبَّ أن يُؤتى الآخرون مثل ما أوتي، ويكون بذلك قد تحقق بالإيمان. وهناك منزلة أسمى وهي أن يؤثر المؤمنُ الآخرين من المؤمنين على نفسه .. والكافرون بعيدون جداً عن هذا المستوى فقد ذكر تعالى عن هؤلاء الكافرين أنهم لو كان لهم نصيب من الملك لما أعطوا أحداً شيئاً ولو كان قليلاً، لأنَّ طبيعة الإنسان المجرد عن الإيمان هي طبيعته البخل، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمُ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

إننا في أشد الحاجة إلى أن يحبَّ بعضنا بعضاً لنكون أهلاً لحمل رسالة الإسلام إلى الدنيا. ألا فلتمتلئ صدورنا محبة للمؤمنين الصالحين، ولنحبَّ لهم ما نحب لأنفسنا، فذلك يجعلنا صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص.

نعم لنحبَّ إخواننا في الدين ولاسيما المضطهدون الذين يتعرضون لأشد كيد الأعداء، ولنُدع الله لهم أن ينصرهم ويؤيدهم ويثبتهم على الحق، ولتكن قلوبنا معهم .. فحبهم يقتضي أن نهتم بأمرهم طأنه أمرنا، فالمسلمون جسد واحد كما قرر رسول الله ﷺ.

سبق أن ذكرنا أنَّ الحبَّ في الله يقضي بأن يحبَّ المرء لأخيه ما يحب لنفسه وأوردنا الحديث المتفق عليه وذلك قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقلنا إن هناك منزلة أسمى من هذه المنزلة العالية وهي أن يؤثر المؤمن إخوانه على نفسه، وقد تحقق هذا الإيثار في عهد النبوة وفيما بعده أيضا. تحقق في أحداث عدة وصل إلينا خبرها بالسند الصحيح، فمن ذلك قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما. وإليك هذه القصة كما رواها في صحيحه وغيره.

○ قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: لما قدمنا المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الربيع. فقال سعد: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت (انقضت عدتها من الطلاق) تزوجتها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك. دلوني على السوق. فغدا إلى سوق قينقاع، فأتي بأقط وسمن أتى به أهل منزله .. ثم تابع الغدو. فما لبث أن جاء عباد الرحمن عليه أثر صفرة.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تزوجت؟». قال: نعم. قال: «ومن؟» قال: امرأة من الأنصار. قال صلى الله عليه وسلم: «وكم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أولم ولو بشاة»^(١).

الله أكبر! إنه واقع نفاخر به أمم الدنيا، وهو واقع نقل إلينا نبؤه بأصح الطرق التي عرفها البشر فالحديث في البخاري كما ذكرت. لقد حمل سعد بن الربيع حبه لأخيه على يقسم ماله الكثير بينه وبين أخيه المهاجر نصفين وهذا شيء غير قليل، ولكن تتمة القصة أعلى وأجل، فقد عرض على أخيه زوجتيه وقال له: إن الزوجة التي تعجبك فساطلقها .. حتى إذا انقضت عدتها تزوجتها ليس هناك حب أعظم من هذا الحب.

(١) رواه البخاري (٢٠٤٨)، والترمذي (١٩٣٣)، والنسائي (٣٣٧٣).



ولكن عبد الرحمن الذي رباه الإسلام على التعفف شكر أخاه، وقال له: بارك الله في أهلك ومالك، ولكن دلوني على السوق، وغدا نحوه ليعمل في التجارة، وفتح الله عليه فلم يمض وقت طويل حتى أسس أسرة واتخذ بيتا وأصبح ذا مال وفير.

لقد استطاعت هذه التربية المحمدية أن تصل بالمسلمين إلى هذا المستوى السامي من الود والمحبة .. لقد بنتهم هذه التربية المحمدية بناءً جديداً يخالف ما كانوا عليه من العداوة والبغضاء والحروب .. بناءً على المحبة والإيثار والتعاون والتكافل كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لو أنفق منفق أموال الأرض كلها ما استطاع أن يؤلف بين تلك القلوب المتعادية قال تعالى يذكر فضله على المسلمين: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٦ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال: ٦٢-٦٣]. وأصبحوا كما وصفهم الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

أيها السادة .. إن التحاب في الله كما يورث الأمة وحدة الصف، ويحقق المنعة والنصر لها، فكَذلك فإنه في الآخرة يورث الفوز والنعيم .. إِنَّ المتحابين في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي». (١)

(١) رواه مسلم (٢٥٦٦).

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلٌ معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

○ وعن معاذ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المتحابون في الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، يغطهم بمكانهم النبيون والشهداء».

○ وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى: «حققت محبتي على المتحابين فيّ، وحققت محبتي على المتناصحين فيّ، وحققت محبتي على المتبازلين فيّ، هم على منابر من نور يغطهم النبيون والشهداء والصديقون»^(٢).

لقد حضَّ ﷺ أمته على التحاب .. أي على أن يحبَّ بعضهم بعضاً ليكون التعاون والتكافل قائماً بينهم بوضوح، وليكون صفُّ الأمة صفّاً قوياً متماسكاً تتحطم على صخرته كل محاولات العدوان.

وقد رغب رسول الله ﷺ بالتحاب في الله بأساليب متعددة:

- منها أنه ﷺ ذكر أن من أحبَّ عبداً لا يحبه إلا الله ذاق حلاوة الإيمان، والمسلمون كلهم يودون أن يذوقوا حلاوة الإيمان:

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) رواه ابن حبان في "صحيحه" ٣٣٨/٢ برقم: ٥٧٧.



عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلَّا الله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».(١)

• ومنها أنه ﷺ ذكر أنَّ المتحايين في الله لهم مقامٌ يوم القيامة يغطهم عليه الأنبياء والشهداء:

عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله. قالوا: يا رسول الله فخبّرنا من هم؟

قال ﷺ: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلّ نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ هذه الآية: ﴿الْأَبْرَارُ أَولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].(٢)

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أنَّ الله ﻋَظَمُكُم عبداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله». فجثا^(٣) رجلٌ من الأعراب من قاصية الناس، وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله. انعتهم لنا، فسرَّ

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه أبو داود (٣٥٢٧) وهو حديث صحيح.

(٣) جاء في "مختار الصحاح": جثا على ركبتيه يثني جثيا، ويثني جثواً.

وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي فقال: «هم ناس من أفناء الناس»^(١) ونوازع القبائل،^(٢) لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسون عليها، فيجعل وجوههم نوراً، يفرع الناس يوم القيامة ولا يفرعون، وهم أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»^(٣).

يا لها من مكافأة عظيمة: مقامٌ عليّ، وسرورٌ دائم، وأحوالٌ سعيدةٌ تذكر بما أعدَّ الله للمؤمنين من النجاة من النار، والفوز بالجنة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٣١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٣٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

أيُّ قلب حاضر مؤمن يسمع نبأ هذه المكافأة ثم لا ينطلق إلى تحقيق ما يوصل إليها؟ ألا فلنحرص على أن نتحاب في الله، فمن كان لا يحب أحداً في الله، ولا يكره أحداً في الله، خسر تلك المزايا العظيمة التي ذكرناها، فقد ورد أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (والله لو صمتُ النهار لا أفطره، وقمتُ الليل لا أنامه، وأنفقتُ مالي كله في سبيل الله أموت وليس في قلبي حبٌّ لأهل طاعة الله، وبغضٌ لأهل معصية الله، ما نفعتني ذلك شيئاً).^(٤)

ما أحلى المتحابين وما أسعدهم، سواءً كانوا أزواجاً أو أولاداً أو إخواناً أو زملاءً أو شركاء .. والحبُّ الذي نعينه هو الحبُّ في الله .. الخالص لله لا لمصلحة،

(١) يقال: هو من أفناء الناس أي: لا يعلم ممن هو. والواحد فنو.

(٢) أي الغرباء الذين يجاورون قبائل ليسوا منها.

(٣) رواه أحمد ٣/٤٤٣، وأبو يعلى بإسناد جيد، ورواه الحاكم ٤/١٨٨ وقال: صحيح الإسناد.

(٤) جاء في "إحياء علوم الدين" ٢/١٥٨.



ولا للذة، ولا لخوف من بطش، ولا تعصبٍ لقبيلة أو بلدة، ولا لمتعة بحلاوة حديث المحبوب، ولا لانبساطٍ برؤية جماله.

هذا وعندما يكون الحب خالصاً لله تدوم العلاقة الودودة بين المتحابين. أما أنواع الحب الأخرى التي أشرنا إليها فليست العلاقة القائمة بين أصحابها دائمة .. بل تنقطع بانقطاع أسبابها .. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فينقلب الأخلاء في ذاك اليوم إلى أعداء ويبقى المتقون أخلاء. قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٦-٦٧].

وما دمنّا في حديث الحب فلا بدّ من أن نشير إلى أن حبَّ الله ورسوله ﷺ يجب أن يفوق كلّ حب في الدنيا. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

لقد ذكرت الآية الكريمة روابط ثلاثة يميل الإنسان إليها بالحب وهي: رابطة القرابة، والمال، والوطن.

■ أما رابطة القرابة فذكرت الآية الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة .. إن هؤلاء لا مانع من حبهم، بل هو ما تدفع إليه الفطرة، ولكن ينبغي أن يكون حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله أكثر.

■ والرابطة الثانية رابطة المال .. الإنسان يحبّ الأموال بفطرته. قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

فلا يطلب من المرء أن يخالف فطرته، ولكن عليه أن يكون الله ورسوله أحب إليه من المال.

■ والرابعة الثالثة رابطة حبّ الأوطان والمساكن .. فالإنسان بفطرته ميال إلى مسكنه الذي نشأ فيه:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم من منزل في الأرض يألفه الفتى وحينه أبداً لأول منزل
وقال ابن الرومي:

ولي وطنٌ أليت ألا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبّ أوطانَ الرجال إليهمُ مآربُ قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ عهد الصبا فيها فحنّوا لذلكا

لا مانع من أن يحب المرء وطنه ومسكنه لكن عليه أن يكون الله ورسوله ﷺ إلى والجهد أحب إليه من الأوطان والمساكن ..

فإن كان شيءٌ من هذه الروابط عند قوم أحب إليهم من الله ورسوله والجهد في سبيله فليتربصوا بالعذاب الذي سيصيبهم.

إنّ التحابّ الذي ربّى رسول الله ﷺ عليه أمته يجب أن يكون أول ما يكون بين أعضاء الأسرة الواحدة، بين الأب وأولاده، وبين الزوج وزوجته، وبين الإخوة والأقارب.

وإذا وُجد تباض وعداوة بين الأقرباء - وهو أمرٌ مستنكر في نظر الشرع - كان على المصلحين من ذوي النفوذ أن يسارعوا إلى إزالته، وإقامة الود والتحابّ محله.

وفي الحديث النبوي توجيهات تربوية تحقق التوادّ إن أخذ الناس بها، ومن أهم هذه التوجيهات الأمر ببر الوالدين والتحذير من عقوقهما:



○ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس وقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. (١)

وفيه الشاء على من يقابل قطيعة أقاربه بالمواصلة.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله. إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن لهم ويسئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ. فقال ﷺ: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك». (٢)

قال الإمام النووي: [والمِلّ: هو الرماد الحارّ، أي: كأننا تطعمهم الرماد الحارّ، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم لكن ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه وإدخالهم الأذى عليه]. (٣)

ومن هذه التوجيهات الحديث الآتي:

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر». (٤)

نصيحة غالية، ونظرة سديدة، وتوجيه سام، ينهانا رسول الله ﷺ عن أن يكره الرجل امرأته لوجود أمر فيها يكرهه؛ ذلك لأنّ الكمال في البشر متعذر، فكما أن

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٨).

(٣) "رياض الصالحين" ص ١٧١ ط المكتب الإسلامي.

(٤) رواه مسلم (١٤٦٧)، وأحمد ٣٢٩/٢.

فيها ما يُنتقد ويُكره، فيه هو أيضاً ما ينتقد ويكره، والله درّ القائل:
وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءَ نَبَلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهِ

إنّ علينا أن تكون نظرتنا للأمور شاملة، فلا يجوز أن نحكم على إنسان رجلاً كان أو امرأة، قريباً أو بعيداً، من خلال نظرتنا إلى عيب فيه؛ لأنّ ذلك سيجعلنا نحكم على الناس جميعاً بالسوء.

ليس هناك امرأة كلها عيوب، بل لا بدّ أن تكون فيها خصال حسنة، فعلينا إذا رأينا ما نكره أن نتذكر ما نرضاه من خلقها ودينها ومعاملتها.

إنّ المسلم يوظف الحبّ والبغض في خدمة دينه .. إنه يبغض أهل المعاصي .. ويبغض أعداء الله الذين يكيدون للمسلمين ويمكرون بهم وينكلون بهم .. ولا يمكن أن يبغض إخوانه المسلمين ولا سيما إذا كانوا ذوي أرحام.

إنّ تصرفات الكاره مع من يكرهه تكون تصرفات عنيفة دون شعور منه ولا قصد، ويكون كلامه ثقیلاً على النفس .. إنّ الكاره يفسّر كل تصرف بريء يصدر من صاحبه على أقبح الوجوه.

إنّ كراهية الآخرين تنكد حياة الكاره، وتجعله متألماً حزيناً، وقد تُسبّب له أمراضاً نفسية وجسدية. وقد تحمله على احتقار الآخرين والسخرية منهم، وهذا يؤدي إلى تدمير الأسرة، ونفقت وحدة الجماعة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَطِّ بَشَرٌ لِّئَلَّا تَلْبِثُوا فِي الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

لا بُدّ أن يكون فينا وفيمن نعاشر عيوب، ولا يجوز كما ذكرنا آنفاً أن نحكم على إنسان من خلال عيب فيه .. بل يجب أن يكون حكمنا قائماً على النظر إلى الحسنات والسيئات، وعلى أن نذكر المحاسن إذا رأينا العيوب.



إنَّ الكراهية التي نهانا رسول الله ﷺ بقوله: «لا يفرِّك مؤمن مؤمنة» .. إنها قد تقلب المحاسن إلى مساوئ .. وهنا يكون الوضع صعباً للغاية. قال الشاعر:

إذا محاسني اللاتي أدل بها كانت عيوبِي فقل لي: كيف أعتذر

فكثيراً ما تكون تصرفات الزوجة بريئة بعيدة عن الإساءة للطرف الآخر، ولكن الكراهية التي تملأ صدر الزوج تجعله يراها مسيئة إليه وموجهة نحوه، ويؤول بعض الكلمات التي يسمعها من زوجته تأويلاً قاسياً بعيداً عن الحقيقة. قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا

وهنا تقوم الخلافات والنازعات.

ما أعظم هذا التوجيه الكريم الذي نحتاج إلى أن نُذكّر به ونذكره دائماً «لا يكره مؤمن مؤمنة» .. تذكر يا أخي محاسنها ومزاياها كلما خطر في بالك عيب من عيوبها .. إنَّ العمل بهذا التوجيه التربوي يريح المسلم، ويجعله راضياً سعيداً شاكراً نعمة الله عليه.

إنَّ رسول الله ﷺ رَغِبْنَا في أن نتحاب، وقرر أنَّ ذلك طريق الإيمان ثم الجنة، ووصف ربنا سبحانه المؤمنين بأنهم رحماء بينهم فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وإنَّ أحقَّ الناس بأن نرحمهم أزواجنا، فقد قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» فلننظر إلى ما يسرنا منهم وهو كثير، ولنغض الطرف عما نكره، ولنسدد ولنقارب.

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وبذلك نتخلص من الكراهية التي تنغص علينا حياتنا.

* * *

التوبة

الإنسان معرض للوقوع في المعصية، لأنَّ النفس الأمارة بالسوء، والشيطان الذي توعد بني آدم بأن يغويهم، والشهوات الجذابة التي تميل إليها نفس، كل أولئك يجرون العبد إلى المعصية، ونحن - أهل السنة والجماعة - لا نرى العصمة لأحد من الخلق إلا الأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم. أما غيرهم فهم كما قلنا معرضون للخطأ. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»^(١).

بل إنَّ كتاب الله تبارك وتعالى ليذكر من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة رجعوا إلى الله واستغفروا لذنوبهم. قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْعَظِيمِ ١٣٤ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

ومن فضل الله علينا وعلى الناس أن جعل باب التوبة مفتوحاً لكل عاص، وليس هناك ذنب لا تقبل التوبة منه.

أما الأمم السابقة فقد كانت التوبة عند بعضها لا تتحقق إلا بأن يقتل المذنبون أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا الْبَاقِلَ فَتَقْتُلُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

(١) رواه أحمد ١٩٨/٣، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وانظر "صحيح الجامع الصغير" (٤٥١٥).



لقد أوجب الله التوبة على المؤمنين جميعاً فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فالفلاح في الدنيا والآخرة متوقف على التوبة إلى الله .. نعم علينا أن نتوب إلى الله كل يوم. فلقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو المعصوم ﷺ يتوب في اليوم الواحد مائة مرة:

○ عن الأغرب بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»^(١).

○ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(٢).

إنَّ التوبة النصوح تصوغ الإنسان صياغة جديدة، وتصفية تصفية تامة، وتحرره من تلك الآصار والانحرافات التي كان فيها .. ولذا فإنك تراه يكره أن يتذكر تلك الآصار، ويندم أشد الندم على أن قضى شطراً من حياته وهو مقترف لها.

وكذلك فإنَّ التوبة إذا كانت بين أفراد المجتمع تصون هذا المجتمع من الجرائم والمنكرات، وتقيه من استمرار الإجرام فيه، فذاك الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً .. وأراد أن يتوب، فوجهه بأنه لا توبة له استمر في الإجرام فقتل نفساً أخرى وأتم بذلك العدد إلى مئة.

وقصة هذا الرجل أخرجها البخاري ومسلم على النحو الآتي:

○ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلَّ على راهب

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢)(٤٢)، وأبو داود (١٥١٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧)، والترمذي (٣٢٥٩).

- أي عابد - فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فذلل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء.

فانطلق حتى إذا انتصف الطريق (أي بلغ نصف الطريق) أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله.

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم - أي حكماً - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاوسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة^(١).

فانظروا إلى هذا الرجل عندما سُدَّتْ في وجهه سبل التوبة، في بادئ الأمر، كيف استمرَّ في طريق الإجرام والقتل.

إنَّ على الدعاة إلى الله الذين يتحدثون إلى الناس في المساجد وفي وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمكتوبة أن يذكروا بهذه الحقيقة: إنَّ التوبة تمحو ما قبلها مهما كان كبيراً.

○ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»^(٢).

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨).



وفي هذا الحديث دروس تربوية كثيرة، ومن أهمها أنَّ البيئة تؤثر على الذين يعيشون فيها، فقد أدرك العالم المسؤول في هذا الحديث أنَّ البلدة التي كان فيها هذا السائل بلدة سوء، فأمره أن يتركها إلى بيئة فاضلة تُعينه على الاستمرار في الحياة الخيرة الدِّينة النظيفة. ومن هنا كان على المسلم ألا يعيش في بلاد الكفر ما دام قادراً على أن يحيا في بلاد المسلمين.

○ عن جرير بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى نارهما». (١)

○ وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تسكنوا المشركين ولا تجمعوهم، فنت ساكنهم أو جامعهم فهو مثلهم». (٢)

أما الإقامة المؤقتة في بلاد الكفار للتعلم أو التداوي أو الدعوة أو التجارة فلا مانع منها.

وفي الحديث بيان فضل العلم على العبادة .. بل لا تصح العبادة إلا أن تكون على علم.

وفيه أنَّ الذي يُفتي يجب أن يكون على علم، والعبادة دون علم لا تكفي. وإنه ليحزنني ما نرى اليوم من بعض أنصاف المتعلمين يتصدرون للفتوى والتأليف فيحللون الحرام ويحرمون الحلال. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أيها السادة .. التوبة وسيلة تربوية لتحافظ الأمة على المستوى الأخلاقي الرفيع الذي تميزت به أمة الإسلام .. فليس في الأمة إنسان محكوم عليه بأنه خاسر هالك أبداً. بل إنَّ كل عاص من العصاة مدعو للعودة إلى جادة الصواب. والشرعية

(١) رواه الترمذي (١٦٠٤)، وأبو داود (٢٦٤٥).

(٢) رواه الترمذي (١٦٠٥).

المطهرة تناديهم: أيها العصاة! أيها المقصرون! أيها المترفون على أنفسهم! أيها المضيعون للحقوق والواجبات! أصيخو أسماعكم إلى هذا النداء الآلهي الذي يدعوكم إلى الرجوع إلى الطاعة والتزام الصراط المستقيم، ويزين لكم القيام بالواجبات وأداء الحقوق إلى أصحابها، إسمعوا قول ربكم ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ * قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٨﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَلْحَسِنِّي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٩﴾ [الزمر: ٥٣-٥٦].

ألا ما أحلى هذا النداء .. نداء مملوء بالرحمة .. متروّع بالإشفاق .. فيأص بالحب .. مؤكداً للرعاية. جاء في بعض كتب التفسير:

[إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت .. وإنها الدعوة للأوبة .. دعوة العصاة المترفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده. وهو سبحانه يعلم ضعفهم وعجزهم. ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانه ومن خارجه.

ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، ويحلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث!

ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واهٍ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده، وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ويوقعه في المعصية، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.



يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا، فيمدُّ له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته حتّى يهين له جميع الوسائل ليصلح خطأه، ويقيم خطاه على الصراط.

وبعد أن يلجّ في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طُرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل ولا يستقبل. في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرحمة النديّ اللطيف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وليس بينه - وقد أسرف في المعصية، ولجّ في الذنب، وأبق عن الحمى، وشرّد عن الطريق - وبين الرحمة الندية الرخية، وظلالها السمحة. ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع. والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان: ﴿وَأَنذِرُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ۚ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

الإنابة .. وإسلام .. والعودة والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام .. هذا هو كل شيء .. بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء!
إنه حساب مباشر بين العبد والربّ. وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق .. من أراد الأوبة من الشاردين فليؤّب، ومن أراد الإنابة من الضالين فليتبّ، ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم .. وليأت .. ليأت وليدخل فالباب مفتوح .. والفيء والظل والندى والرخاء: كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب .. وهيا .. قبل فوات الأوان .. هيا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فما هنالك من نصير .. هيا فالوقت غير مضمون .. وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار .. هيا ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو هذا القرآن بين أيديكم .. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة. وعلى التفريط في حق الله .. ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ (١).

إنَّ التوبة أسلوب تربوي لتبقى الأمة محافظة على مستواها الأخلاقي الرفيع .. إذا وسوس الشيطان لواحد من المؤمنين استعاذ بالله، ولجأ إلى الله، وتذكر ما أنزل من البينات والهدى، وما أعد للعصاة الغافلين، وسارع إلى التوبة .. فإذا هو مبصر .. وقد نجا من كيد الشيطان وكان من عباد الرحمن المفلحين الفائزين ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١].

إنَّ أثر التوبة التربوي في حياة الفرد والمجتمع أثر كبير، ودورها في القضاء على الانحراف والجريمة، وفي نشر الفضيلة والخلق الكريم دور عظيم، فالعاصي الذي يتوب يكون محبوباً من الله. ويا لها من منزلة: أن يحبَّ الله عبداً من عباده. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

ولننظر إلى هذا الحديث الرائع الذي يغري الناس بالتوبة، ويقرر أنَّ الله تبارك وتعالى يطلب إقبال التائبين عليه.

○ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (٢).

كلمات تفيض بالرحمة والرأفة والحنان .. تنادي الشاردين المذنبين أن عودوا

(١) "في ظلال القرآن" ٣٠٥٨/٥.

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).



بسرعة إلى الصراط السويّ .. فمن أساء في النهار ووقع في المعصية فليعلم أن الله تبارك وتعالى يبسط له يده في الليل ليتوب .. فليقبل ولا يتأخر.

ومن أساء في الليل ووقع في المعصية فليعلم أن الله تبارك وتعالى يبسط له يده في النهار ليتوب .. فليقبل ولا يتأخر .. ما دامت الشمس تطلع من المشرق ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿[الحديد: ٢١].

أيها العصاة المذنبون .. لماذا تبكون هكذا معرضين عن الحق والاستقامة؟ ولماذا تصرون على البقاء في جحيم المعصية والغفلة .. إنَّ في ذلك هلاككم يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً .. ألم يأن لكم أن تراجعوا أنفسكم، وتقبلوا على ربكم .. ففي ذلك - والله - سعادتكم في الدنيا والآخرة، ونجاتكم من العذاب الأليم ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

وقوله ﷺ: «يبسط يده» فيه مع إثباتنا ما أثبت لنفسه وبعدها عن التأويل .. فيها بعد ذلك كناية عن طلب التوبة .. ومن كان طالباً شيئاً فلا بُدَّ أن يقبله .. تباركت أسماؤه وجلَّ ثناؤه فهو الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

بل إنه تبارك وتعالى يكرم التائبين الذين أضحوا يعملون الصالحات بأن يبدل سيئاتهم حسنات. قال تعالى في أوصاف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۖ ۝٦٨ يَضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

الله أكبر! ما أعظم كرمه! وما أوسع مغفرته! وما أجل رحمته! إن هذا ليجعل المنحرفين الفاسقين يسارعون إلى تعديل سلوكهم، ومراجعة أنفسهم قبل أن يدهمهم الموت، والموت قريب متوقع في كل ساعة، لأنه كما سبق أن ذكرنا أن التوبة عند الموت لا تقبل. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿[النساء: ١٧-١٨].

إن التوبة عند ذلك لا تقبل، وأجل الإنسان إذا جاء لا يستقدم الإنسان ساعة ولا يستأخر. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ٥﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[المنافقون: ١٠-١١].

○ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل من العبد ما لم يغرغر»^(١).

فالعاقل يسارع إلى التوبة وهو صحيح معافي، لأن أحداً لا يعلم الغيب ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ عَذَابًا وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

فإن كان المرء مسرفاً على نفسه بارتكاب المعاصي، مسوفاً للتوبة يؤجلها حيناً بعد حين، وفاجأه الأجل، وبلغت الروح الحلقوم وأراد أن يتوب لم يستفد شيئاً، ولذلك نجد الأمر بالتوبة للمؤمنين جميعاً. قال الله تعالى: ﴿وَأُتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيَّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وقال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٤٢٥٣)، والحاكم ٢٥٧/٤.



إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ
ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٠﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أيها السادة .. إنَّ العبد إذا أذنب ذنباً وتاب منه توبة نصوحاً توافرت شروطها وهي الندم على فعل الذنب والاقلاع عنه والعزم على أن لا يعود إليه، قَبِلَ الله توبته، فهو سبحانه التواب الرحيم، صاحب الفضل العظيم.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عِلْمُ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عِلْمُ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي فليعمل ما شاء». (١)

قال الإمام المنذري: [قوله (فليعمل ما شاء) معناه - والله أعلم -: أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه، بدليل قوله: (ثم أصاب ذنباً آخر) فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء؛ لأنَّه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره. لا أنه يذنب الذنب فيستغفر بلسانه من غير اقلع، ثم يعاوده، فإن هذه توبة الكذابين]. (٢)

إنَّ الذنب الذي يكون من العبد كالنكتة السوداء ترسم على القلب، فإن تاب المذنب ذهب تلك النكتة، ورجع القلب إلى صفائه ونقاؤه.

أما إذا استمرَّ المذنب باقتراف الذنوب والإصرار عليها، ولم يستغفر ولم يتب زادت هذه النكت وكان بعضها فوق بعض حتى تغلف القلب بالسواد.

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) "الترغيب والترهيب" ٢١ / ٤.

كما يحدث في زجاج السيارة المهملة التي تركت لعوامل الجو، فتراكمت عليه قطرات المطر والندى، وكان غوقها الغبار .. وعلى مر الأيام تتكون طبقة كثيفة من الأوساخ والغبار تحجب الرؤية على من يكون داخل السيارة.

وإذا غُلف القلب بالنكت السوداء ختم عليه، فلا تصل إليه موعظة، ولا يبلغه خير، ولإذا كان ذلك كذلك كان للشيطان مجال واسع يقود صاحب هذا القلب إلى المزيد من المعاصي والجرائم، وبذلك يكون من الخاسرين.

إنَّ قلب المؤمن مجلِّو دائماً بالتوبة .. نعم إذا زلت قدم المؤمن في معصية سرعان ما يتذكر فيستغفر ويتوب وينيب.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صَقَلَ مِنْهَا. وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغْلَفَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» (١).

هناك أسباب تدفع المرء المؤمن إلى التوبة، وهي كثيرة.

منها أن يعرف المذنب أن الفعل الذي قام به محرم يكرهه الله ويبغض فاعله، والحلال بيّن والحرام بيّن في غالب الأمور في المجتمع الإسلامي، ومن وقع في الحرام فقد ظلم نفسه، ووقع في غضب الله.

(١) رواه الترمذي (٣٣٣٤) وصححه، وابن ماجه (٢٤٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٣) / برقم (٩٣٠)، والحاكم ٥١٧ / ٣ واللفظ له من طريقين قال في أحدهما: صحيح على شرط مسلم. ولفظ ابن حبان وغيره: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً يُنْكَتُ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةٌ، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صَقَلَتْ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ».



○ عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ. وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مُحَارَمُهُ» ^(١).

فالعاقل يدع الأمور المشتبهات خوفاً من أن تكون من المحرمات.

وإذا كان ملوك الأرض يحمون حدودهم من كل عدوان أو اختراق، فما بالنا بالله العليّ القدير الجبار مالك الملوك؟

وكيف يكون مصير من يجترئ على الله ويتعدّى حدوده.

إِنَّ الْأَمْرَ رَهيبٌ جَدُّ رَهيبٍ. ومعرفة المحرمات إنما تكون عن طريق العلم.

* * *

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

المؤمن القوي

لقد رغب رسول الله ﷺ أتباعه أن يكونوا أقوياء في أجسامهم، وفي عقيدتهم وتدينهم والتزامهم بأحكام شريعة الله، وأقوياء في علمهم وفي أحوالهم المادية. وقد ربّاهم على ذلك، امثالاً لأمر الله سبحانه القائل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وهذا النصُّ عامٌّ يشمل كل أنواع القوة المكتسبة: من مادية ومعنوية. وقد نبّه رسول الله ﷺ على نوع من أنواع القوة وهو الرمي:

○ عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي. أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي. أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِي»^(١).

وهذا من دلائل نبوته ﷺ، ذلك أنَّ الرماية القوية تحقق النصر لمن يتصف بها سواء كانت الرماية بالسهم أو بما استحدث من أنواع الرماية البرية والجوية.

○ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كلِّ خيرٍ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتح عمل الشيطان»^(٢).

في حديث أبي هريرة هذا أمور عدة منها:

١. الثناء على القوة والترغيب باكتسابها، وإثبات الخيرية للمؤمن القوي، وإثبات محبة الله له. فو خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف.

(١) رواه مسلم (١٩١٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه (٧٩-٤١٦٨)، والنسائي في "الكبرى" (١٠٣٨٢) في باب (ما يقول إذا غلبه أمر)، وأحمد ٣٦٥/٢.



٢. إثبات الخيرية لكل مؤمن ولو كان ضعيفاً.
٣. الأمر بالحرص على ما ينفع الإنسان مطلقاً سواء كان النفع في دنياه أم في آخرته.
٤. الأمر بالاستعانة بالله مع العمل والبعد عن العجز.
٥. اجتناب استعمال لو في معارضة ما قدّر الله، واجتناب اعتقاد أنّ ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور.

إنّ هذا الحديث الجميل ليُطل ما يشيع عند بعض الناس من اعتبار المسكنة والدروشة والضعف الجسمي والاجتماعي من مظاهر التدين، حتى غدا في حين من الدهر لبس المرقعات دليلاً على التدين، وغدا نحول الجسم واصفرار الوجه علامة من علامات الصلاح.

إنّ الإسلام دين القوة والبطولة والحزم.

ليس من شك في أنّ القوة مما تميل إليه النفوس، والقوة تجذب قلوب الناس إليها وإلى المتحليين بها .. فالناس يحبون القوة ويمجدون أبطالها. والمؤمن الحق قوي متحلٍ بكل أنواع القوة المكتسبة.

فالرسول العظيم ﷺ وأصحابه الكرام أبطال القوة الخيرة البانية المعمرة.

إنّ القوة المحموده هي التي تكون مع الحق وفي خدمة الحق، وذلك أفهمه من قوله ص: «المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله ...» فقد ربط القوة بالإيمان .. أما إذا تخلت القوة عن الحق والإيمان، وكانت في تأييد الباطل والكفر فإنها عندئذ قوة مذمومة لأنها شريرة مدمرة. وها نحن أولاء نرى الآثار الوحشية المدمرة للقوة التي بأيدي اليهود المغضوب عليهم .. إنهم بآلة الحرب التي يملكونها من طائرات حربية ودبابات ومصفحات وجرافات ومدافع ينكلون - وا أسفاه - شرّاً تنكيل بالمسلمين العُزّل .. يخربون بيوتهم، ويجرفون أراضيهم الزراعية .. ويقتلون شبابهم

وشيوخهم وأطفالهم ويسجنون أفراداً منهم .. يعذبونهم بوسائل جهنمية دون رحمة ولا شفقة .. وهؤلاء اليهود أشباه من الكفار والظلمة في عصرنا وإنا لله وإليه راجعون.

والقوة نوعان: مادية ومعنوية، وسأتحدث بإيجاز بالغ عن كل من هذين النوعين.

- فمن القوة المادية قوة الجسم. ويتوصل إلى تنمية هذه القوة والمحافظة عليها بالرياضة، ومراعاة التغذية السليمة الصحيحة، ومحاولة اجتناب الانفعال. فالمشي والتسابق مع آخرين، والسباحة، والقيام بالتمارين الرياضية، وترك اسهر الطويل، ... ونحو ذلك.

وقد ذكرت الأحاديث النبوية أنَّ النبي ﷺ سابق عائشة أم المؤمنين ﷺ فسبقته مرة، ثم سابقها مرة أخرى فسبقها.

- عن عائشة ﷺ أنَّها كانت مع النبي ﷺ في سفر. قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم - أي فلما سمئت - سابقته فسبقني فقال ﷺ: «هذه بتلك السبقة».(١)

- ويروى أنَّه ﷺ صارع ركانة مرتين فصرعه في كل منهما، وركانة هذا لم يكن أحد يستطيع التغلب عليه.(٢)

(١) رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٩٥)، وفي كتاب

"عشرة النساء" بالأرقام (٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩) والنص عند النسائي أكمل وأوفى.

(٢) رواه أبو داود (٤٠٧٨)، والترمذي (١٧٨٤)، وانظر "سيرة ابن هشام" ٣١ / ٢.



ومن أنواع الرياضة التي تفيد في المحافظة على قوة الجسم السباحة، وهي رياضة ممتازة ينبغي أن نعود أولادنا عليها .. والذي لم يتح له أن يتعلمها ولم يعد قادراً على تعلمها فاتته شيء كثير. فليحاول التعويض بتمارين رياضية نافعة.

- ومن القوة الجسمية القوة التسخيرية الفطرية، وهي هبة من الله لبعض عباده، تكون في بسطة الجسم، وقوة العضلات، وسلامة الجسم من الأمراض، وقد رأينا في حياتنا نماذج من هؤلاء، وقرأنا عن أمثالهم في الكتب.
- ومنها القوة المكتسبة، وهي التي يكتسبها العبد عن طريق التعلم، وهناك طرقٌ يُدَرَّبُ عليها الناس لمواجهة من يهاجمه ويريد إيذاءه، وبها يستطيع أن يدفع عن نفسه العدوان .. وقد وُجد نواذِرُ عدة لهذه الرياضات.
- وهناك التمارين الرياضية التي تجعل المرء قوياً، وقد ألفت فيها كتب، ولا بُدَّ فيها من التلقي والتدريب.
- ومن الطرق التي تحفظ على المرء قوته، وتحفظ عليه حواسه البعد عن المحرمات .. كالبعد عن شرب الخمر، وقد بيّن العلم الأضرار المترتبة عن شرب الخمر وهي كثيرة. والبعد عن اقتراف الزنا، والأضرار التي تترتب على هذه الجريمة كثيرة، ومن أفتكها مرض فقد المناعة (الأيدز) والزهري وغيرهما. والبعد عن المخدرات التي تعظم خطرهما وفتكها.
- ومن الأمور التي تهدم الجسم بشكل بطيء (التدخين)^(١)، وأصبح ضرره محققاً عند جميع أطباء الدنيا مسلمين وغير مسلمين، ويؤسفني أن أقرر أن هذا الوباء منتشر في بلاد المسلمين، وهو محرم بشكل قطعي. لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) انظر كتابنا "تعميق الوعي بمخاطر التدخين والمخدرات".

أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»^(١).

• ومن الطرق التي تحفظ على الإنسان قوته، وتجعل أجهزته كلها قائمة بوظائفها الطبيعية أن يحذر من أن يركبه السمن؛ فالسمن مؤذٍ للرجل والمرأة.. إنَّ السمين لا يستطيع أن يجاري النحيف لا في المشي ولا في صعود الجبل أو الدرج العالي، كما رأيتنا آنفًا في حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد كان أحد مشايخي يقول: إنَّ السمين حَمَّال في الليل والنهار، لا يستريح ولا يضع الحِمْلَ عن عاتقه، وهو مغبون لأنَّ الحَمَّال يتقاضى أجرًا على حمله، أما السمين فهو الذي يدفع من صحة قلبه وركبتيه، ومن صحة أجهزته كلها الثمن الباهظ.

فعليك أن تعنى بغذائك عناية بالغة فتجنب كل ما يقود إلى السمن لتحفظ عليك قوتك ولتضمن سلامة أجهزتك.. وهناك وصايا وضعها علماء التغذية من المفيد أن تطلع عليها وتراغيها، وتحرص على تطبيقها.

وأود أن ألفت نظر إخواني وأخواتي من الوالدين والوالدات إلى العناية بتغذية أطفالهم، الذين هم أمانة وضعها الله بين أيديهم، ولا سيما الأمهات اللاتي يغلبهن الحنان في كثير من الأحيان، فلا ينبغي أن يستجيبوا لطلبات هؤلاء الأطفال الذين يرغبون في تناول الأكلات الجاهزة المترعة بالدهن، فهي ضارة لأجسامهم جالبة لهم السمن.

• ومن الطرق التي تحفظ على المرء سلامة أعضائه جسمه تجنبه للإنفعال والغضب؛

(١) رواه الحاكم ٥٧/٢، والدارقطني ٧٧/٣ و٢٢٨/٤، ورواه ابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت (٢٣٤٠) وعن ابن عباس (٢٣٤١)، وانظر "مجمع الزوائد" ١١٠/٤، و"جامع العلوم والحكم" ٢٠٧/٢.



فالإنفعال مؤذ للقلب أعظم الإيذاء، فهو سبب من الأسباب التي تؤدي إلى تضيق الشرايين، والإصابة بالجلطة، وكذلك فهو سبب من أسباب الإصابة بقرحة المعدة والاثنى عشري.

○ وما أعظم وصية النبي ﷺ للرجل الذي جاء إليه يقول: أوصني. فقال ﷺ: «لا تغضب». (١)

فالتغضب جماع الشر. وقد يقول قائل: إنَّ أمر الغضب ليس بيدي، فكيف أجتنب الغضب وأسبابه التي تدفع إليه كثيرة؟ والجواب أن نقول: ما ذكرته صحيح. ولكن ترويض النفس وحملها على الصبر والتصبر وعدم الغضب يمكن أن يحقق له تجنب الغضب بالتدرج، و«العلم بالتعلم». «ومن يتصبر يصبره الله». (٢) ثم ليسأل الإنسان نفسه: هل أفاده هذا الإنفعال في إزالة ما كان يسؤوه؟

● ومن الأمور التي تذهب بشيء من قوة الجسم، وتورث المرء الكسل السهر الطويل؛ لذلك كره العلماء السهر بعد العشاء.

○ عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها. (٣)

قال النووي: [كرهية الحديث بعد العشاء الآخرة، والمراد به الحديث الذي يكون مباحاً في غير هذا الوقت، وفعله وتركه سواء، فأما الحديث المحرم أو المكروه في غير هذا الوقت فهو في هذا الوقت أشد تحريماً وكرهية.

وأما الحديث في الخير كمذاكرة العلم وحكايات الصالحين، ومكارم الأخلاق،

(١) رواه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، وأحمد ٣/ ٤٨٤.

(٢) رواه مسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه البخاري (٥٦٨)، ومسلم (٦٤٧-٢٣٧).

والحديث مع الضيف ومع طالب حاجة ونحو ذلك، فلا كراهة فيه، بل هو مستحب، وكذا الحديث لعذر وعارض لا كراهة فيه. وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على كل ما ذكرناه^(١).

وقال الألباني تعليقاً على كلام النووي: [ينبغي أن يقيد ذلك بما إذا لم يترتب على الحديث بعد العشاء إضاعة شيء من الواجبات العينية، كالشباب مثلاً يسهر في دراسة العلم أو الاستعداد للاختبار إلى قريب من (آخر) الليل ثم ينام منهكاً فتفوته صلاة الصبح، فمثل هذا السهر ولو في طلب العلم لا يجوز.. وإنما عليه أن ينام مبكراً بعد صلاة العشاء ليستيقظ مبكراً لصلاة الصبح، وليجعل دراسته بعدها. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «بورك لأمتي في بكورها»]. انتهى.

أقول: وكذلك كانت بيوتنا يندر أن يكون فيها سهر إلا لمناسبة من المناسبات، وما عدا ذلك فالناس يؤون إلى بيوتهم وينامون مبكرين، ويستيقظون مبكرين، ويقومون إلى صلاة الصبح وهم نشيطون، وأدركت كثيراً من مشايخي إذا صلوا العشاء جلسوا قليلاً ثم ذهبوا إلى فرشهم للنوم.

ومما يتصل بتوافر القوة الجسمية للمرء الحرص على النظافة.. ذلك لأن كثيراً من الأمراض تأتي بسبب التهاون في النظافة.. والحرص على النظافة يشمل نظافة الجسم، ونظافة الثوب، ونظافة الفراش وفرش البيت كله، والنظافة في الطعام، ومن هنا نجد مزية الطعام المعد في البيت؛ إذ يكون المرء متأكداً من نظافته..

فبعض الأطعمة ينبغي غسل العناصر التي تدخل فيها قبل طبخها أو تقديمها طازجة للأكل، فمثلاً ينبغي غسل الخس ورقة ورقة، وكذلك أنواع الورقيات كالبقდونس والجرجير وما إلى ذلك.

(١) "رياض الصالحين" الحديث ١٧٥٥.



ويجب أن تكون يد الطابخة نظيفة مغسولة بالماء والصابون ..

أيها السادة .. إنَّ كثيراً من الأمراض تأتي من إهمال النظافة. ومن أجل ذلك نرى ديننا العظيم يرفع من شأن النظافة حتى يجعلها رسول الله ﷺ نصف الإيمان، وذلك في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»^(١) والطهور النظافة .. وفي ذلك بيان لقيمة النظافة في الإسلام حتى أنه ليقرنها بالإيمان.

إنَّ الإسلام يوجب على المسلم والمسلمة أن يغتسلا من الجنابة، وكذلك فمن السنة أن يغتسلا في الأسبوع مرة لحديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»^(٢).

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حقُّ الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يغسل رأسه وجسده»^(٣). وفي هذا الحديث لم يقيد الغسل بيوم الجمعة، وقوله: (على كل مسلم) يشمل المسلمة أيضاً.

ويوجب الشرع المطهَّر على المرأة أن تغتسل أيضاً من الحيض والنفاس. ويوجب الشرع على المرأة والرجل الوضوء إذا أراد الصلاة، وفي ذلك غسل للأعضاء التي هي على احتكاك بالعالم الخارجي. وكذلك فقد أوجب أن يستنجي كلما اضطر أن يدخل إلى دورة المياه.

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٨٧٩)، ومسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٤١)، وابن ماجه (١٠٨٩)، والنسائي (١٦٨٠)، والدارمي ١ / ٣٦١.

(٣) رواه مسلم (٨٤٩).

وأن يغسل ثوبه ويطهره، والمكان الذي يقف عليه ويؤدي فيه الصلاة.
إنَّ بعض أمراض العين ناشئ من إهمال النظافة، وكذلك بعض أمراض جهاز
الهضم.

فالمؤمن مطلوب منه ليستكمل القوة التي تجعله محبوباً من الله أن يُعنى بالنظافة
في كل جوانب حياته.

لنتأمل هذا الحديث العظيم .. حديث تفضيل المؤمن القوي على المؤمن الضعيف
وذلك في قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل
خير».

إنَّ هذا لحديث يُشعر بأنَّ على المسلم أن يستكمل صفات الدعوة المادية
والمعنوية إن أمكنه ذلك. وليس من شك في أنَّ قوة المسلم الجسمية تعينه على كثير من
الطاعات وأمر الخير:

تعينه على البرِّ بأبويه، وعلى صلة رحمه، وتعينه على خدمة الصالحين وتحقيق
مطالبهم، لاسيما إن كانوا مرضى أو مقعدين، وتعينه على العبادة، فالمؤمن الفائز يوم
القيامة هو من كان يسجد لله تعالى في الدنيا وهو سالم يغتنم السلامة ليكسب رضوان
الله. وأما الخاسر فهو الذي يأبى الاستجابة لمن يدعوه إلى السجود لله في الدنيا، ويوم
القيامة يحاول ذلك فلا يقوى عليه. قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ
يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهْقُمُ ذَلَّةً وَقَدْ
كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣]:

[لما دُعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا
بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلَّى الرب ﷻ فسجد له المؤمنون، لا يستطيع أحدٌ
من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً، كلُّما أراد



أحدهم أن يسجد خرّاً لقفاه عكس السجود كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنين].

إذن فالسلامة مطلب عزيز يحرص عليه المسلم، وهو مظهر القوة الجسدية، والسلامة عون لصاحبها على الاستجابة لأمر الله في الخضوع لحكمه والسجود له تبارك وتعالى.

والسلامة من الأمراض تمنح صاحبها القدرة على القيام بالواجبات وهي من أجل نعم الله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»^(١).

والعناية بالوصايا الطبية، والتمارين الرياضية يمكن أن تحقق للمرء المحافظة على السلامة، والأخذ بالأسباب من الأمور المشروعة، ويمكن أن نذكر بالأمور التي ينبغي أن يقوم بها من يريد الوصول إلى القوة المكتسبة والمحافظة على صحته.

- فالوزن الزائد ينبغي أن يُتخلَّص منه، لأنَّ بقاءه يرهق القلب، ويوهن الركب، ويجلب الأمراض.
- والعضلات الواهنة ينبغي أن تقوَّى، وذلك بالقيام بالتمارين الرياضية التي تقويها. وهذه التمرينات حركات يسيرة تبدو في أول الأمر موجهة، ولكنها بعد حين من الممارسة تصبح حركات سهلة لا يكاد يشعر من يقوم بها بأي عناء.

(١) رواه الحاكم ٣٠٦/٤، والبيهقي في "شعب الإيمان" ٤٧٦/١٢.

إنَّ مراعاة وصايا المختصين بالتغذية وتنفيذها والقيام بالتمارين الرياضية تعين على خلاص الأوعية الدموية من الشحوم التي تراكمت فيها، وتعين على تليين المفاصل المتيبسة وتقي من الأزمات.^(١)

قال الطبيب ناصحاً رجلاً: عليك أن تمشي كل يوم وقتاً معيناً، وأن تأتي ببعض التمارين الرياضية.

فقال الرجل: ومن أين آتي بالوقت لذلك؟

قال الطبيب: وما مشاغلك التي تبتلع وقتك كله؟

قال الرجل: أنا معلم مكلف بتحضير الدروس، وتصحيح الأوراق، وأنا رب أسرة مكلف بجلب أغراض يومية، وملزم بأداء بعض الواجبات الاجتماعية، وراغب بحضور بعض المحاضرات العلمية، ومتابعة بعض البرامج في المحطات الفضائية، فمن آتي بالوقت لتنفيذ نصائحك؟

قال الطبيب: التنظيم يحل كل مشكلة، وأودّ أن أسألك: هل مشاغلك أكثر من مشاغل رئيس الولايات المتحدة أضخم دولة اليوم؟

فما رأيك إذا كان هذا الرئيس يركض كل يوم وقتاً ويأتي بتمارين رياضية؟

أيها السادة .. إنَّ تنظيم الوقت يحقق للمرء كثيراً ممَّا يريد .. وإنَّ إنفاق شيء من الوقت للرياضة تبعد بإذن الله عن المرء أمراضاً لو حلت فيه لأخذت من وقته وجهده أضعاف الوقت المخصَّص للرياضة .. إنَّ المشي والتمارين الرياضي ليس رفاهية أبداً .. بل هو ضرورة وقائية وعلاجية لكثير من الأمراض .. ولا سيما وأن الناس لم يعودوا يمشون كما كانوا بسبب توافر وسائل النقل وتيسرها.

(١) رسالة "المؤمن القوي" للدكتور الطبيب سمير اسماعيل الحلو - نشر دار التراث - المدينة المنورة سنة ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).



وقد ذكر العلماء أنَّ القيام بالرياضة اليومية يحقق فوائد كثيرة نذكر بعضها فيما يأتي:

- ١- يخفض ضغط الدم المرتفع، ولكنه لا يخفض ضغط الدم العادي.
- ٢- يخفض دهنيات الدم، ولكنه لا يخفض مستوى الدهن الطبيعي.
- ٣- إنَّ الرياضة تستهلك طاقة، وبذلك تحرك دهون الجسم.
- ٤- إنَّ الرياضة تحسن الحالة النفسية للإنسان.
- ٥- إنَّ الرياضة لها أثر مباشر على بقاء القلب في حالة عالية من الكفاءة والحيوية.
- ٦- إنَّ الرياضة تقوي العضلات والأربطة، وتجعل المفاصل لينة وتبعد عن الإنسان آلام الظهر المزمنة.
- ٧- إنَّ الرياضة تزيد من عدد الشعيرات الدموية في العضلات المتدربة، وهذا يجعل ورود الدم إليها متيسراً. وغيرها كثير.

وقد جاء في جريدة الحياة:

[التمارين الرياضية لا الحبوب المهدئة، هي أفضل علاج للاكتئاب. هذا ما أكدّه أخيراً أطباء ألمانيّ وباحثون من جامعة (قري) في برلين، فقد أجروا دراسة شملت ١٢ شخصاً كانوا يعانون الاكتئاب، لمدة تسعة شهور، ولاحظوا تحسُّنَ نظرة هؤلاء إلى الحياة بعد ممارسة التمرينات الرياضية. ولفت معدّو الدراسة النظر إلى أنَّ ممارسة التمرينات على جهازٍ لحركة القدمين لمدة ٣٠ دقيقة يومياً يخفف من الشعور بالاكتئاب. وفي تقرير نشرته مجلة بريطانية مختصة بالطب الرياضي عن الدراسة قال الطبيب (فرناندو ديميو): إنَّ التمرينات الحركية قد تؤدي إلى تحسُّن الحال المزاجية لمرضى الاكتئاب في وقت قصير.

وفي الدراسة: أنَّ العقاقير التي يُنصَحُ بها لمعالجة هذا المرض لا يظهر مفعولها إلا بعد مرور أسابيع عدة، وأنَّ خمسة من الذين شملتهم لم تشفهم. بل كانت التمرينات شفاءهم.

وتعد رياضة المشي من أهم التمارين الرياضية لحركة القدمين^(١).

هذه الفوائد وغيرها تجعل جسم الإنسان قوياً، وتبعد عنه صفة الضعف، وبذلك يكون خيراً وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

* * *

ومن أنواع القوة المادية التي ينبغي أن تتوافر في المسلمين وفي المجتمع الإسلامي قوة المال.

فالمال عندما يكون في يد المؤمن يكون له قوة كبرى، فكثير من مظاهر القوة المادية تعتم،د على المال.

فبالمال يستطيع المسلمون أن يستكملوا وسائل القوة وأدواتها التي يدافعون بها عن أنفسهم وبلادهم.

وبالمال يستطيع المسلمون أن يقوموا بالدعوة إلى الله ونشر دينهم العظيم عن طريق الصحف والمجلات والنشرات والإذاعة والتلفاز والمحطات الفضائية، وكل ذلك يحتاج إلى المال.

وبالمال يستطيع المسلم أن يوفر لأهله وأولاده بنين وبنات الحياة الكريمة التي تجعلهم أعزة أقوياء من الغذاء واللباس والمسكن ووسيلة النقل.

(١) جريدة الحياة - الصفحة الأخيرة - العدد رقم ١٣٨٩١ - يوم الأربعاء ٣ محرم عام

١٤٢٢هـ الموافق ٢٨ آذار سنة ٢٠٠١م..



وبالمال يتحقق التكافل الاجتماعي .. فلا تكون مجاعة .. ولا يكون فقر، وكاد الفقر أن يكون كفراً، وكان النبي ﷺ يستعيز من الكفر والفقر. فعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر». (١)

وإنَّ للفقر فتنة كان رسول الله ﷺ يتعوذ منها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر....». (٢)

وفي رواية: «وأعوذ بك من المأثم والمغرم». فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيز من المغرم؟ فقال ﷺ: «إنَّ الرجل إذا غرم حدث فكذب، ووعد فأخلف». (٣)

والمؤمن الغني الصالح ينفق مما آتاه الله على الفقراء والمساكين، ويساعد المحتاجين، ويمد المشاريع الخيرية بما يعينها على الاستمرار في عملها.

وقد رغب الإسلام بكسب المال عن طريق العمل: قال الله ﻋَﻠَﻴْكَ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

○ عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه». (٤)

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٨٣٢).

(٤) رواه البخاري (٢٣٧٣).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»^(١).
 - وذكر رسول الله ﷺ أن أنبياء الله كانوا يعملون، فقد ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم. كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»^(٢).
 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كان زكريا عليه السلام نجاراً»^(٣).
 - وعن المقدم بن معديكرب رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده»^(٤).
- إنَّ القوة المالية لها وزن كبير في كل عصر، سواء كان ذلك في نطاق الأمة أو في نطاق الأفراد. فالمسلم الذي وهبه الله من المال ما يكفيه ويسد حاجته وما يعين إخوانه، تراه عزيز النفس محترماً بين الناس.
- ولقد حرص الإسلام على أن يكون المسلمون جميعاً أغنياء.
- عن سعد بن مالك (وهو سعد بن أبي وقاص) قال: عادي النبي عام حجة الوداع من مرض أشفيت منه على الموت. فقلت: يا رسول الله. بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة. أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا». قال: أفأتصدق بشرطه؟ قال: «لا». قال: أفأتصدق بثلثه؟ قال: «الثلث والثلث كثير. إنك أن تذر ذريتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون»

(١) رواه البخاري (٢٠٧٤ - ٢٣٧٤)، ومسلم (١٠٤٢).

(٢) رواه البخاري (٢٢٦٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٧٩).

(٤) رواه البخاري (٢٣٧٩).



الناس». (١)

ذكرنا فيما سبق أنَّ من القوة التي تدخل في عموم قوله ﷺ «المؤمن القوي» قوة المال .. والناس ينظرون إلى الإنسان الغني - في كثير من الأحيان - نظرة تقدير واحترام، ويكون عندهم مكرماً، لا لشيء إلا لكونه يملك العقارات، وله الكثير من المحلات والمشروعات، وعنده الكثير من الريالات. قال الشاعر:

إنَّ الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة وهي السلاح لمن أراد قتالا

فإذا جمع العبد الصالح إلى المال حسن الخلق، وصلة الأرحام، ومواساة الفقراء، وإعانة المساكين، زاد احترامه في أعينهم، وعظم حبه في قلوبهم، والنفوس السوية مجبولة على حبٍّ من أحسن إليها. والله در أبي دلامة إذ يقول:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

يُروى أنَّ لقمان قال لابنه: (يا بني أكلتُ الحنظل، وذقتُ الصَّبر^(٢))، فلم أر شيئاً أَمَرَ من الفقر. فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينتقصوك، ولكن اسأل الله من فضله). (٣)

وقد قيل: (الناسُ لصاحب المال ألزم من الشُّعاع للشمس، وهو عنده أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وقوله مقبول، يُرفع مجلسه، ولا يُمل حديثه). (٤)

(١) رواه البخاري (١٢٩٥ - ٣٩٣٦ - ٥٦٦٨)، ومسلم (١٦٢٨) وقد أورد له طرقاً متعددة.

(٢) الصبر بكسر الباء: الدواء المر، ولا تسكن إلا في ضرورة الشعر.

(٣) "المستطرف" ٩٥/٢.

(٤) "المستطرف" ٩٦/٢.

وقال الشاعر:

جروح الليالي ما لهنَّ طبيبٌ وعيش الفتى بالفقر ليس يطيب
وحسبك أن المرء في حال فقره تُحَمِّقُه الأقوامُ وهو ليبُّ^(١)

وقال آخر:

إذا قلَّ مال المرء لانت قناته وهان على الأدنى فكيف الأبعد^(٢)

وبالمال تقضى معظم الحاجات، وتحقق كثير من الرغبات. قال الزمخشري:

وإذا رأيت صعوبة في مطلبٍ فاحمل صعوبة على الدينار
وابعثه فيما تشتهيهِ فإنَّه حَجَرٌ يُلِينُ قسوةَ الأحجار

والدعوة إلى الله في بلاد المسلمين وفي العالم كله لها نفقات، وهي تحتاج إلى المال،
وها نحن أولاء نرى دعاة الشر والباطل ينفقون الأموال الطائلة ليصدوا عن سبيل
الله ولينشروا الباطل، وهذا شأنهم دائماً. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

إنهم الآن يقيمون المطارات الخاصة بدعاتهم، ويبنون المستشفيات لنشر
عقائدهم، ويطبعون الكتب والنشرات، ويصدرون الجرائد والمجلات، وينشئون
الإذاعات والفضائيات .. يسخرون ذلك كله لنشر ما يؤمنون به من الأباطيل
والخرافات، والفكر المنحرف.

وأهل الحق أولى بأن يعملوا على نشر دينهم الحق والدعوة إليه، وأن ينفقوا مما
رزقهم الله في هذا السبيل.

(١) "المستطرف" ٩٦/٢.

(٢) "المستطرف" ٩٧/٢.



وإذا كان كسب المال لتحقيق هذه المقاصد النبيلة مطلوباً فيجب ألا يستغرق طلب الكسب وقت الإنسان كله .. حتى يهمل الواجبات .. بل عليه أن يقوم بها كلها، وأن يتذكر الآية الكريمة التي وردت في قصة قارون وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۖ﴾ وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

إنَّ على المسلم أن يجمل في طلب الرزق، فالرزق مقسوم، وهو آتٍ لصاحبه. قال رسول الله ص: إنَّ روح القدس نفث في روعي أنَّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

ومن القوة المادية القوة المتمثلة في تكاثر الأفراد، وهذا المعنى واضح في الأمة أكثر من وضوحه في الأفراد .. نعم كان في المجتمعات البدوية التي يقوم الفرد فيها في الدفاع عن نفسه وماله وحريمه .. أما الآن فإنَّ الدولة هي التي تقوم بهذه المهمة، ولكن ما تزال الكثرة في الأولاد مما يحمد للمرء، وما يزال الاستكثار من الأولاد أمرٌ يسعى إليه كثير من الناس في عدد من بلاد المسلمين، ولا سيما في الأرياف والبوادي.

وقد رَغِبَ الإسلام في الإنجاب، وامتنَّ الله على عباده بأن رزقهم أولاداً وحفدة. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقرر سبحانه أنَّ المال والبنين زينة الحياة الدنيا فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال ﷺ: «لا»، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم». (١)

وعن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى». (٢)

وإن من نعم الله على المسلمين أن جعل نسبة التكاثر فيهم عالية، ونزعهما من اليهود والنصارى.

والقوة البشرية - مهما هونوا من شأنها - ما تزال قوة يحسب لها الحساب؛ ذلكم لأن الإنسان ثروة كبيرة، فالطفل سرعان ما يكبر، فيكسب ويفكر ويخترع .. ويكون نافعا لأمته مستعداً للدفاع عنها وعن قيمها ومثلها. وقد شعر الكفرة بخطر تكاثر المسلمين من زمن بعيد، فعملوا بوسائل كثيرة على نشر فكرة تحديد النسل بينهم وإقناعهم بها، مع أن حفظ النسل من المقاصد الخمسة التي جاءت شريعة الإسلام لحفظها؛ وهي: حفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ النفس، وحفظ النسل وحفظ المال.

فمن الوسائل التي سلكها هؤلاء الكفرة في تحقيق مقصدهم الهدام إفقار المسلمين، وتحويل الطبقة الوسطى التي فيها الخير غالباً، إلى الطبقة الفقيرة التي لا تجد ما يقوم بضروراتها إلا بصعوبة بالغة، وذلك بإقامة النظم الاشتراكية التي تفقر الغني وتُبقي الفقير فقيراً، بل تزيده فقراً.

(١) رواه أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٣٢٢٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن ٧/ ٧٨، صحيح الجامع الصغير (٢٩٤١).



ومن هذه الوسائل تخويفهم من الانفاق على الأولاد، وفاتهم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وفاتهم أن هذا الوليد ربما كان سبباً لتحسين الوضع المادي لأسرة والده، وهذا ما رأيناه بأم أعيننا .. فلقد كنا نعرف أناساً فقراء معدمين يتصدق المحسنون عليهم، رزقوا بأولاد كثر .. لما كبر هؤلاء الأولاد اشتغلوا فكانوا من كبار الأغنياء.

ومن هذه الوسائل زعمهم بأن قلة الأولاد تعين على التربية النموذجية وفاتهم أن المربي هو الله .. وأن على المرء أن يبذل جهده في حسن التربية ثم يكل الأمر إلى الله .. فهناك رجل أنجب سبعة عشر ولداً ذكراً من أم واحدة .. وهو رجلٌ مستور عامي .. وتعلم هؤلاء الأولاد .. فكان منهم مهندسون وأطباء ومعلمون، ولم تكن كثرتهم بمانعة للأسرة من حسن التربية والتوجيه .. وهناك رجل لم ينجب إلا ولداً واحداً وسعى في تعليمه وتربيته .. فكان هذا الولد المدلل منصرفاً عن العلم، وآل أمره إلى أن يكون زمرة الجهلة السفهاء. ولم ينفعه توحده وتفرده.

وكنت قرأت لكاتب غربي يحذر قومه من الخطر الذي يتوقعه من المسلمين، وقد ذكر جوانب هذا الخطر، وقال: هي كثيرة وأهمها أربعة أمور:

١ - قال: إن المسلمين يحملون عقيدة يقبلها الإنسان المثقف، والإنسان العادي، وهي عقيدة لا مخالفة فيها للعقل ولا للمصلحة، ولا تعقيد فيها ولا غموض .. إنها عقيدة تملأ جوانح النفس والروح. وهذا ما يفتقده الآخرون.

٢ - وقال: إن المسلمين يتكاثرون بمعدل يفوق معدلات الأمم الأخرى. وإنهم سيصلون إلى أن يكونوا الأكثرية في العالم.

٣ - وقال: إن المسلمين يعيشون في بقعة كبيرة جداً وهي معتدلة، وهي استراتيجية لا غنى للأمم المتقدمة عنها.

٤ - وقال: إنهم يملكون ثروات لا نظير لها عند الآخرين.

فذهب القوم يحاولون درء الخطر عن أنفسهم قبل أن يتغاقم، فعملوا - كما ذكرنا - على اقناع الناس بتحديد النسل. وقد باء عملهم بالإخفاق والله الحمد في أكثر البلاد، وإن كان عملاؤهم في بعض البلاد قد استطاعوا - بتوجيه من سادتهم - إقناع نفر بلائقلا من النسل.

وأحب أن أقول لإخواني وأخواتي من الشباب والشابات: إنَّ عليهم أن يستجيبوا لأمر الرسول ص «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم» «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى»

نعم لا بدَّ من أن يُوعَى المسلمون بأن من واجبهم الاستكثار من الأولاد، فما يدري المرء فقد يكون من هؤلاء من هو عظيم النفع والاصلاح لأهله وللمسلمين. إنَّ كثرة العدد مصدر قوة، وتعظم هذه القوة عندما نحسن إعداد أبنائنا وبناتنا بالعلم والخلق، وإغرائهم بالإبداع والاختراع.

* * *

ذكرنا أنَّ كلمة (القوة) تشمل القوة المادية والقوة المعنوية، وقد ذكرنا أنواعاً من القوة المادية .. وسنتحدث عن القوة المعنوية.

والقوة المعنوية لها وزنها في إحراز النصر للأمة والدفاع عن نفسها، وفي صلاح الأمة وتربية أجيالها، وفي النجاح في نشر دعوتها.

ويعبّر المعاصرون عن جانب من جوانب القوة المعنوية بـ (المعنويات) فيقولون: معنويات الجنود عالية ومرتفعة، أو معنوياتهم منهارة ومنخفضة. وكذلك فهم يقولون: معنويات المصاب عالية ومرتفعة، أو معنوياته منهارة ومنخفضة.

إنَّ القوة إذا كانت لدى قوم جناء، منهاري العزيمة، يائسين لا أمل عندهم بالنصر .. قوة معطلة، قضي عليها وعلى من يملكها بالعجز والهزيمة. وهذا أمرٌ



ملاحظ ملموس بشكل جليّ في رجلين يختصمان ويصطرعان: أما أحدهما فرجلٌ ضعيف البنية ولكنه شجاع جرئٌ مقدام ثابت الجنان لا يهاب شيئاً، وأما الآخر فرجلٌ قوي البنية مفتول العضلات ولكنه جبان .. فسرعان ما يكون النصر للأول منهما.

وقد مرّ بنا أيضاً أنّ الغنى الحقيقي غنى النفس لا كثرة الأموال وذلك في قوله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكنّ الغنى غنى النفس»^(١).

فنحن هنا أمام نوعين من الغنى؛ غنى ناشئ عن كثرة الأموال والأعراض، وغنى آخر هو غنى النفس، وهذا هو الغنى الحقيقي سواء كان مع صاحبه المال أم لم يكن.

ومن القوة المعنوية شعور المسلم بالعزة التي أثبتها الله للمؤمنين وذلك في قوله: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. ويسلك الإسلام باتباعه السبل العملية التي تنتهي بهم امتلاك العزة وانغراسها في أعماق نفوسهم:

- ومن هذه السبل تقرير خيرية هذه الأمة إذا هي اتصفت بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].
- ومن هذه السبل حظر تقليد الكفار على المسلمين حتى لا يشعروا بأنهم ضعفاء لأنّ الضعيف يقلدّ القويّ. ولا يرضى الإسلام للمسلم أن يستسلم لواقع يكون

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

فيه المسلم ضعيفاً. والنصوص في هذا المعنى كثيرة. منها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»^(١). ومنها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «خالفوا المشركين: احفوا الشوارب وأوفروا اللحى»^(٢). وما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم وخفافهم»^(٣).

- ومن هذه السبل بيان أن الحياة الدنيا متاع زائل، والعاقبة للمتقين وهم الأعلون، فقد انهزم المسلمون في يوم أحد فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٣١ إِنَّ يَمَسُّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا يَبْتَ النَّاسُ ﴿١٤٠﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].
 - إن اقتناع المسلمين بأنهم الأعلون يمنحهم قوة عظمى تجعلهم لا ينحنون أمام ضغط الظروف، وتجعلهم يبدؤون مرحلة جديدة من النهوض.
 - ومن هذه السبل أن الإسلام حمل المسلمين رسالة التوحيد، وكلفهم أن ينشروها في الأرض.. فغدا الواحد منهم أستاذاً ومرشداً.. وهذا يشعره بالعزة.
- لقد ألقى المسلمون الأولون العصبية القبلية وراء ظهورهم.. هذه العصبية التي كان يقوم عليها مجتمعهم في الجاهلية، وأضحوا يعتزون بالإسلام، ويعدون ذلك شرفاً لا يقرب منه شرف.. لقد كان كل واحد منهم يرى أن مهمته تحرير العباد من

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١)، وأحمد ٢/ ٥٠-٩٢، وانظر ما كتبه محمد أسد في كتابه "الإسلام على مفترق الطرق"، وما كتبه في مقدمتي لكتاب "الحكم الجديرة بالإذاعة" ص ٤٨-٤٩.

(٢) رواه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩)، وأبو داود (٤٩٤٤).

(٣) رواه أبو داود (٦٥٢)، والحاكم ١/ ٢٦٠، والبيهقي في "السنن" ٢/ ٤٣٢.



الشرك، ومن المظالم التي كانت ترهق كواهل الناس حتى قال قائلهم (وهو نهار بن توسعة الشكري):

دعي القوم ينصر مدّعيه ليلحقه بذئ الحسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتحروا بقيس أو تميم^(١)

وما أروع كلمة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (نحن العرب قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله).
والشواهد على ذلك كثيرة.

وكلفهم أن يبلغوا هذه الرسالة للناس أجمعين، كلُّ حسب ما يستطيع.
يقول عليه السلام: «بلغوا عني ولو آية»^(٢).
وذكر ابن هشام في "السيرة النبوية"^(٣) قال:

[لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إنَّ غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبيني، لنقص كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك، فدردت إليك جوارك.

فقال له: لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي.
قال: لا، ولكنني أَرْضَى بجوار الله، ولا أريد أن أستجير بغيره.
قال: فانطلق إلى المسجد فاردد عليَّ جوارِي علانية كما أجزتك علانية.

(١) "الكامل" للمبرد ٣/ ١٠٩٧ ط الدالي، وفي رواية: بذئ النسب.

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩-١٠.

فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ علي جوارِي.

قال: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار، ولكنني أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددت عليه جواره.

ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة في مجلس من قريش ينشدهم فجلس عثمان معهم، فقال لييد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان: صدقت. قال لييد:

وكلُّ نعيم لا محالة زائل

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

قال لييد بن ربيعة: يا معشر قريش. والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إنّ هذا سفية في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا، فلا تجدنّ في نفسك من قوله. فردّ عليه عثمان حتى شري أمرهما (أي: زاد وعظم) فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخصّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان. فقال: أما والله يابن أخي. إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة.

قال عثمان: بل والله إنّ عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار مَنْ هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمّ يابن أخي. إن شئت فعد إلى جوارك. فقال: لا.]

لقد أدرك عثمان رضي الله عنه أنه ينبغي أن يصحح الناس مقولاتهم المغلوطة، ودخل عثمان إلى مجلس لقريش، فكان ينظر إلى هؤلاء المشركين نظرة إشفاق عليهم؛ إذ كانوا يعبدون أوثاناً لا تضر ولا تنفع، وأحسّ في نفسه أنه يجب عليه أن يصحح لهم ما يرى من انحراف، وأن يدلهم على السبيل السويّ .. لا فرق عنده في ذلك بين الفقير



والغني، والسوقة والسري. إنهم كُلُّهم في نظره محتاجون إليه احتياج المريض إلى الطبيب والدواء .. من أجل هذا شرع يصدع بالحق الذي آمن به، معتزلاً به اعتزازاً كبيراً، وكيف لا يفعل ذلك، وقد حمل رسالة الإسلام ليلبغها إلى كل من يلقاه. ولذلك فقد استحسن الصواب من قول لبيد فقال له: صدقت. وأنكر الغلط من كلامه فقال له: كذبت. نعيم الجنة لا يزول.

وفي القصة أمور أخرى، ومعان كريمة تستحق أن نُعلّق عليها من نحو إثارة عثمان رضي الله عنه جوار ربه على جوار أحد من الخلق، ومن رغبته مشاركة إخوانه فيما يلقون من الأذى في سبيل الله، وإبائه أن يتميز عنهم بحماية أحد .. وكل ذلك يتصل باعتزازه بالإسلام .. لقد استعذب ما لقي من الأذى دون أن يرى هذا الأذى من المشركين قد نال من عزته التي غرستها في نفسه عقيدة الإسلام .. فكان قوياً كما يظهر من هذه الحادثة على الرغم مما يظهر للناس من ضعفه. فرضي الله عنه وأرضاه.

ونحن اليوم بحاجة إلى هذا الدرس التربوي؛ ذلك لأنَّ حال المسلمين حال مؤلمة، فقد أصابهم من التخلف ما أصابهم، واستهدفوا من قبل اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم .. إنهم بحاجة إلى أن يتذكروا دائماً أنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأنَّ الأيام دول، وأنَّ النصر لهم إن هم نصرُوا الله وأقاموا شرعه. قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. ووعده الله لا يتخلف.

ذكرنا أنَّ من القوة المعنوية شعور المسلم بالعزة الإسلامية، ومورد مثلاً حياً تتجسد فيه العزة الإسلامية.

بعث رستم لإلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه وجرى حوار بينه وبين رستم يدل على اعتزاز بالإسلام، وقد تأثر رستم بهذا الحوار .. ثم طلب من سعد أن يبعث له رسولاً آخر، فأرسل إليه ربعي بن عامر، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابي الحرير، واليوافيت واللالع الثمين، ولزينة العظيمة وعليه تاجه .. وقد جلس على سرير من ذهب .. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة .. وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه. فقالوا له: ضع سلاحك. فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتوني، فإن تركتوني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: إنذروا له. فأقبل عليه يتوكأ على رمحه. فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟

قال: لا، بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن تؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال: أسيدهم أنت؟



قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم.
فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال: هل رأيتم قطُّ أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب!! أما ترى إلى ثيابه؟!

فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة. أنَّ العرب يستخفُّون بالثياب والمأكَل، ويصنون الأَحساب.

في هذه الحادثة مواقف تتجلَّى فيها العزة الإسلامية التي كان يتحلَّى بها رجل مسلم أمام رأس من رؤوس أعظم دولة في الأرض في زمانه .. إنه ربعي بن عامر .. رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم .. دخل عليه فلم يؤخذ بالوسائد المذهَّبة، ولا بالسجاد الحريري، ولا باليواقيت والآلئ، ولا التاج المرصع بالجواهر على رأس رستم، ولا بالسرير الذهبي الذي كان يجلس عليه .. لم يأبه بكل هذه المناظر .. وقد دخل بثيابه المتواضعة وعليه سلاحه: سيفه ورمحه، وعليه درعه وعلى رأسه خوذته، فاعترضه الحراس والجنود، وطلبوا إليه أن يضع سلاحه، ولكنه رفض هذا الطلب، وقال: أنا جئت بناءً على دعوتكم، ولم آت مبتدئاً ولا طالباً مقابلة أحد منكم، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت.

وهنا قال رستم: ائذنوا له، فأقبل يمشي مشية الأبطال متوكئاً على رمحه وجرى بينه وبين رستم قائد الجيوش الفارسية الحوار الآتي:

- قال رستم: ما جاء بكم إلينا؟

- قال ربعي: الله ابتعثنا لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله .. أجل جئنا لنحرركم من العبودية لغير الله .. ولنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها؛ ذلك لأنَّ الدنيا في نظر من لم يكتب الله لهم الهداية محصورة في الطعام الطيب والشراب والمتعة الجنسية، وتحصيل المال الوافر، والاستكثار من الأولاد والأنصار،

والتفوق في عرق أو أرض، وليس شيء بعد ذلك. قال الله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجَبَ الْكُفَّارُ بَنَاتُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرَبُّهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ [الحديد: ٢٠]. وهي سريعة الزوال ﴿وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

والدنيا أوسع من هذا بكثير.. هناك عبادة الله، وهناك نشر دين الله، وهناك تحرير المظلومين، وهناك مساعدة الضعفاء والمساكين، وهناك رضوان الله.

ثم قال: جئنا لنخرجكم من جور الأديان إلى عدل الإسلام. فإن أنتم قبلتم منا هذه الدعوة التي هي في مصلحتكم رجعنا عنكم وكنتم إخواننا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله.

- قال رستم: وما موعود الله؟
- قال ربعي: الجنة لمن مات في القتال، والظفر لمن بقي.
- قال رستم: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟
- قال ربعي: نعم.. كم تريد أن تؤخره يوماً أو يومين؟
- قال رستم: بل نريد مدة أطول.
- فقال ربعي: ما سنّ لنا رسول الله ﷺ أن يؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فانظر في أمرك، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. وكأنه يريد أن يقول: إما الإسلام، وإما الجزية، إما الحرب.
- وعندئذ سأله رستم: هل أنت سيد القوم؟
- قال ربعي: لا. ولكن المسلمين يجير أدناهم على أعلاهم.
- إنها مواقف تتجلى فيها العزة الإسلامية بأجلى صورها.



إِنَّ استمساك الإنسان بعقيدته التي آمن بها يمنحه قوة هائلة، وإنَّ شعور المسلم بالعزة التي كتبها الله العلي الكبير للمؤمنين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يمنحه أيضاً قوة هائلة. وتلك والله هي القوة الحقيقية التي تحتاج إليها الأمة في كل مراحل حياتها.

إِنَّ الإسلام حرّر المؤمنين من كل أنواع العبودية الباطلة .. حررهم من عبادة الأصنام والحيوان والنار والبشر والشهوات وغير ذلك من الطواغيت .. كان هذا لكل من آمن بعقيدة التوحيد من الأحرار والعبيد، ونودّ أن نعرض نماذج ممن كانوا أرقاء وننظر كيف حررتهم هذه العقيدة من المهانة التي كانوا فيها، فغدوا أقوياء .. على مختلف أحوالهم غالبين ومغلوبين.

هذا بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه كان من الأرقاء الذين يعيشون في مكة، وقد ولد فيها، وأمّه حمامة مولاةً لبني جُمح .. كان من السابفين للإسلام، ومن الذين عذبوا في الله أشدَّ العذاب. كان من الذين أظهروا إسلامهم في وقت مبكر؛ ذلك لأنَّ من آمن وكانت له عصبة من قومه منعهم الله بها، وأما الآخرون من الأرقاء والموالي مثل ياسر وعمّار وسمية وصهيب والمقداد وبلال فقد لاقوا شدة شديدة .. لقد أخذهم المشركون وألبسوهم دروع الحديد، وأوقفوهم في الشمس في مكة، وحملوهم على أن يقولوا كلمة الكفر، فوافق بعضهم المشركين على ما أرادوا، وثبت الآخرون ومنهم بلال الذي هانت نفسه عليه في الله وصبر على العذاب، ولم يقل كلمة الكفر.

[كان بلال مملوكاً لأمية بن خلف الجمحي القرشي، فكان يجعل في عنقه حبلاً، ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به .. يطوفون به في شعاب مكة .. يسخرون منه ويضحكون، ويعذبونه وهو يقول: أحد. أحد. لم يشغله ما هو فيه عن توحيد الله.

وكان أمية يخرج به في وقت الظهر في الرمضاء - وهي الرمل الشديد الحرارة - ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتبعد اللات والعزى.

فيقول: أحد . أحد .

فمرّ به أبوبكر يوماً فقال: يا أمية ! أما تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى تضربه؟

قال: أنت أفسدته، فأنقذه مما ترى، فاشتراه منه، وأعتقه، فأنزل الله فيه وفي أمية في سورة الليل: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ٢٠ وَلَسَوْفَ يَرَى ٢١﴾ [الليل: ١٤-٢١] أي أبو بكر بما يعطيه الله في الأخرى جزاء أعماله^(١).

- وقد وردت رواة عدة في قصة شراء أبي بكر بلالاً:
- منها أن رسول الله ﷺ قال عندما بلغه ما يلقي بلالٌ من العذاب: «لو كان عندنا شيء لا بتعنا بلالاً». فقام سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بشرائه.
- ومنها أن أبا بكر رضي الله عنه اشترى بلالاً وهو مدفونٌ في الحجارة بخمس أواق ذهباً، وبعد أن تم البيع قالوا لأبي بكر: لو أبيت أن تشتريه إلا بأوقية واحدة لبعناكه. فقال أبو بكر: والله لو أبيت أن تبعوه إلا ببائة أوقية لأخذته.
- وقد أخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح أمين الأمة رضي الله عنه.
- وروى الحاكم أن النبي ﷺ قال: «السُّبَّاقُ أربعة: أنا سابق العرب، وسلمان سابق

(١) من كلام الشيخ محمد الخضري رحمه الله في "نور اليقين" بتصرف يسير.



الفرس، وبلال سابق الحبشة، وصهيب سابق الروم»^(١).

- وأخرج مسلم^(٢) في فضائل الصحابة عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: كنا ستة نفر. فقال المشركون: اطرده هؤلاء عنك فلا يجترئون علينا، وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل وآخران، فأنزل الله **﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾** [الأنعام: ٥٢].

وكان بلال من المجاهدين الأبطال، فقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليك مشهداً من مشاهد مشاركته في القتال يوم بدر: يرويه لنا سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يصف مقتل أمية بن خلف ودور بلال في التحريض على قتله، فيقول عبد الرحمن ما ملخصه:

[كنت في الجاهلية أدعى (عبد عمرو)، وكنت صديقاً لأمة بن خلف في الجاهلية، فلما أكرمني الله بالإسلام تسميت (عبد الرحمن) فكان إذا ناداني: يا عبد عمرو لم أجبه، فصار يناديني: يا عبد الآله فأجيبه.

يقول عبد الرحمن: فلما كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه علي، ومعني أدرع قد استلبتها، فأنا أحملها، فلما رأي ناداني: يا عبد عمرو. فلم أجبه، فقال: يا عبد الآله. فقلت: نعم. قال: هل لك في فأنا خير لك من هذه الأدرع التي معك؟ قلت: نعم. فطرح الأدرع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، فكنت أفودهما وأنا بينه وبين ابنه، إذ رآه بلال معي. وكان أمية هو الذي يعذب بلالاً بمكة على ترك الإسلام.

فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا.. ثم صرخ بأعلى

(١) رواه الحاكم ٣/ ٢٨٥ وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣) (٤٦).

صوته: يا أنصار الله. رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. فأحاطوا بنا ثم قتلوهما.

فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أذراعي وفجعني بأسيري^(١).

إننا اليوم بحاجة إلى أن نتذكر هذا المعنى العظيم الذي تضمنته الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية الكريمة الأخرى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

لقد كان بلال وأمثاله معتزين بعقيدتهم فاستطاعوا بفضل من الله أن يكونوا أقوياء، وبذلك نالوا الخيرية التي قررها رسول الله ﷺ للمؤمنين الأقوياء في قوله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير».

لقد قضى ربنا سبحانه أن العزة للمؤمنين، ولا راداً لقضائه.. وقد رأينا كيف تمنح هذه العزة، إذا امتلأ بها صدر المؤمن قوة تجعله لا يهاب الموت، وقد ضربنا على ذلك مثلاً بسيدنا بلال رضي الله عنه الذي كان عبداً مملوكاً لأمية بن خلف، فلما آمن بلال أضحى إنساناً يتمتع بشخصية قوية، يعلن إسلامه في محيط كافر، ويصرُّ على تمسكه بعقيدته، ولا يبالي في سبيل ذلك بما يلقي من العذاب، ثم كان لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه الفضل في شرائه ثم عتقه.

لقد كان صابراً على ما يلقي في حالة الرق، وكذلك فقد كان صابراً على ما يلقي في حالة الحرية:

عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أخفت في الله تعالى وما يخاف أحد، ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة وما لي ولا لبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٢).

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٣-٢٨٥.

(٢) رواه أحمد ٣/ ١٢٠-٢٨٦، والترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وابن حبان (٦٠٦٥)، أبو نعيم في الحلية ١/ ١٥٠. والحديث صحيح.



وقد مرض في المدينة عندما قدم إليها هو وأبو بكر رضي الله عنه:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امرئٍ مصبِّحٌ في أهله والموتُ أدنى من شراك نعله ^(١)

وكان بلال إذا ألقه عنه يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبیتنَّ ليلةً بواِدٍ وحوالي إذْ خَرُّ وجليلاً
وهل أردنَ يوماً مِياهَ مِجَنَّةٍ وهل ييُون لي شامةً وطفيلٌ ^(٢)

قالت عائشة: فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدَّ، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومدّها، وانقل حمّاها إلى الجحفة».

- وأخرج البخاري أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا).

وهذا الأثر يدل على فضل بلال ومكانته بين الصحابة، ويدل أيضاً على تواضع سيدنا عمر رضي الله عنه، ويدل على مشروعية أن نقول (سيدنا) لأي رجل من الصحابة، ويشعر من باب أولى أن نقول ذلك لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- لقد شهد بلال ض المشاهد مع النبي صلى الله عليه وسلم وتوجه في عهد عمر رضي الله عنه إلى الشام مجاهداً فمات بها في طاعون عمواس، وكانت وفاته في دمشق سنة ثمانٍ عشرة للهجرة. وقيل سنة عشرين. ودفن في مقبرة الباب الصغير، وعاش بضعا وستين سنة.

(١) البيت لعمر بن أمية.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٨-٢٣٩. والإذخر والجليل نوعان من النبات. ومجنة: مكان قريب من مكة كان يقام فيه سوق. وشامة وطفيل جبلان بقرب مكة.

- ومن فضائله ﷺ ما رواه أبو هريرة ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لبلال بعد صلاة الفجر: «يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَقَّ نعليك بين يدي في الجنة». قال بلال: ما عملت عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليتُ بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. (١)
- وفي رواية لمسلم أَنَّ رسول الله قال: «رأيت الليلة ...». وفيه وفي مسند أحمد: «سمعت خشف نعليك ..». والخشف: الحركة الخفيفة.
- ووقع في رواية لأحمد (٢): «... خشخشة ...». وقال البخاري: دف نعليك: يعني تحريك.
- وهذه بشارة عظيمة لبلال ﷺ أنه من أهل الجنة، ورؤيا الأنبياء وحي كما هو مقرر.
- وفي حديث بريدة الذي رواه أحمد: «بم سبقتني إلى الجنة؟».
- وقوله (صليت ما قدر لي أن أصلي) نصٌ عام يشمل الفريضة والنافلة. وفيه الحث على الصلاة عقب الوضوء لئلا يبقى الوضوء خالياً عن مقصوده.
- ومن أخباره ﷺ أنه نزل داريا، وهي قرية قريبة من دمشق، وتزوج من بني خولان من أهلها، ولم يعقب.
- ومن أخباره أنه قدم مرّة المدينة من الشام في عهد عمر ﷺ فأذن، فلم يُرْ بالك أكثر من ذلك اليوم.

* * *

(١) رواه البخاري (١١٤٩)، ومسلم (٢٤٥٨)، وأحمد ٣٣٣/٢.

(٢) "مسند أحمد" ٣٥٤/٥.



ولننظر كيف صاغت التربية النبوية من العبيد المملوكين سادة أقوياء، لهم رأيهم لا يتنازلون عنه، يصمدون ولا يصرفهم عن الحق الذي آمنوا به ترغيب ولا ترهيب، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

لقد كان بلال رضي الله عنه نموذجاً حياً لهذه التربية الكريمة .. عبدٌ مملوكٌ عند مالكٍ فظٌ غليظٌ ظالمٌ عنيفٌ، ورأس من رؤوس الكفر .. ويريد الله الخير والفلاح لهذا العبد المبارك فيشرح صدره للإسلام .. فأمن وأسلم وأعلن إسلامه، فلم يرق ذلك لسيدته الظالم، فنهاء عن ذلك، فلم يستجب له، فلجأ إلى التعذيب الذي يمتلكه الطغاة الظلمة في كل عصر، يعذبون الجسم ويهددون بالقتل .. ولكنَّ بلالاً صبر وصابر، ولم يبال بما يلقي من العذاب .. لقد كان بلال أقوى من مُعذِّبه .. وكان هو المنتصر .. وكان الطغاة المشركون الذين يملكون التعذيب هم المنهزمين؛ لأنَّهم لم يستطعوا أن يخرجوه عن دينه، وكانت العاقبة له ولأمثاله من المؤمنين الصابرين .. لقد شعر بالعزة التي كتبها الله للمؤمنين فأضحى سيداً على رغم الظروف القاسية التي كان يعيشها.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سيد قریش وسيد العرب وسيد العالمين في زمن خلافته: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا.

يا له من فخار ومن شرف وسؤدد.

ما أجهل أن يستجيب المسلمون لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوة، ليكونوا سادة في بلادهم وقادة يقودون الناس جميعاً إلى الخير والصلاح، والأمن والأمان .. إنَّ المؤمن القوي يحقق لأُمَّته التقدم والعز والنصر.

وهناك فتوى طريفة للإمام أحمد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه الجميل السياسة الشرعية تبين أهمية القوة للمسلمين. قال:

[سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، أحدهما قويُّ فاجر، والآخر صالح ضعيف. فمع أيهما يُغزى؟ فقال: أما الفاجر القوي، فقوّته للمسلمين، وفجوره على نفسه. وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين. فيغزى مع القويِّ الفاجر، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»^(١).]

ويبين ابن تيمية ﷺ أَنَّ الْقُوَّةَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ فَقَالَ:

[والقوة في كل ولاية بحسبها:

- فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها؛ فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ^(٢)، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي، وطعن، وضرب، وركوب، وكرٍّ وفرٍّ ونحو ذلك كما قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال النبي ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحبُّ إلي من أن تركبوا، ومن تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا». وفي رواية: «... فهي نعمة جحدها»^(٣).

- والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام^(٤).

* * *

(١) "السياسة الشرعية" ص ١٧.

(٢) الحرب خدعة بالضم والفتح أنصح. انظر "مختار الصحاح".

(٣) رواه ابن ماجه (٢٨١١)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، وأحمد ١٤٦/٤، والحاكم ٩٥/٢ على شرط مسلم.

(٤) "السياسة الشرعية" ص ١٥-١٦.



ويحسن أن نذكر بأن من أهم أنواع القوة للأمة ولل فرد التحصيل العلمي .. والأمم المتقدمة المعاصرة جعلت العلم أساساً تقوم عليه دولها ومؤسساتها الاجتماعية والعسكرية .. وغيرها..

وقد راجعت بعض الأمم الحية الأوضاع التعليمية في بلدانها عندما رأت أن بلداناً أخرى تقدمت عليها في التحصيل العلمي والاختراع والإبداع.

وقد سبق أن ذكرنا التوجيهات النبوية التربوية التي تحض على طلب العلم، وذكرنا أيضاً أن العلوم الإسلامية نوعان:

- منها ما كان فرض عين على كل مسلم ومسلمة.
- ومنها ما كان فرض كفاية، وهو كل ما يتصل بالعلوم التي تحتاج إليها الأمة في مصالحها الدفاعية والطبية والاجتماعية، ومعلوم أن فرض الكفاية إن قام به بعض المسلمين سقط الطلب عن الباقين، أما إذا لم يقم أحد من الأمة به أثم القادرون على تحقيق ذلك أثموا جميعاً.



ونود أن نذكر أيضاً بأن من أهم أنواع القوة للأمة ولل فرد المسلم الاتصاف بحسن الخلق .. إن ذلك يحقق القوة ويحقق للمسلم الخيرية، ومحبة الله تعالى.

إننا لن نستطيع أن نكسب الناس إلى جانبنا بأموالنا، ولا بإطعامهم الطعام الطيب، ولا بإلباسهم اللباس الفاخر، لأن ذلك يستنفذ ما عندنا، ولكننا نستطيع أن نكسبهم ونقنعهم بتبني دعوة الحق التي جاء بها رسول الله ﷺ بالخلق الزكي، والمعاملة الحسنة، والوجه البشوش .. إن هذا يمنحنا قوة كبيرة. يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

- وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).
 - وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٢).
 - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»^(٣).
 - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق»^(٤).
 - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(٥).
 - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً»^(٦).
- إنَّ كيان الأمة معتمد على أخلاق بنيتها والله درّ من قال:
- وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧)، والدارمي ٣٢٣/٢، وأحمد ١٥٣/٥.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣)، والترمذي (٢٣٨٩)، وأحمد ١٨٢/٤.

(٣) رواه البخاري (٣٥٥٩)، ومسلم (٢٣٢١).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٣ - ٢٠٠٤).

(٥) رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢).

(٦) رواه البخاري (٣٧٥٩)، والترمذي (٢٠١٩).



لقد فتحنا الدنيا بأخلاقنا ومعملتنا للآخرين، فدخلوا في دين الله أفواجاً.
وهكذا يتبين أنَّ حسن الخلق من مكونات قوة المرء المسلم.
فإلى التخلق بالخلق الحسن أيها الشباب وأيتها الشابات.
والحمد لله رب العالمين.

* * *

الفهرس

٥	 مقدمة
٧	 مقدمة المؤلف
١١	 الترغيب في التعلم
٢٤	 المسؤولية
٤١	 طلب العلم
٩٢	 الحلم
١٠١	 آداب المجلس
١١٠	 إبطال التبني
١٢٣	 عيادة المريض
١٣٠	 العائد في هبته
١٣٩	 التقوى
١٤٩	 التكبر
١٥٧	 حسن الخلق
١٧٧	 التداوي
١٨١	 الزهد في الدنيا
١٨٨	 إطعام الطعام
٢٠٥	 الإطعام في رمضان
٢١٨	 آداب الطعام
٢٣٥	 الإحسان إلى الخدم
٢٤٤	 حفظ النعمة
٢٦١	 إكرام الضيف
٢٦٦	 المزاح



٢٧٥	السلام
٢٩٠	التزاور
٢٩٤	الإستئذان
٢٩٧	الغضب
٣٠١	همسة للزوجات والأزواج
٣٠٥	الجشاء والإكثار من الطعام
٣٢٧	العقل والتفكر
٣٣٥	الجرأة في قول الحق
٣٦٤	المراقبة الذاتية
٣٧٤	التحاب والتواد
٣٨٧	التوبة
٣٩٩	المؤمن القوي
٤٣٩	الفهرس

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة
www.alukah.net